السجن.. الوطن

فريده النقاش

الكلمة
دار الكلمة للنشر

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

السجن.. الوطن

صمم الغلاف : سعد عبد الوهاب

الكلمة
دار الكلمة للنشر

شارع ليون - بناية سلام . الحمراء
بيروت . لبنان
ص . ب ١٣/٥٢٨٨
تليفون ٨٠٣٧٤٠

■ جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

السجن.. الوطن

فريده النقاش

دار الكلمة للنشر

إهـــــــداء

إلى زكي مـــراد

«انقضت هذه الجلسة بسرعة» استوقفني التعبير الذي أطلقه زكي مراد ببساطة.. كنا أربعة عشرةَ متهماً في قضية الحزب الشيوعي نجلس في قفص بمحكمة الاستئناف انتظاراً لهيئة المحكمة التي سوف تنظر اعتراض رئيس الجمهورية على قرار سابق بالإفراج عنّا.. كان التعبير على بساطته يشي بذلك الاعتياد وتلك الحميمية التي يتعامل بها الرجل مع السجن.

في القفص كان أكثرنا حيوية.. لا يكبره في العمر سوى شيخ العرب محمد علي عامر الذي تجاوز السبعين.. وجودهما معاً يضفي حماية على الجميع.. يظللنا.. القفص يضم العمال والفلاحين والطلبة والمحامين وأنا.. ويبرز من بيننا زكي مراد.. كان أطول نقاش دار بيني وبينه على الاطلاق ، هو ذلك النقاش حول حميمية السجن.. «لا.. لا أحد يمكن أن يألف السجون... لقد خبرتها معتقلاً ومحكوماً ومحتجزاً.. كسرت الحجارة وسلسلوا يدي وقدمي وحبست انفرادياً عدة سنوات.. لكن الكائن السوي لا يألف هذا.. إننا نتعمد الألفة. لأننا موضوعياً نعرف أننا سوف نكون هدفاً دائماً لضربات أعداء الشعب».. قال... «ولكنني متفائل جداً». والحق أن التفاؤل كان جزءاً من البناء النفسي العام للرجل. امتزج بأفكاره واستمد منه قوة روحية هائلة على مواجهة الصعاب.. لم يتحدث أبداً عن اختياره للنضال.. ذلك الشيء البديهي لا يتحدث عنه الناس.. أو يتفاخرون. انهم يوجهون بمجرد وجودهم الدعوة لكل فضائل الإنسان كي تكشف عن نفسها، كي تتجلى في العمل من أجل المستقبل.. قلت لنفسي بعد حديث طويل معه لا بد لي أن أعرفه على وجه حقيقي. كنت أنا التي لا أعرف شيئاً عن سجون فاروق أو الثورة الحالي في السؤال لمعرفة التفاصيل.. وكان هو يحيلني الى انتصارات الناس في السجون أو الجامعات أو الشوارع، والمصانع تلك القدرة التي تلوح لشدة امتزاجها بالرجل كأنها الفطرة.. قدرة على التقاط الجوهري من العابر، الأساس من الفرعي والامساك به.. والتحلي بالروح العملية التي تجسم في التو واللحظة ولا يغيب الهدف البعيد عنها أبداً..

«تضحيات الناس شيء عابر لا بدّ منه . . طالما دافعت عن حق الناس في التنظيم والتعبير» قال . . «ولكن الأمر أعقد كثيراً . . القضايا لا تحل بالهتاف والتغيير لا ينجز بمرافعة . . . إنما بالقوة المنظمة والفعّالة لحلف الشعب العريض . . كلما قلت الأيام التي نقضيها في السجون كان ذلك أفضل» أما هو . . الرجل الذي لا يمل مناوأة المظالم . . ففي فترة سماح قصيرة بين «حبستين» تزوج وانشأ أسرة وعشقها . . وعلى طريق مناوأة الظلم عبأ كل من يعرفه من أهالي النوبة الفقراء وهو ابن العمدة . . كان باستطاعته أن ينسلخ ويتعالى ويعيش في الهدوء والرغد . . ما أعظم قدرة الإنسان الذي يختار بوعي ، حين يقدم . . . القدوة وموهبة القيادة . . فن اكتشاف الشموع الصغيرة في الظلام والنجوم البعيدة جداً وتوجيه أبصار اليائسين إليها وإيقاظهم . . قلت لنفسي إنني محظوظة حقاً لأنني عرفته . . . وحين نخرج من هنا لا بدّ أن أسعى اليه . . . لا بد أن أعرفه بشكل أفضل . . لا يكفي أن أستمع إلى دفاعه الباسل عن الناس في ساحات المحاكم . . ولا أن أستمع إليه خطيباً سياسياً محرضاً من نوع فريد . . حين خرجنا شدّنا الزحام كل في طريق . . ولكن وعدي لنفسي ظل قائماً . أن أسعى إلى التعرف الحقيقي على زكي مراد . . إلى أن قضى في حادث سيارة غامض ففاضت روحي . . . غالباً ما يتأخر انجاز الوعود الثمينة للنفس لأنها وعود تخصنا . . أين أفتش إذن لكي أتعرف على الرجل والموقف وفاء لوعد قطعته على نفسي . هل أنزع الآن . . الآن فقط إلى احالة كل الفضائل من الصلابة والثبات والفعالية إلى الذين ماتوا . .

. . . حقاً كنت محظوظة لأنني عرفت هذا الرجل وكنت ممتنة لزماني الذي في حين حمل إلينا ريح السموم ، عاش فيه زكي مراد الذي أراني الآن أحيل إليه فضائل أقل كثيراً جداً من تلك التي كانت له . . .

وإليه أهدي هذا الكتاب المليء بالدموع.

فريدة النقاش

تقديـــــم

إنني لا أقدم هذا الكتاب لأرسم صورة زاهية لبطولة ما تخصني أو تخص أحداً غيري، فقد أصبح من الأمور العادية أن تفتح السجون أبوابها موسمياً لمئات من المثقفين والعمال، المهمومين بمشكلات الوطن هما إيجابياً، حتى أنه يكون غريباً جداً أن يعمل أحد بالسياسة من بين أبناء جيلي ويفلت من تجربة السجن. أصبح السجن اذن جزءاً من الوجدان الوطني العام.. وإنما أبغي تقديم رد عملي على أكذوبة تتردد كثيراً في الآونة الأخيرة.

لقد راجت في شعارات الحكومة وأجهزة الاعلام خلال السنوات الماضية تلك التأكيدات الواثقة الملحة على صورة الأمن والأمان التي يتمتع بها المواطنون في بلادنا. وزاد الحديث في الآونة الأخيرة عن الحقوق الفريدة التي يتمتع بها الإنسان المصري حيث الواحة الديمقراطية في مواجهة الارهاب الشمولي الذي يسود الأقطار العربية الأخرى، بل أن وثيقة خاصة بحقوق الانسان المصري يجري تدبيجها. وبات الحديث عن اغلاق المعتقلات ووقف التعذيب للمسجونين السياسيين نغمة دائمة تحدث عليها تنويعات يومية على السنة المسئولين، بل وأصبح بعض هؤلاء المسئولين يعايرنا نحن المثقفين التقدميين باغلاق المعتقلات، ووقف المحاكمات الاستثنائية (علماً بأنها لم تتوقف). إن تجربتي الخاصة المحدودة للغاية منذ عام ١٩٧٢ تقول بغير ذلك على طول الخط، فمع امتناني للمحاكم والقضاة الشرفاء، افتقدت أسرتي الصغيرة منذ ذلك التاريخ أي احساس بالأمن والأمان، وكان علي أنا وزوجي وأطفالي وأسرتينا وأصدقائنا، أن نصنع لأنفسنا أماناً خاصاً، وأن نحيط حياتنا بتلك المباهج والمشاعر والتحصينات المعنوية التي تحمينا من الارهاب المتصل الذي وقع علينا طيلة هذه السنين بأشكال مختلفة، حتى أننا اضطررنا أن نقدم لطفلينا جرعات كبيرة من المفاهيم السياسية السابقة لأوانها في عمريهما، وأن نملأ حياتهما الروحية والعقلية بصور الصمود والبطولة، وأن نختزل الكثير من مباهج الطفولة في حياتهما، وكنا نود كأبوين عصريين أن نترك لهما بأكبر قدر من الحرية حق الاكتشاف وأن لا نقدم مسبقاً رؤيتنا نحن.

في سنة ١٩٧٢ ألقي القبض على زوجي وزميلي حسين عبد الرازق ووجهت له تهمة المشاركة في

الأحداث الطلابية التي هزت حياة مصر في ذلك الحين، وجاءت بعد ما يقل عن أربع سنوات من الأحداث المشابهة في سنة ١٩٦٨ التي فجرتها الهزيمة.

في سنة ١٩٧٣ فصلت أنا وزوجي مع ما يزيد على مائة من الكتاب والصحفيين والمحامين والفنانين من عضوية الاتحاد الاشتراكي- الحزب الوحيد في ذلك الحين- وهو ما ترتب عليه محاولة فصلنا من عملنا الصحفي والنقابي. ووجهت لنا حينئذ تهمة الانحراف عن الخط الوطني، وعدنا إلى عملنا بعد معركة انتخابية رائعة في نقابة الصحفيين نجحت فيها باكتساح قائمة الوطنيين التقدميين في مواجهة الحكومة، وكانت عودتنا في ذكرى رحيل الرئيس جمال عبد الناصر وقبل حرب اكتوبر بأسبوع واحد.

وفي سنة ١٩٧٥ نقلت أنا وزوجي بقرار جمهوري من جريدة الجمهورية إلى جريدة الأخبار دون أن يستشيرنا أحد، ومنعنا من الكتابة وهو الأمر الذي تواصل منذ ذلك الحين وحتى الآن، وبالطبع لسنا وحدنا الممنوعين من الكتابة.

في يناير سنة ١٩٧٧ ألقي القبض على زوجي بتهمة التحريض على أحداث يناير التي اندلعت في طول البلاد وعرضها احتجاجاً على سياسة التجويع ورفع الأسعار، ومنذ صدور قرار الاتهام في مايو ١٩٧٧ الذي يضمه مع مائة وستة وسبعين مناضلاً من العمال والطلاب والمثقفين، يقضون جميعاً ما يقرب من ثلاثة أيام كل أسبوع ماثلين أمام المحكمة حيث تجري محاكمتهم وحيث تدرك الأجهزة قبل المحامين والقضاة مدى التلفيق والتزوير في التهم الموجهة اليهم حيث تخفي الحكومات المتعاقبة فشلها في اصلاح حال البلاد وفي تحسين حياة الناس وراء قضايا متصلة من هذا النوع*.

وفي يوليو ١٩٧٨ قدمت إلى المدعي الاشتراكي الذي يسائل الناس بمقتضى قانون الحراسة، وهو قانون يعطي له الحق في التحفظ على الأشخاص في مكان أمين من عام إلى خمسة أعوام، وبالطبع ان المكان الأمين الذي وجده المدعي الاشتراكي ملائماً (في قضية سابقة عام ١٩٧٣) لعدد من المناضلين هم أحمد نبيل الهلالي وأديب ديمتري ومحمد علي عامر وجميل حقي..... كان سجن القلعة. وحقق معي المدعي الاشتراكي في سلسلة مقالات عن الغناء السياسي في مصر

---

* برىء جميع المتهمين الـ ١٧٦ من تهمتي التحريض والمشاركة في التخريب والانتماء الى التنظيمات السرية وأدين عشرون فقط بتهمة حيازة وتوزيع منشورات.

ووضعت على قائمة الممنوعين من السفر وهم كثيرون الآن. . هذا فضلاً عن تكرار مصادرة جريدة حزبنا «الأهالي» حتى عجزت فيما بعد عن الصدور.

في سنة ١٩٧٩ هاجمت قوات مباحث أمن الدولة منزلنا ثلاثة مرات متصلة في وجودنا وفي غيابنا، وهاجمت مقر حزبنا أربع مرات متصلة خلال ثلاثة أشهر وضربت رقماً قياسياً في مصادرة الآلات الكاتبة وآلات الطباعة الصغيرة والبدائية. . في يناير من ذلك العام ألقي القبض على زوجي بعد الاقتحام الأول لمقر الحزب، وفي يونيو ألقي القبض عليّ بتهمة ارسال مقالات للخارج تهاجم إسرائيل وتنقد المعاهدة. في ١٦ اغسطس ألقي القبض علينا كلنا من على شاطىء البحر حيث كنا نقضي الصيف مع أطفالنا متهمين هذه المرة بعضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري. وفي كل مرة كانت قوات الأمن المهاجمة تستولي على أوراقنا الخاصة من مسودات كتب وأصول مقالات خطية لم تنشر، ورغم أنهم لم يستولوا على كتبنا إلا فيما ندر، إلا أن مكتبات زملاء آخرين قد خربت ونهبت عن آخرها وقدمت قوائم طويلة من الكتب المطبوعة في مصر كمضبوطات، وصودرت مئات من أشرطة الكاسيت التي سجلت عليها أغنيات الشيخ إمام وعدلي فخري وفيروز وغيرهم.

وأقر وأعترف أنني لم أتعرض للتعذيب، وأقر وأعترف أنني تلقيت بعض الزيارات والكتب في سجن القناطر للنساء الذي حبست فيه انفرادياً لمدة شهر ونصف، بينما حبس زملائي وأصدقائي انفرادياً في سجن القلعة الذي أمضيت فيه (٥) أيام قبل نقلي إلى سجن النساء بالقناطر. ولا يعرف الكثيرون أن هذا السجن (القلعة) الذي تتحكم فيه المباحث العامة قد حبست فيه انفرادياً فتيات من بينهن شهرت محمود العالم واكرام يوسف أثناء حملة يناير ١٩٧٧ واستمر ذلك أسابيع طويلة، وما زالت السلطات المصرية رغم ذلك تركز في دعايتها على عدم وجود المعتقلات وعلى مراعاتها للقوانين الدولية التي تحرم الحبس الانفرادي وحبس النساء في سجون الرجال.

أريد أن أقول بأننا عشنا طوال هذه السنين في انتظار الهجمات البوليسية أو الفصل من العمل أو مصادرة ما نكتب. كان برتولد بريخت في المنفى يؤثث منزلاً يمكن حمل كل شيء فيه خلال ساعات وكانت حقيبته دائماً معدة للرحيل. . . ولكنه كان منفياً. . . . ونحن في وطننا تدربنا على اعداد حقائبنا بنفس السرعة. في كل مرة كنت أقول لنفسي لعلها الأخيرة ولم يكن قولي مبنياً على تحليل سياسي وإنما على أمنية الاستقرار وحدها. يرد بعض الناس- الذين يعشقون المقارنة بين الزمن الحاضر وزمن الرئيس عبد الناصر- قائلين انكم لم تقضوا في السجون الا فترات قصيرة. . ولا بد أن تحمدوا الله لأنكم خرجتم، ان بضعة شهور من الحبس لا تساوي شيئاً إذا ما قارنا ذلك

بفترات الاعتقال الطويلة في ظل الناصرية . . والحق أن هذا منطق خطير وكأنما الأصل في الأمور هو حبس المعارضة- فاذا ما تحسنت شروط الحبس تعين علينا أن نسبح بحمد الذين حسنوا الشروط ونلعن السابقين، كان الرئيس عبد الناصر يقول بالشرعية الثورية- كيف مارس ذلك وطبقه- يمكن أن يصبح موضوعاً لنقاش مستقل ولكن الرئيس السادات يقول بالشرعية الدستورية، وهي تختلف كلية.

وفق هذا المنطق الذي يعشق المقارنة نحن محظوظون، فصديقنا أحمد فؤاد نجم يخرج من السجن أحياناً، وصديقنا أحمد نبيل الهلالي مضى في ضيافة المدعي الاشتراكي عاماً كاملاً كان ينوي تجديده لولا أن نشبت حرب اكتوبر وهو واحد من عشرات عرفوا وخبروا عسف العهدين ولم يتوقف نضالهم، اذن فما قدمناه وما نقدمه ليس إلا نصيبنا المتواضع في معركة الحركة الوطنية التقدمية في مصر لارساء الديمقراطية والدفاع عنها . . وقد كان من بيننا أناس- يقفون الآن في صفوف الحركة الوطنية- ممن رأوا في احداث مايو ١٩٧١ وعلى أساس ما قدمته من وعود في ميدان الديمقراطية السياسية، إيذاناً ببدء عهد جديد، ورأوا في الانفراجة الشكلية التي أعقبتها نصراً لا بد من التشبث به على اعتبار أننا بالحفاظ على المكتسبات الاجتماعية التي حققتها ثورة يوليو سوف نقيم ديمقراطية أعمق وأكثر تطوراً، وربما وضحت لهم تجربتنا وتجربة المئات من زملائنا وأصدقائنا مدى قصر النظر في هذا التحليل فضلاً عن جزئيته الشديدة، لا نريد اذن أن نشكوا ونتظلم على حد تعبير رجال النيابة، إنما نوضح البعد المعتم لممارسة صورت دائماً غاية في الديمقراطية، وأتذكر في هذا الصدد ملاحظة مندهشة للغاية أبدتها صحفية ايطالية صديقة كانت تزور القاهرة حين قلت لها أنني حُبست في سجن القلعة، وقال لها الدكتور رفعت السعيد انه قضى في الحبس الانفرادي ثلاثة أسابيع متصلة أغلق عليه الباب فيها طيلة الوقت، وكان مثار دهشتها هو أنها أتت إلى القاهرة مشبعة بتلك الصورة التي تقدمها أجهزة الاعلام الغربية لمباهج الديمقراطية في مصر الآن والحريات الواسعة التي تتمتع بها المعارضة في مصر مقارنة ببلدان الوطن العربي والعالم الثالث عامة . . وبدت كأنها تشعر بتأنيب الضمير.

ومع ذلك فان لهذه الصورة القلقة جانباً آخر، وثمة سؤال طالما أرقني خلال الشهرين الذين قضيتهما في السجن. كيف يرى المناضلون السجون من الخارج؟ كيف ترى الفتيات والشبان الذين انخرطوا لتوهم في العمل السياسي، وإنضموا إلى حزبنا التجمع الوطني التقدمي الوحدوي- وهو حزب معارض ملاحق بصفة دائمة .كيف يرون السجن؟ . . . وددت أن أقول لهم جميعاً ليس هناك ما يخيف . . «السجن سور» . . والباب المغلق على الحرارة والرطوبة والبق

والصراصير هو رغم ماديته اللزجة، ورغم العين السحرية للمخبرين وضابط المباحث في سجن القلعة- هو في النهاية سد معنوي يستطيع المناضل دائماً عبوره بل واقتحامه- لا أقول بقوة أفكاره وحدها إنما أيضاً بصلابة روحه بتلك اليوجا الروحية البسيطة.

فضلاً عن أننا في السجن- وبينما نختبر صلابتنا في مواجهة الشدائد العابرة وقدرتنا على التعامل معها- نستطيع أن نتعرف بصورة يومية مجسمة على كثافة الاستغلال الواقع على الشعب... على فقراء الناس حين يحاصرهم السجن والمذلة وتضيق بهم كل السبل، ويفتقدون حتى الاعتراف بانسانيتهم.

إن الوحدة والانفراد بالنفس وتأمل العالم بهدوء مكاسب لا يحصل عليها المرء في عصرنا بسهولة وفي السجن هناك دائماً متسع من الوقت لتأمل الأشياء والعالم بهدوء وسلام. أقول انه حتى في الظروف المعيشية الصعبة يمكن للمرء أن يتجاوز الحدود الصغيرة لزنزانته وللقسوة الواقعة عليه شخصياً حين يرى أن ذلك هو نصيبه من كفاح شعب عظيم... كفاح استمر أكثر من مائة عام من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدالة الحقيقية... هناك يرى المرء قضيته بوضوح أكبر بعيداً عن زحمة الحياة اليومية، وكم انصهر مناضلون شرفاء وعظماء في أفران السجون القاسية، وخرجوا إلى الحياة أشد قوة بل وأقول أكثر نضجاً. ورغم أنني لا أملك اجابة شخصية على سؤال التعذيب... ماذا لو تعرضنا للتعذيب؟ ماذا لو لم يحتمل أحدنا... ماذا لو طال الاضراب عن الطعام حتى هددنا بالانهيار الصحي الكامل دون أن تتحقق مطالبنا... عن كل هذه الأسئلة أجاب مناضلون وكتاب وضعوا سيرتهم الذاتية وخبرتهم في كتب ذات قيمة كبيرة للحاضر وللتاريخ... تظل خبرتها الأساسية جميعاً- رغم عمق الأحزان والجروح ورغم الأمراض التي لا تعالج. ورغم أن صديقي رفعت السعيد خرج من رطوبة سنوات الاعتقال والسجن الخمسة عشر بآلام مزمنة في عموده الفقري.. آلام لا تتوقف- تلك الخبرة الأساسية هي- ويا لمجد الناس المناضلين- ان الارهاب يزيد الناس صلابة.

أما السؤال الذي وددت أن أجيب عنه دون أن يسأله أحد، إنما كنت أسأله أنا دائماً فهو كيف يرانا الناس؟ هذا السؤال الذي رد عليه من قبل أيضاً المناضلون الذين احتجزوا في المعتقلات سنين طويلة وتعرضوا الى جانب التعذيب والقسوة للعزلة، ولاحقهم نشاط البوليس السري في عيشهم وعيش أطفالهم، وضرب حولهم حصاراً من الإرهاب بقصد عزلهم عن الناس... فقد أدركوا بالبصيرة الموضوعية والتجرد السياسي للمناضلين التقدميين أن الأرض الموضوعية التي يلتقون فيها مع عبد الناصر ونظامه قد مهدت منذ قرارات يوليو ١٩٦١، وان قضية خروجهم إلى

الحياة والمشاركة في بناء التنمية والخروج بمصر من أسر التخلف والاستعمار قد أصبح مسألة وقت لا موقف. ومن ثم كانوا قد تلقوا الإجابة... التي عبر عنها الكثيرون فيما بعد في كتاباتهم السياسية والأدبية... العالم يتقدم... وهم جزء منه... وكان لا بد أن يخرجوا... والآن وفي هذه السنوات وقد بدأت المسيرة العكسية... فان المعنى والمبنى باتا مختلفين... نحن نعيش الآن في ظل سياسات تنسق خطاها مع الاسرائيليين... سياسات انحازت الى أغنى الأغنياء ضد الفقراء... كيف يرانا الناس في السجن والشارع وساحات المحاكم... تجربتي الخاصة تقول اننا نحظى بالاحترام العميق... حين أطلقت صديقتي زغرودة عالية في دار القضاء العالي وهي تستقبلنا في احدى الجلسات بعد أن منع الحرس الهتاف، سألها واحد من كبار الضباط لماذا تزغردين؟ ليسوا الا مسجونين وقد يستمر حبسهم طويلاً، فقالت له: انني أعبر عن فرح وامتنان لهؤلاء الناس وغيرهم كثيرين، لأن في بلادنا رجال ونساء يستطيعون في كل الظروف أن يقولوا للظلم لا.... قالت لي الصديقة ان الرجل صدق بفرح حقيقي على كلامها. نحن نمثل رغم سوء الفهم والغموض والصورة المشوهة التي تقدم لنا- أملاً يتشبث به الناس... شعلة صغيرة في الظلام الحالك... ربط الناس بين حبسنا وارتفاع الأسعار بصورة عفوية بسيطة وأدركوا وحدهم المعنى، لم يكونوا قلة في حدود ما رأيت، وما جربت من أشكال التضامن الصامت التي منحها لنا أناس عاديون بسطاء ومن مواقع لا يتصور أحد أن تساند اليسار بكل هذا الحب والعطف... ولكنني لا أود أن أستجيب للمبالغة ولا أستطيع من خلال هذه التجربة القصيرة أن أدعي وجود اجابة حاسمة... فحزبنا- حزب التجمع الوطني - محاصر بصورة محكمة، معزول قسراً عن الناس، وكثيراً ما خيل إليّ اننا نتكلم إلى أنفسنا... ان نفاذ الصبر أحياناً ما ينسينا أننالا نستطيع وحدنا أن نحكم المد والجزر في حركة الشعب، ولكن علينا أن نتقبل صمت شعبنا- الذي يطول أحياناً- دون احزان، ونعول على تراكمات عملنا ويقيننا الذي نختبره في الواقع كل يوم... هل يا ترى لو كنا نتحدث الى أنفسنا... ولا نحظى بالتضامن... ولا تثمر بذورنا كانت أجهزة الأمن تلاحقنا بهذا العناد؟!

التجـــارب الأولـــــى

على أبـواب الاستئنـاف

العاصفـة . . ينايـــر ١٩٧٧

تحقـيق حـول الغنـاء

ليلتـان في مبنـى المباحـث

العـداء للديمقراطية . . واسرائيـل

على أبــواب الاستئنــاف

وجدتني أكذب على ابنتي حين سألتني أين بابا. . . كانت رشا في السابعة لا تعرف شيئاً عن الأحداث الطلابية التي هزت البلاد. . كنت قد ذهبت بصحبة الصديقين صلاح عيسى وعبد السلام مبارك لاحضارها من المدرسة ومرافقتها لزيارة معرض الكتاب. . لم تكن لدى أي منا الشجاعة الكافية لقول الحقيقة. كانت قوة من مباحث أمن الدولة قد زارت جريدة الجمهورية صباح ٤ فبراير ١٩٧٢ وطلبت من عضو مجلس الادارة- المنتدب أن يستدعي حسين عبد الرازق لأنهم يريدون استجوابه لعدة ساعات وقد انطلى عليه الأمر فأرسل في استدعائه. . اصطحبت القوة حسين الى المنزل الذي كنت قد سبقتها اليه .كان ذلك أول تفتيش تجريه قوات الأمن لمنزلنا وربما لن ننساه أبداً لا بسبب القسوة أو كثرة ما حملته القوة من أوراق. . فلا شيء من هذا قد حدث.

ما حدث هو أن ضابط المباحث الذي أجرى تفتيش المكتبة بدقة قد أصر على مصادرة مسودة كتيب عن احداث ١٩ يوليو في السودان كتبه حسين بعد اعدام عبد الخالق محجوب، وكان قد زار السودان أثناء هذه الأحداث المؤلمة مندوباً لجريدة الجمهورية. وربما عرف الناس الكثير من التفصيلات حول قضايا النشر ومعاقبة الكتاب بمنعهم من الكتابة أو مصادرة ما يكتبون ولكن ما حدث بالنسبة لرحلة السودان وأحداثها فاق كل تصور عن مصادرة الحريات والتحكم في النشر، ولا بد أن يأتي اليوم الذي نسجل فيه بدقة كل ما كان يجري وما زال في الحياة الصحفية. . كان حسين قد وضع هذا الكتاب خصيصاً رداً على جرم حقيقي حين أرسل من الخرطوم رسالة صحفية عن الانقلاب العسكري والقوى التي ساندته والأحداث التي أدت إلى اعدام قادته وزعيم الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب. . وفي اليوم التالي فوجئنا جميعاً برسالة الخرطوم وهي تحتوي على اخبار وأوصاف مناقضة تماماً لكل ما أرسله. . . لوجهة نظره وللحقيقة. . . . وقد استخدمت الرسالة مصطلحات لا يستخدمها هو عادة وتحت صورة كبيرة

لعبد الخالق محجوب وهو ماثل للمحاكمة كتبت الجريدة «الخائن يدلي باعترافاته» ونسبت الصورة لحسين. . كان عملاً غير اخلاقي. . . جارحاً ومهيناً في الصميم خاصة وأن حسين حاول أن يكتب تصحيحاً أو يجري تحقيقاً أو يجعل نقابة الصحفيين طرفاً في الأمر باعتبار ما وقع ليس عدواناً عليه فقط وإنما على حرية التعبير وعلى أبسط القواعد الأخلاقية. . . ولكن فشلت كل الجهود. . كان المناخ العام غوغائياً مشحوناً حيث تبارت الصحف في مساندة النميري ، وفي اظهار أنياب وأسنان الاتحاد الثلاثي الذي كان قائماً حينئذ بين كل من مصر والسودان وليبيا. . وكان الرد الوحيد الذي يستطيعه هو وضع ذلك الكتيب الذي نشر فيما بعد. . وقبل أن ينشره كانت المباحث العامة قد أخذت من بين المضبوطات المسودة الوحيدة للكتاب فقام بكتابته من جديد فيما بعد لا حرصاً على الكتابة وإنما لتصحيح الصورة الفظيعة التي قدمته بها جريدة الجمهورية. واذا كانت هذه القصة العابرة شديدة الدلالة فانها ليست إلا واحدة من قصص مشابهة لا تقل إيلاماً ومرارة ليس هنا مجالها.

حين عاودت رشا سؤالها ونحن في الطريق إلى المعرض قال لها عبد السلام مبارك ان بابا في الاسكندرية ثم أسر لي: هذا رد اعتدنا أن نقوله للأطفال الذين يصعب مناقشتهم بسبب صغر سنهم. كان الاتهام الموجه لحسين هو المشاركة في اعداد الانتفاضة الطلابية والتحريض عليها. لم تكن الحكومة المصرية قد أدركت حتى ذلك الحين جدية وعمق النزوع الديمقراطي والحاجة الملحة إلى حرية التنظيم والتعبير التي دافعت عنها القوى الوطنية طويلاً وكانت قد طرحت شعارات الديمقراطية وسيادة القانون لما تصورته نكاية في العهد الناصري عقب احداث ١٥ مايو ٧١. وتصاعدت الحركة الطلابية في جامعة القاهرة تحت قيادة الجماعات اليسارية ووصلت إلى القمة في الاعتصام داخل قاعة ناصر، وفي ميدان التحرير عقب مظاهرات صاخبة، وألقت قوات الأمن القبض على مئات الطلاب. في ذلك الوقت كان المسرح القومي يعرض مسرحية لعلي سالم من اخراج جلال الشرقاوي هي «عفاريت مصر الجديدة» التي تدين ضمنياً نشاط البوليس السياسي ضد المواطنين الايجابيين الشرفاء، وكان تعبير «المختفى» شائعاً جداً وقد استخدم بديلاً من السجن أو المعتقل، وتداوله الناس طويلاً حينئذ حيث مضت عدة أيام قبل أن يعرف أحد أي شيء عن حكاية المقبوض عليهم. كانت إمارات التحدي والانتصار تلوح جلية على وجوه ضباط مباحث أمن الدولة، فهذه حملة واسعة جداً ترد للأجهزة بعض اعتبارها بعد أن سقط وزير الداخلية وعدد من رجاله، وشنت الصحف حملة ضد التعذيب والذين مارسوه، ورفعت شعارات الديمقراطية وسيادة القانون، وتلقفت القوى السياسية هذه الشعارات في محاولة لتطبيقها في الواقع والزام الحكومة بها أو فرضها عليها. فاقرار الديمقراطية كان سوف يحمي المكاسب الاجتماعية ويعمقها

وانتصار الديمقراطية لا بد أن يقلص من نفوذ أجهزة الأمن ويشل يدها المطلقة في الحياة السياسية. . وها هم الآن ولم يمض عام على طرح الشعار- يستعيدون المجد الذي كاد أن يفلت. . حين سألت الضابط الذي اصطحب حسين: إلى أين انتم ذاهبون به. . قال باختصار وحزم: لا أدري. وكان علي رغم نشاط نقابة الصحفيين واصدقائنا أن أنتظر ثلاثة ايام لكي اعرف اين هو. ولم أكذب على ابنتي حين جاء ردي عليها صامتاً: انني لا ادري. . تذكرت في ذلك الحين الدكتور لويس عوض الكاتب والمفكر المعروف. . كان أثناء اعتقاله سنة ١٩٥٩. يعتصم بحقوق الانسان وبالقوانين التي تنظم علاقة السلطات بالمسجونين، لا بد أن يعرف أهلنا أين نحن خلال ايام معدودة والا اصبحنا في نظر القانون ميتين. . اعتصم الرجل بالقانون وبالمواثيق الدولية في وقت كانت القرصنة هي «القانون». . كانت حملة الاعتقالات قد طالت في ذلك الوقت كل العناصر اليسارية النشطة، سواء تلك التي شاركت في عمل وعضوية المنظمات الشيوعية او كانت صديقة لها. والآن. . أصبح الشعار المعلن هو. . سيادة القانون. . اغلاق المعتقلات الى الأبد. .

كنا قد عرفنا فيما بعد أن عدداً من المعتقلين قد أودع في سجن الاستئناف. . فأخذت أسرهم تحوم حول مبنى السجن المتآكل. . تتسقط الأخبار. . كم عددهم هنا؟ ومن ؟ كيف يعاملونهم؟

تسلق الطلاب الذين كانوا قد نقلوا من سجن القلعة حيث حشروهم في البداية- تسلقوا قضبان الزنازين العالية وأخذوا يغنون. . كان أحمد فؤاد نجم قد استجاب كعادته للأحداث وكتب قصيدته الجميلة:-

«رجعوا التلامذة. . يا عم حمزة للجد تاني. . .»

ولحنها الشيخ إمام وغناها. . لم يكن الايقاع غريباً ولم يكن صعباً على الطلاب الذين توارثوا- رغم كل العقبات-تراث الحركة الوطنية الممتد منذ أواخر القرن. . يا عم حمزة أغنية كان يرددها الطلاب الذين شاركوا في ثورة ١٩١٩ وألقي القبض عليهم وأودعوا في نفس هذاالسجن .أما عم حمزة فهو صاحب مطعم صغير مواجه للسجن كان يتولى نيابة عن أسر المقبوض عليهم وأحزابهم ارسال الأكل للسياسيين. ما زال المطعم الصغير قائماً في مواجهة السجن. . وما زالت مهمته الأساسية وزبائنه الدائمين هم المسجونون السياسيون بصفة خاصة. . أما صاحب المطعم فيدعى «عم حمزة» كذلك وهو حفيد «عم حمزة الأصلي». كانت حلقات الطلاب تتجمع في الشوارع والحواري المحيطة بالسجن. . وتدور نقاشاتهم وتعلوا أصواتهم بالنداء على زملائهم المحبوسين لعل أحدهم ينجح في تسلق الفتحات العالية للزنازين. . وكثيراً ما نجحوا. . يجري تبادل المعلومات والمودة والعهود، فهم إما أصدقاء أو ممثلين للأسر الطلابية التي ازدهرت ازدهاراً كبيراً

في ذلك الحين وكانت معظمها ذات طابع تقدمي، أو مندوبين عن الاتحادات الطلابية. . كان «الضباب» وملابساته هو الموضوع الأساسي للحديث. . فالأزمة الوطنية تشتد. . تصبح وطأة الاحتلال الاسرائيلي خانقة أكثر من أي وقت مضى منذ هزيمة ٦٧، لأن حرب الاستنزاف أوقفت . . أثر قبول مبادرة «روجرز». . وتجدد وقف اطلاق النار، وكانت رحلة محمود رياض إلى دول شمال أوربا قبل أحداث ١٥ مايو مباشرة قد توصلت إلى نتائج حاسمةوواضحة .لا أمل في حل سلمي مشرف يعيد لمصر حقوقها بدون حرب. . قامت أحداث مايو وأعلن عام ٧٢ عام الحسم «ان حرباً أو سلماً». وفجأة وقعت أحداث الهند وباكستان وخرجت بنجلاديش جمهورية مستقلة. . وقالت أجهزة الإعلام إن الضباب الذي خلقته الحرب الباكستانية الهندية قد عطل حرب مصر ضد اسرائيل. . كانت الأزمات الاجتماعية تتفاقم. . . . وأزمة الديمقراطية تتعمق والاتحاد الاشتراكي عاجز عن استيعاب الحركة الشعبية وتنظيمهاوقد تعرض لتغيير أثر تغيير في قياداته وتركيبه. . وقبل الأحداث الطلابية العاصفة التي افتتحت عام ١٩٧٢ كان عمال حلوان قد نظموا اعتصاماً ناجحاً من كل الوجوه تبلورت فيه خبرة طويلة واستيعاب أصيل وحي للتراث النضالي للعمال المصريين. . وقد حقق العمال نجاحات جزئية فيما يختص بمطالبهم الاقتصادية ولكنهم لم ينجوا من القمع، من سجن لسجن ومن فصل لفصل. . وتبنت الحركة الطلابية المتصاعدة مطالب عمال حلوان ودافعت عنهم مما أصاب الحكومة بالفزع. . كان الضباب اذن مقلقاً، ومن ثم موضوعاً كحديث للحلقات التي تجمعت حول السجن وموضوعاً أيضاً للنكات. . . والأغنيات الهزلية. . الهواء نفسه مشحون بالقلق فلا التجمعات تنفض ولا الطلاب المحبوسين ينكسرون، الجامعة مغلقة. مثلها مثل السجن. . . وفي نيابة أمن الدولة حيث يجري التحقيق تلوح إملرات التوتر فليس مسموحاً للمحامين بحجة سرية التحقيق أن يحضروا مع المتهمين . التحقيق يجري في منتصف الليل. . والحق انهم قبضوا على حسين في وضح النهار. . لعلهم يريدون أن ينفوا عن أنفسهم ذلك الوصف اللصيق بهم «زوار الفجر» ذلك مضحك للغاية ما داموا يأتون. وما من شيء يدل على أنهم سوف يوقفون حملاتهم. . فماذا يهم. . ان تأتي في الصباح أو في المساء أو في الفجر.

في جريدة الجمهورية. وبعد عدة أيام من القبض على حسين سألني أحد الزملاء. . هل ترين ألم أكن على حق حين سحبت توقيعي من على برقيتكم. . إن شعارات الحكومة شيء وممارساتها شيء يختلف كلية هل صدقتم أن الديمقراطية سوف تستقر؟

كنا بعد أن اندلعت معارك الشوارع بين البوليس والمتظاهرين ووصلت أصداء الطلقات إلى مبنى جريدتنا في قلب العاصمة وملأت قوات البوليس الشوارع المؤدية اليها كتبنا برقية الى رئاسة

الجمهورية نطلب فيها سحب البوليس من الشوارع واقرار حقوق الناس في التعبير السلمي عن أنفسهم ووقع عليها ما يقرب من خمسين صحفياً كانوا جميعاً شهود عيان للأحداث المؤلمة في الشوارع المجاورة. . وبعد قليل ونحن على وشك إرسال البرقية جاء هذا الزميل وطلب سحب توقيعه. . لأنه على حد تعبيره ـ لا يثق في جدوى أي شيء. . ويبدو أن الهدوء المنذر الذي أعقب طلقات الرصاص.والقنابل المسيلة للدموع قد أخافه وانتزع فتيل الحمية الوطنية الذي أشعلته المظاهرات فترك مكانه للتأمل وحسابات الأرباح والخسائر. . إن القوة الجماهيرية ليست مؤهلة بعد في نظره لإحداث تغيير حقيقي واقرار الديمقراطية والدفاع عنها. . ومن ثم فليتقدم آخرون ولينتظر هو إلى وقت الكسب الحقيقي فينضم الى الصفوف. .هذه بعض لمحات من التركيبة السياسية والنفسية لصغار البورجوازيين. . على أي حال سحب التوقيع . . وبعد أيام قليلة كانت حملة الاعتقالات تتسع، وكانت نقابة الصحفيين التي خرجت لتوها من معركة انتخابية كسبت فيها قوى التحالف الحقيقية معظم المقاعد وسقط المرشح المباشر للحكومة لمنصب النقيب وهو «موسى صبري» تبدي امتعاضها بأشكال مختلفة ضد قمع الحركة الطلابية وأصدر مجلس النقابة بياناً يؤيد فيه مطالب الجامعة وفتحت بابها لتجمع واسع من الأدباء والفنانين ليحضروا لمؤتمرهم ويقيموا لجنتهم الوطنية. . .وتمهيداً لهذا المؤتمر صدر بيان وقع عليه عشرات من الكتاب والفنانين وعندما لاحت بوادر الانحسار الجماهيري ولوحت السلطة بقبضتها القمعية وقع حدث مشابه لما جرى في جريدة الجمهورية. . إذ قام بعض الفنانين من الذين وقعوا على البيان بسحب توقيعاتهم وأكثر من ذلك. . بادر بعضهم إلى ارسال برقيات تأييد لسياسات لحكومة.

عندما تحتدم الحركة الجماهيرية وتحقق نجاحات ويلوح نصرها كاحتمال في الأفق تتوسع قاعدة الحلفاء ـ والمناصرين وخاصة هؤلاء الذين لا يشعرون بتناقض بين مصالحهم وما تطرحه القوى الجديدة المتأهبة. . وحين يلوح انكسارها أو انحسارها وشيكاً فانهم يتشبثون بنصيبهم في العالم القديم. . ولكن حقيقة تأييدهم الأولى لحركة الشعب تكشف دائماً عن طموح دفين وشوق حقيقي للتغيير يختفي وراء ستر كثيفة من المصالح الصغيرة وأساليب التزوير والتضليل. . المهم إن على الشعب الفقير أن يدفع وفي كل الحالات من دمه ثمن كسب الفئات المترددة إلى صفه في الأوقات الحاسمة.

كان النهوض الجماهيري في ذلك الحين يقول للحكومة ان الديمقراطية ليست لعبة (لن أنسى أبداً ذلك المشهد لمجموعة من المحامين نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من المسلمين. . هكذا قدموا أنفسهم لنا في نقابة الصحفيين وكانت المناقشات دائرة على أشدها بين الكتاب والفنانين

حول لجنتهم ومؤتمرهم وقدم المحامون أنفسهم كمندوبين للنقابة يساندون نقابة الصحفيين والحركة الطلابية والأدبية وأخذ أحدهم يقدم زملاءه . . . وكان اختيار المسيحيين منهم متعمداً لأنه على حد تعبيره إصرار على حماية تراث ثورة ١٩ . وحدة الهلال والصليب قال : يا اخواني إن الديمقراطية ليست لعبة . . علينا أن نسعى من أجلها ولو اقتضى الأمر أن نموت في سبيلها ثم انفجر باكياً . . في زحمة العمل واللقاءات والمناقشات لم أتذكر ولم يتذكر أحد اسمه . لم تستطع السلطات في حمى هذا النهوض العظيم أن تحتفظ طويلاً بالمعتقلين . تحركت نقابة الصحفيين للإفراج عن حسين عبد الرازق . . وكان اتحاد الصحفيين العرب قد تلقى النبأ هو الآخر ولا أعرف إذا كان قد تدخل المهم أنه قد أفرج عنه بعد أسبوع . ولم تطل حيرتي طويلاً مع طفليَّ . . فلم أكذب إلا في حدود معقولة ولم اخترع حواديت كثيرة حول السفر والاختفاء والحضور .

العاصفـــة . . يناير ١٩٧٧

تصورت أنها تجرب كتابة الشعر حين همست الصديقة الطبيبة سميحة بهجت: أشم رائحة العاصفة . . . ثم التفت إليّ وقالت ان للعاصفة رائحة ولو دققت في الأمر تجدين لها طعماً في ورق الأشجار وفي الندى . . سألتها هل هو الشعر قالت: لا بل انها الخبرة.

كنا نجلس في حديقة بيتها بمدينة «بينين» الأثرية ذات التاريخ العريق في نيجيريا . . الأصدقاء أحمد بهجت وشادي عبد السلام وسميحة بهجت وزوجها الدكتور فاروق وطفلاهما . . لم أكد أتم سؤالي حتى كانت أمطار غزيرة تتدفق . . أمطار أشبه بالسيول في غزارتها تصل إلى الأرض دافئة . . . مشبعة بطعم الشجر وحنين الطبيعة الفعال لخلق نباتات لا نعرف أسماؤها تكاد تنمو لتوها أمامنا . . نحن في مدار خط الاستواء الآن فقط فهمت معنى أن يحاول رجل خبير بأسرار الفنون الافريقية في مسرحية الطريق «لوول سونيكا» أن يمسك بلحظة النمو في النبات . . ليس هذا إذن حلماً مجرداً أو شوقاً للمعرفة فحسب، يستطيع الانسان أن يشم العاصفة ويمسك بنمو الأشجار . . كان ذلك مساء الرابع عشر من يناير ١٩٧٧، وقد استضافتنا الدكتورة سميحة شقيقة أحمد بهجت حتى يبدأ مهرجان الثقافة والفنون الافريقية والسوداء الذي يفتتح في الخامس عشر من الشهر نفسه . . كنا قد جئنا من القاهرة منذ عدة أيام أعضاء في وفد مصر للمشاركة في المهرجان . . وكانت الشائعات تتردد منذ نهاية ديسمبر حول اعتزام الحكومة رفع أسعار عدد كبير من السلع الأساسية والناس تدرك بطريقة غامضة ـ ان عاصفة اجتماعية توشك أن تهب ولكن لم يتصور أحد أن تهب بهذه القوة وبهذا الشمول الذي حدث بعد أيام . . لم نكد نصل إلى «لاجوس» ونقضي بها عدة أيام بعد افتتاح المهرجان حتى كانت أخبار المظاهرات في كافة أرجاء مصر هي موضوع العناوين الرئيسية في صحف نيجيريا كلها وتلك التي جاءت من أوربا . . وتراجعت ليومين كاملين أخبار المهرجان في أروقة الفنادق الكبرى التي احتلتها الوفود لتصبح أخبار مصر هي الموضوع

الرئيسي . . انشغلنا نحن ا لمصريين بمتابعة اذاعات العالم، وأصبحت أرواحنا جميعاً المهتمين وغير المهتمين مشدودة إل الوطن ، وبدأت الأخبار تتوالى . . الحكومة تتهم الشيوعيين كالعادة وحزب التجمع (وأدعياء) الناصرية بالتدبير والتحريض وتحيل الأمر كله إلى العناصر المندسة والحاقدة إلى آخره من أوصاف . .

استمعت إلى خبر القاء القبض على زوجي حسين عبد الرازق من اذاعة لندن وفي اليوم التالي وصلت جريدة التايمز تحمل أسماء الصحفيين وغيرهم فتأكد الخبر . . أصابني اضطراب عظيم . . الجيش المصري في الشارع وقد حظروا التجول. إذن سوف يبقى أطفالنا وحدهم . . أو أنهم بالأحرى قد بقوا وحدهم . . كيف كان وقع الأمر عليهم . . هل كانوا نائمين فاستيقظوا ولم يجدوا أبيهم أخذت أقلب الأمور على كل الوجوه . . . . الخيال المأساوي ثم أخذت ابنتي رشا تزورني كلما نمت وهي دائماً باكية . . ليس أقسى على القلب من دموع الأطفال . . ومن حدس الأمهات الحزين . . انتقل جزعي الى أصدقاء الرحلة والأصدقاء الأفارقة الذين بدأت أتعرف بهم .

في الصباح التالي للأحداث حجزت تذكرة على أول طائرة عائدة إلى القاهرة . . غمرتني مشاعر التضامن والاخوة الحقيقية من قبل الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم من الصحفيين والفنانين وأعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية، وعرضت عليّ ألوان من المساعدة لم أكن أتوقعها ومن أناس لم أتخيل أن يفعلوا أبداً . . .

وكان أطفالي هم قلب الموقف كله .

تعطلت الطائرة الأولى و كان علي أن أنتظر يومين آخرين اتصلت خلالهما باتحاد الكتاب الافريقيين وخاصة بالكاتب النيجيري الذائع الصيت «وول سونيكا» وكنت قبل عدة سنين قد ترجمت له مسرحية الطريق الى العربية . . . شرحت قضية الكتاب والصحفيين والشعراء المقبوض عليهم والذين أصبحوا منذ الانتفاضة الطلابية سنة ١٩٧٢ هدفاً دائماً لإجهزة الأمن كلما نشبت الاضطرابات الاجتماعية في البلاد وبعد عودتي الى القاهرة بأيام قليلة عرفت أن اتحاد الكتاب الافريقيين أصدر بياناً يتضامن فيه مع الكتاب المصريين ويطالب بالافراج عنهم مما أفزع السفارة المصرية في لاجوس فزعاً شديداً . . .

قبل عودتي إلى القاهرة بأيام قليلة كنت قد اشتبكت في مناقشة حادة مع واحد من الصحفيين المصريين الذين جاءوا الى لاجوس لحضور المهرجان . . كان يتحدث عن الافريقيين من موقع

الرجل الأبيض العنصري المستعمر، يحمل مشاعر احتقار مسبق للشعب النيجيري مع سخرية دائمة من كل تراثه وثقافته وتمجيد ضمني ومعلن للأوروبيين لأنهم «حاولوا أن يجعلوه متحضراً». . ولكن التبعية والغباء سمتان سوداوان على حد تعبيره. . . كنت أحيل مشاعره العنصرية لاحتقاره للون الافريقيين الأسود ولتخلفهم وجهلهم ولكنني فوجئت بالموقف الطبقي الثابت حين اندلعت المظاهرات في مصر. . قال ان الحكومة على حق ولا بد أن- تضرب بيد من حديد. . .

الطريف ان هذا الصحفي نفسه اختفى لمدة يومين وهو لم يعرف أبداً ما يجري في المهرجان. وعرفنا فيما بعد أنه قد تعاقد مع احدى محطات الاذاعة النيجيرية ليكتب لها برنامجاً أسبوعياً عن الدين الاسلامي . وسبقني الى القاهرة. . وفوجئت بعد عودتي انه يكتب لمجلته سلسلة من المقالات عن نيجيريا- التي لم ير فيها شيئاً ولم يحترم فيها أحداً. . وأكثر من ذلك عن المهرجان والفرق المشاركة وعروضها ويقيم العروض التي لم ير فيها عرضاً واحداً. . شغلني هذا الأمر طويلاً. . إن الموقف الانتهازي لا يتجزأ. . كيف يا ترى سوف يواجهني أنا التي أعرف جيداً كل شيء. . بعد أيام قليلة كان يكتب مقالات عن المخربين في ١٨- ١٩ يناير. . متسقاً تماماً مع نفسه.

في مطار القاهرة عرفت عبر التليفون أن «زوجي» قد نقل مع كل الصحفيين من القلعة إلى سجن الاستئناف ها هو سجن الاستئناف من جديد. . الرطوبة والروائح الكريهة وعم حمزة. . وهتافات المعتقلين وروحهم العالية. . ودورات المحاكم وأسماء القضاة. . أغنياتنا الثورية في الشارع من جديد لا بد أن الناس هذه المرة سوف يرفضون كلية حدوته المندسين والمحرضين وعملاء موسكو وبكين والقذافي. . إلى آخر ما ترددة أجهزة الاعلام المفلسة ورجال الأمن. . كان المزاج الجماهيري يفيض سخطاً وعدم رضا. . ولا بد أن يحظى المحبوسون بالتضامن. . يتضامن أعظم كثيراً من ذلك الذي أحاطهم في أعوام ٧٢- ٧٣- ٧٥. . . الحق أن تحليلي للأمر لم يكن خاطئاً. . . قبل أن أضع قدمي على أرض المطار كان رجل لم أتعرف عليه إلا في لاجوس قد سبقني وأخذ يسأل إذا ما كان مطلوباً القبض علي. . كان له بعض المعارف والأصدقاء في المطار وعاد إليّ فرحاً فرحاً طفولياً. . لا شيء يخصك تستطيعن أن تذهبي إلى أطفالك وهم في بيت رجاء النقاش. . دبر لي سيارة وسلمني لبيت شقيقي كوديعة أؤ تمن عليها وحافظ على أمانته. . . الخوف ليس سائداً اذن. . هذه علامة أخرى تؤكد صحة تحليلي. . هذا الرجل ليس سياسياً. . لا علاقة له بالتقدم وطالما انتقد حزب التجمع أثناء نقاشاتنا في «لاجوس» باعتباره متطرفاً. . ولكن لأن له حساً ضيباً أدرك أن للاضطرابات أسباباً حقيقية تكمن في آلام الناس وعجزها عن مواصلة الحياة.

القاهرة حزينة في ليلة ٢٦ يناير. . يا للذكرى. . من مدارخط الاستواء إلى برودة مدينة اطفأ البوليس روحها. . ما زالت بعض العلامات عليها واضحة. . آثار حرائق وحجارة. . تراجعت الحكومة وكسبت الهبة العفوية للشعب جولة صغيرة. . . ولكنهم لا يغفرون للشعب قدرته وحكمته واقدامه الجماعي انهم بالأحرى يحتقرونه. . . وسوف يتربصون دائماً بطلائعه. . لن يستطيعوا بالطبع أن يلقوا القبض على كل من تظاهروا. . على كل من حملوا صور عبد الناصر التي ارتفعت بالآلاف. . وهؤلاء الذين رشقوا علم مصر على سارية بأحد الميادين. . . لكنهم سوف يحاسبون هؤلاء المنتمين قلباً وروحاً للفقراء حتى يكفوا أو يموتوا. الحق انني ممتنة لمدينتي رغم كل شيء. . . رغم أن السجن رطب للغاية وحسين يشكو من كليتيه وجدتني أسأل نفسي كم نسبة الرطوبة، ثم فجأة هل يا ترى تعاملوا بقسوة مع الأطفال حين أجروا تفتيش منزلنا؟ فليتعلم أطفالنا لغة هذا الزمان. . . لا بأس.

كان حزب التجمع قد شكل لجنة للدفاع عن الحريات شارك فيها عدد كبير من المحامين الحزبيين وغيرهم. أخذت الأمور تنتظم وجدت المعتقلين ملاذاً في مقر الحزب. . الأخبار تتجمع هناك. . مواعيد الجلسات أسماء المحامين المعلومات العاجلة عن المقبوض عليهم. . احتياجاتهم الملحة. . اشتدت حملة الصحف على حزبنا. وكانت وسائلنا في الرد متخلفة للغاية. . بطيئة وعاجزة عن الانتشار تقرر أن يعقد خالد محي الدين رئيس الحزب مؤتمراً صحفياً يدعو إليه المراسلين المحليين والأجانب ليشرح وجهة نظرنا في الأحداث سار المؤتمر منتظماً وعادياً إلى أن برز بشكل سافر ذلك الدور التقليدي لأجهزة الأمن حين تخطط لتخريب عمل جماهيري ما. . بادر صحفيون معروفون بارتباطهم الوثيق بأجهزة الأمن إلى توجيه أسئلة عن الدين والموقف منه. . وعن علاقة الحزب بموسكو. . وعن حمايته للمخربين. . وكانت الأسئلة تحمل جميعاً لهجة الإتهام. . كان السكرتير العام للحزب قد استقال قبل ذلك بأيام مفتتحاً موجة الاستقالات التي دبرت لها أجهزة الأمن بالترهيب والترغيب وقادتها اعلامياً صحف أخبار اليوم التي أخذت تنشر صوراً للمستقيلين وتجري أحاديث معهم. . . ومع ذلك كانت هنالك بعض المنافذ الشرعية التي هيأت للحزب هنا وهناك امكانية الدفاع عن نفسه. في اليوم التالي للمؤتمر الصحفي لرئيس الحزب نشرت الصحف مقتطفات منه وكانت مجلة «الطليعة» الشهرية ما زالت تصدر، وكذلك مجلة روزاليوسف الأسبوعية التي رأس تحريرها حتى ذلك الحين صلاح حافظ . . كانت بوادر التواصل والالتحام الحقيقي بين الحزب وهذه المجلات تلوح شرارات بين الحين والآخر ذلك هو التوجه المنطقي. . في الماضي القريب نجحت المساومات والحيل في أن تجعل اليسار كياناً هلامياً مائعاً وتمنحه مجلة «الطليعة» والآن ها هو اليسار ينبثق في حزب تقول الظروف الموضوعية وحيويته

معاً أنه يشق الطريق الصواب. . وحين يعبر جسر التجهيل والتعتيم ليصل إلى الجماهير العريضة عبر مجلة أو جريدة سوف يرتقي ويكبر. . لم يكن هذا الإدراك بعيداً عن ذهن الذين خططوا لشكل ديمقراطي بلا مضمون حقيقي. . ففي شهر مارس صفيت الطليعة كمجلة تقدمية ودافعت عنها روزاليوسف برسالة. . ولم يمض شهر آخر إلا وتغيرت ادارة روزاليوسف ليصبح اليسار العلني تنظيماً بلا جريدة أو مجلة. . وتكثفت الحملات من جديد ضد حزبنا وضد كافة القوى الوطنية والتقدمية.

بدأ موسم المحاكمات. . تشكلت دوائر الاستئناف لتنظر المعارضات في أمر الحبس. . تعطلت مكاتب عدد كبير من المحامين الذين تفرغوا للقضية. . في أول جلسة امتلأت القاعات بالعساكر والناس أتوا بالمحبوسين من كافة السجون. . . طره. . القناطر. . أبو زعبل. . . الاستئناف مقيدين بالسلاسل. طالت ذقونهم وشحبوا. . لكنهم يغنون «معنوياتهم عالية للغاية. . ثمة ثقة عامة في تضامن الناس. . على امتداد الطريق إلى محكمة باب الخلق كانوا يهتفون يستوقفون المارة. . ذاكرة الشعب تختزن الكثير. . أحلام الفعل الجماعي ولحظات الانبثاق. . . كانوا يرددون الهتاف خلف المقيدين بالسلاسل. . فطنت أجهزة الأمن للأمر الخطير. . . استبدلوا الشاحنات المفتوحة بأخرى مغلقة كلية باستثناء طاقات صغيرة مربعة للتهوية ومغطاة بالأسلاك. . من خلف هذه الطاقات كانوا ينظرون. . لا أحد يرى. . . الشوارع مزدحمة وروتين الانهاك اليومي يستأنف مسيرته. . ارتفعت الأصوات جداً. . وعند باب المحكمة ينتظر الأهل والأصدقاء أعضاء الاتحادات الطلابية والمحامون والعساكر أيضاً، وفي أروقة المحكمة تتردد أصداء الهتافات القادمة من الشارع. . آه لم تتوقف الهبة إلى الأبد كما ظنوا. . حفرت مساراتها العميقة. . ما زالت شعاراتها تتردد. . بديهي فهل خف جوع الناس. . هل زالت أسباب الغمة؟ لا شيء من هذا حدث. . على العكس أن السخط يتزايد. . والهم يثقل. . وما زالت الحكومة تحيل الأمر كله إلى بعض المندسين الذين سرقوا الجمعيات التعاونية وخربوا السيارات العامة وأشعلوا فيها النيران. هذه الملكية العامة التي يدافعون عنها. . السيارات. . .. آه كانت عشرات السيارات التي اشترتها الحكومة النيجيرية لتضعها في خدمة وفود المهرجان الثقافي قد سرقت فهناك نقص كبير في عدد السائقين. . يأتون بشبان صغار من بلاد بعيدة ليقودوها. . وهم لا يعرفون طرقات لاجوس المعقدة. . يأخذون السيارات ويعودون الى قراهم او مدنهم. . وأحياناً ما كانت سلطات الأمن تجد السيارات مخربة وملقاة في مكان ما خارج العاصمة. . . قلت لأصدقائي هازلة إن الشيوعيين المصريين ومدعي الناصرية قد سرقوا العربات. . كان ذلك موضوعنا على الطائرة العائدة الى مصر حيث سرق المخربون ما يملكه الشعب كما تصر دعاية الحكومة. ضحكنا كثيراً. .

يفتح الحراس أبواب القاعات الخلفية ليدخل المحبوسون خلسة . . . في أول الجلسات صرخت أم ريفية صرخة عالية تمزق لها قلبي . . واستها أم أخرى قائلة : لا بأس إنها المرة الأولى . . . سوف تعتادين الأمر . . لكن الجمهور المنتظر أخذ يردد نفس الهتافات . . عاش كفاح الشعب المصري . . . عاش كفاح الطبقة العاملة . . مش حانطاطي . . مش حانطاطي احنا كرهنا الصوت الواطي . . . . الخ .

بدأ وكيل النيابة المرافعة تحدث عن «شيطان أحمر» يخطط ويقود . . ابتسم القاضي خلسة وضحكت القاعة . . ثمة تواطؤ عام إذن . . . الكل يعرف أن أسباب ا لانفجار ومبرراته تكمن في قسوة الحياة وهي ليست افتعالاً «لشيطان أحمر أو أخضر» . . . .

كانت مرافعات المحامين دفاعاً عن الشعب وعن الديمقراطية وعن حقوق التعبير وسيادة القانون باعتبار أن هذه قضية رأي . تكرر هذا المشهد كثيراً في كل القاعات التي شهدت الجلسات . . ومع الوقت كان الحر يشتد والجذوة تخبو والتألق الشعبي يتحول إلى جهامة صارمة شبيهة باللامبالاة . . يتحول الأمر إلى مأزق خاص للأهالي والأصدقاء . . تتراجع قليلاً عمومية القضية لتصبح معضلة خاصة بكل أسرة . . ينفلت التماسك ويعتاد الناس الأحزان . . ذات نهار وكنت قد عجزت عن زيارة حسين عن طريق النيابة . . وفي الزيارة السابقة كان جاسر ابننا مريضاً وحين شفي وددت أن أؤ كد لزوجي أن الأمر بسيط للغاية وليس المرض مقلقاً . . . . وقفت خلف سجن الاستئناف حيث تقع بناية آيلة للسقوط يطل شباكها على الزنازين والعنابر اعتاد الطلاب أن يذهبوا إلى هناك ويتسلقوا الشبابيك والحيطان ليتحدثوا إلى زملائهم حين يعجزون عن زيارتهم . . اصطحبت جاسر وذهبت إلى «أم حسن» التي تعرف عن السجن أكثر مما يعرف مديروه وضباطه . . كان رسم الدخول عشرة قروش خطر لي أن أساومها على دخول الأطفال «فهم يستحقون تخفيضاً» . . وكانت مزحة عابرة . . وقفنا ننتظر دورنا على العسكري المكلف بحراسة هذا السور أن يبلغ الشخص المطلوب : تليفون يا حسين بيه . . تليفون . . أتى حسين متسلقاً القضبان . . يمكننا بالطبع أن نرى الجانب الفكه في الأمر لكن المشهد كان حزيناً لمت نفسي لأنني استسلمت لهواجس القلق . همس جاسر . . ياه كل هذه القضبان انها عالية جداً . . المسافة بعيدة إلى حد كبير وهو لا يستطيع أن يميز ملامح أبيه بسهولة . . لقد اخطأت . . لم تكن أحزان المشهد عائدة إلى الابوة والبنوة المحاصرة فحسب وانما كذلك إلى وجوه أمهات ريفيات كثيرات وقفن في انتظار الدور وهنّ متشحات بالسواد تائهات وكأنما احتمين من المدينة الغريبة المزدحمة بهذا السور الطيني المتآكل وبالنداءات المتكررة وأسماء أبنائهن .

تلقيت رسالة من شقيقي عطاء الذي يدرس السينما في أمريكا منذ سنوات . . قال فيها ان كل

ما يحزنه في الأمر هو تلك الآثار المتوقعة في نفوس الأطفال والتي سوف تبقى طويلاً ولن أدرك أنا عمقها الآن. . . أيقنت أنني أخطأت جداً. . بالفعل أخذ جاسر يسعى إلى اختلاق أسباب للامتناع عن الذهاب إلى المدرسة فرغم تماسكه الظاهري كان مضطرباً اضطراباً عظيماً وذات مرة قال بحدة واضحة: هل تريدين أن أقول لزملائي أن أبي في السجن. . كيف أقول ذلك. . أخذت أبذل جهداً عاطفياً مضاعفاً لحمايته . . ساندني الأصدقاء والزملاء في الحزب. . وذات مرة عاد الطفل حزيناً ورفض أن يواصل اللعب مع أقرانه في الفناء الخلفي لمنزل مجاور. . حاولت أن أعرف السبب الحقيقي. . ولم يبح لي سوى في اليوم التالي. . أبناء الحي يعرفون وجاسر فخور جداً بشجاعة أبيه ونشاطه السياسي لكن ذلك لم يمنع زوجة ضابط مباحث يسكن بيتاً مجاوراً أن تمنع ابنها من اللعب مع جاسر «لأن أبوه ملحد وكافر» على حد تعبيرها بالطبع لم يستمر الأمر طويلاً. . فقد عالجه جاسر بحكمة الأطفال التي تعمد إلى النسيان كما يقول نجيب محفوظ نحن بلا جريدة وعلينا أن نخترق حصار التشويه والعزلة. . المناخ العام للأسرة لا يكفي. . بات أطفالنا يعرفون الكثير من الأمور العامة بما يفوق أعمارهم. . هل يا ترى نرهق عقولهم المتوثبة الطموحة بالمعلومات. . عواطفهم مرهقة لا شك. . والحزب وحده يعطي للاطفال هذا الاحساس الحميمي بالانتماء والامان. . في نشرة التقدم. . كتبت رشا لأبيها رسالة جميلة وباسلة تبادله المودة وتعده بالصلابة. . . ومع ذلك يبقى غياب الأب هو غياب الأب. . يحمل كل شيء طابعاً مؤقتاً تتأجل الأفراح وتتراجع حميمية التفاصيل الصغيرة في الأعياد والمناسبات. . ولكن يبقى للصورة العامة وجهها الايجابي المضيء رغم كل شيء. . بقدر ما نتعلم نحن يتعلم أطفالنا. . ذكريات التوهج الشعبي تحفر في نفوس الأطفال حساسية خاصة وعميقة. . إنها تؤهلهم في المستقبل لأرقى انتماء للوطن. . لماذا نخشى عليهم إذن. . لماذا نفترض أننا أكثر قدرة. . هذا الألم بالذات لا بد أن يسهم في صنعهم على وجه أفضل.

أخذت دورات المحاكم تتوالى بدأت الحكومة تدرك بعد أن أفرجت المحاكم عن أعداد كبيرة من المسجونين أن القضاء لن يسعفها- فأخذت تلوح بالقوانين الاستثنائية الاضافية. . وحين قرر أحد القضاة مد حبس مجموعة كبيرة من المتهمين صدر قرار تعينه محافظاً. . وهكذا لوحت بجزاء عظيم لكل من تساوره نفسه. . امتد حبس حسين مرتين إلى أن أفرجت عنه في المرة الثالثة محكمة في منتصف يونيو «حزيران» كنا قد اتفقنا أن نعد أنفسنا لحبسة طويلة. . . فلتدبر نقابة الصحفيين أمر ادخال الكتب والأوراق. . وشرع في وضع كتاب عن الصومال التي كان قد زارها قبل عام بينما خضنا أنا والأصدقاء معركة ترشيحه لانتخابات مجلس نقابة الصحفيين التي جرت في مارس كنا من حيث لا ندري قد تقدمنا بايقاع العمل الوطني تقدماً عظيماً. . تقبل الناس ترشيحه هو

والزميل رشدي أبو الحسن المتهم أيضاً بدهشة أولاً ولكنهم تلقوا الرسالة وعرفنا من جديد أشكال التضامن العميق ولاح السخط ضد السياسات الحكومية أكثر من ذي قبل. . كاد حسين أن ينجح وقرأ الناس بيانه الانتخابي بامعان واحترام. . هذا هو الامتداد المنطقي في حقل المهتمين لانتفاضة الشعب الذي قال بحزم وثقة: لا ، أفزع هذا الموقف رجال المباحث وأجهزة الأمن خاصة تلك التي تلاحقه.

في ذلك الحين تقدم العقيد سيد زكي المسؤول السابق لقسم الصحافة في المباحث العامة بشهادته قائلاً فيها أن أحد مصادره أبلغه أنه رأى حسين عبد الرازق وهو يشارك في توجيه المظاهرات لإحراق فندق سميراميس. . . بحثت الأجهزة بسرعة عن انتقام عاجل عن حجة مقنعة لتجعل القاضي يأمر بحبسه من جديد. . تداول الصحفيون من كافة المواقع الفكرية والسياسية هذه الحدوتة دليلاً على فقدان الضمير. . ولكن الصحفيين لم يكونوا في حاجة إلى براهين جديدة تسوقها اليهم أجهزة الأمن حول عدائها الشديد للديمقراطية . . وحرصها الشديد على اسكات أصوات المعارضة حتى تقدم نفسها للسلطان كمهندسة للاستقرار والصمت المطبق. . وهي بالطبع تغالي حينئذ في تقدير ما تستحقه من مصروفات علنية وسرية. . وتتوالى الهبات.

صدر قرار الاتهام في مايو ١٩٧٧ متضمناً ١٧٦ أسماً من عمال ومحامين وكتاب وشعراء وطلاب. . . وكانت السجون ما تزال تستضيف عدداً كبيراً منهم. ولكن المضحك في الأمر أنه حين شكلت المحكمة وبدأت جلساتها في ابريل من العام التالي ٧٨ لم يكن قد بقي أحد في السجن. . وقد أفرج القضاة عن كل المتهمين واستنفذ مكتب رئيس الجمهورية اعتراضاته على أحكام المحاكم. . في ذلك الوقت نفسه كانت السجون تستضيف عشرات الشبان والفتيات وتفتح نيابة أمن الدولة ملفات قضايا جديدة. . وفي قفص المحكمة وفي احدى القاعات التي أطلق عليها اسم أنور السادات وقف المتهمون القدامى والجدد. . . يهتفون للشعب. . للجبهة. . . للاشتراكية ولفلسطين ويصرون عن ثقة لا تحد أن الزمن القادم لا بد أن يكون ملكاً للشعب، كانوا يشمون رائحة العاصفة.

تحقيق حول الغناء

كانت «جريدة الأهالي» الأسبوعية التي أصدرها حزب التجمع تجاهد للانتظام بعد أن تتابعت عمليات مصادرتها أسبوعاً أثر أسبوع في مايو ويونيه ١٩٧٨ وذلك بعد صدور «قوانين حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي والاستفتاء عليها. .كتبت تعليقاً للجريدة عن «المكارثية ومحاكم التفتيش طريقان مسدودان. . ولم أكن أعرف بعد أن إسمي سوف يأتي ضمن قائمة طويلة من الكتاب والصحفيين ليحقق معهم المدعي الاشتراكي في مقالات كتبوها. . كانت الكتابات السياسية المباشرة لكل من حسنين هيكل ومحمد سيد أحمد وأحمد حمروش وصلاح عيسى وحسين فهمي موضوعاً للمسألة. . جوهر المسألة هو رفضهم للعلاقات الجديدة مع اسرائيل بدءاً من زيارة رئيس الجمهورية إلى القدس. . ولكن أن يصبح الغناء السياسي وشعر العامية الجديد موضوعاً للتحقيق فهذا شيء جديد. . استيقظت ذات صباح حار من شهر يوليو لأجد إسمي واسم حسين فهمي في صدر الصفحة الأولى من جريدة الأهرام وقد أخذت السلطات قراراً بمنعنا من السفر وتقديمنا للتحقيق أمام المدعي الاشتراكي لأننا كتبنا مقالات مناهضة لنظام الحكم وتحض على ازدرائه، كانت تلك هي القائمة الثانية، أما القائمة الأولى فقد ضمت شاعر الشعب «أحمد فؤاد نجم» الذي كان في بداية العام نفسه «٧٨» قد قدم للمحكمة العسكرية بسبب قصيدته «بيان هام من اذاعة شقلبان». . وأصدرت المحكمة حكمها بحبسه عاماً. . بينما استمرت محاكمته غيابياً في قضية التحريض على احداث ١٨ـ ١٩ يناير ١٩٧٧ بعد اختفائه إثر صدور الحكم الأول. في البداية يتصور الناس البعيدين قليلاً عن ساحة الصراع السياسي والاجتماعي في مصر أن قضية حرية الفكر وحق التعبير والتنظيم التي ناضلت في سبيلها القوى السياسية الطليعية منذ أكثر من قرن هي مجموعة من الشعارات المترفة التي يطلقها مثقفون معزولون عن القضايا الجوهرية للشعب. وعندما يتأمل المرء تفاصيل الممارسات. . والمحاكمات التي جرت وما زالت تجري لا بدّ أن يندهش لأن التفتيش في الضمائر والعقائد قد بدأ منذ زمن

طويل وتصاعدت وتيرته في السنوات الأخيرة بهدف تدجين واستئناس كل أشكال الخلاف والمعارضة. . . .

كانت أحداث انتفاضة يناير ٧٧ قد فتحت الطريق أمام الحكومة للتضييق الشديد على الحريات العامة الضئيلة التي كانت قد توفرت في ظل حالة الطوارىء وترسانة القوانين الاستثنائية. . كما فتحت الطريق أيضاً للذهاب إلى اسرائيل والاحتماء بها من الانفجارات الاجتماعية المنتظرة وخلق ذلك التحالف الثلاثي الذي اتضح فيما بعد بين مصر وأمريكا واسرائيل. . وضاقت سبل ووسائل التعبير أمام القوى الوطنية والتقدمية المعارضة. . كانت الأحزاب قائمة شكلاً منذ بدء تجربة المنابر عام ٧٦ ولكن حجم الصعوبات والعراقيل التي واجهت عملها. . وخاصة حزبنا فاقت كل تصور. . كنا في نهاية عام ٧٧ قد أدركنا أن العاصفة القادمة سوف تجتاح في طريقها كل رأي فأصدرنا من مكتب الكتاب والأدباء والفنانين بالحزب بياناً «دفاعاً عن حرية العقيدة والفكر في مصر» حذرنا فيه من الظلام المحدق بعد أن اشتدت الحملة على حزبنا والقوى التقدمية الأخرى على أساس ديني. . ورغم ادراكنا أن الطرح الديني للقضايا الاجتماعية والسياسية العصرية سوف يقود إلى متاهات كثيرة فقد احتمينا بما في التراث الديني من سماحة ودعوة للحرية. . مع ذلك فان الذين هاجمونا على أساس أننا ملحدين كانوا يدركون أكثر من غيرهم أن الخلاف الأساسي بيننا وبين الحكومة هو حول جوهر ممارساتها السياسية والاقتصادية.

كانت الحملة غوغائية عالية الصوت منذرة. . وكان رجال السلطة يقومون بين الحين والآخر بتوجيه الاتهامات إلى الصحفيين سواء هؤلاء الذين خرجوا تباعاً من مصر إما لعجزهم عن العمل في المناخ القائم أو سعياً وراء الرزق الذي شح في البلاد. توجوا حملتهم بتقديمنا للمدعي الاشتراكي.

بعد نشر إسمي بيومين تلقيت خطاباً من نقابة الصحفيين تخطرني فيه بموعد التحقيق واسم المستشار الذي سيحقق معي. . كانت هذه هي المرة الأولى التي أمثل فيها للتحقيق وكنت أشعر بالاضطراب . . رغم أن المناخ العام المحيط بنا منذ سنوات هو مناخ الإدانة والمساءلة والزجر. . صحبني الدكتور يحيى الجمل استاذ القانون وعضو سكرتارية حزب التجمع والزميل محمود سامي سكرتير عام نقابة الصحفيين . . كان موضوع التحقيق كما تبينت هو ثلاثة مقالات عن «ظاهرة الغناء السياسي» نشرتها في جريدة السفير البيروتية. . أرصد فيها ظاهرة هؤلاء الشعراء والمغنين والملحنين والجمهور واحتياجاته الجديدة. . كنت شديدة الاندهاش لأن تجد الدولة في موضوعي

هذا «ازدراء لها» لأن تجد أصلاً في أي موضوع رأي ضرورة للمساءلة. احتميت بالدستور وبحقي في عدم الاجابة حول سؤال المحقق عن معتقداتي، ولكنني سياسياً ضد ما يسمى «بالمبادرة» وضد سياسة الانفتاح وأرى أن بروز وازدهار دور الشعراء والمغنين الثوريين وتوصلهم إلى أشكال راقية وشعبية في آن واحد هو ظاهرة صحية وحتمية ذات دلالات اجتماعية وحضارية كبيرة. . كانت الحقبة الناصرية قد استوعبت إلى حد ما طاقة الغناء الثوري وتوصل الثلاثي كمال الطويل وصلاح جاهين وعبد الحليم حافظ إلى صيغ وأشكال جديدة تحمل مضامين مختلفة كلية عن مجرد النشيد الزاعق وتسعى لإعادة وصل الحلقات بتراث سيد درويش العظيم في أوائل القرن حيث دخلت الى الجملة الموسيقية والشعرية مفردات جديدة ترتبط مباشرة بغناء الشعب وطموحه. . وتفتح آفاق تطور عظيم للأغنية والدراما الموسيقية عامة لتنشلها من سياق ورتابة الإيقاع التركي- الاقطاعي، ولكن الإخفاق العام للطبقة الاجتماعية الطموحة في ثورة يوليو جر معها كل الأشكال التي انتعشت في ظلها. . وبدلاً من أن يمسك الفنانون الذين دشنوا مرحلة الثورة الزاهية بجوهر انجازاتهم ويتقدموا للكشف ولمزيد من الكشف عن مكامن الموهبة الحقيقية وامكانية اكتشاف الجديد الذي لا ينضب في التراث الشعبي بتطويره ومزجه بالعلوم الموسيقية الحديثة التي توفرت لهم في ظل الثورة توقفوا أو أفلسوا. والحاصل انهم اخلو الميدان لنجم وامام وعدلي فخري ومحمد منير وحمام وغيرهم- كان المستشار يستشعر الحرج الذي بدا واضحاً في اسئلته. . دافعت عن كل ما كتبت. . في بعض الاحيان كنت أشعر بالاستفزاز الشديد فأخذت اوجه اسئلة وكان رده طريفاً مهذباً. . إنني قاض لا أعمل بالسياسة.

لم يترتب شيء بطبيعة الحال على مساءلتي سوى إدراجي على قوائم الممنوعين من السفر. . ها هو التعبير نفسه يشي بامتناني. .دخلت حالة الطوارىء إلى نفوسنا وتشبعنا بالقوانين الاستثنائية حتى النخاع. . . هل هو شيء بسيط وعابر أن تمنع السلطات مواطناً من السفر. . إن تعبيري نفسه لم يحدث شيء سوى منعي عن السفر «وقد جاء عفواً يذكرني من جديد بهؤلاء الذين يعشقون المقارنة. . يقولون لنا في ظل عبد الناصر الذي تدافعون عنه الآن كنتم تودعون في السجون. . على كل حال أنا ما زلت حتى الآن ممنوعة من السفر. . وكان أحمد فؤاد نجم قد منع من قبل حين كتب أغنيته الجميلة «ممنوع من السفر» وكان سبعة عشر مواطناً من أهالي كمشيش قد منعوا من دخول قريتهم سنة ١٩٧١ وقد اتهمتهم أجهزة الأمن بحيازة أسلحة وتدبير مؤامرة محلية فظلت قضية هؤلاء المناضلين الشرفاء منظورة أمام الحاكم عدة سنوات إلى أن قررت المحكمة عودتهم وتعويضهم. . هذه ممارسات الاحتلال . . . الآن فقط أفهم معنى هذه المناشدة الحارة التي يطلقها بريخت بشاعرية بالغة:

«نناشدكم لا تقولوا أن هذا أمر طبيعي.

. . . حتى لا يستعصي شيء على التغيير».

فلنعيد نحن الذين ندافع عن أوسع حرية للرأي والفكر طرح كل الأسئلة البديهية. . لنعيد لها طزاجتها الأولى. . . حتى لا يصبح الاختناق في الوطن أمراً طبيعياً. . والابتعاد قسراً أو طواعية عن الأمة العربية أمراً طبيعياً. لأنه من بين أسباب حالة الاستفزاز الشديد لدى السلطات ان مقالاتنا نشرت في بلدان الوطن العربي. . وهذا ما لا تحبه «اسرائيل الصديقة».

لم يستغرق التحقيق معي سوى جلسة واحدة الطريف في الأمر أن الصحف أخذت تنشر لعدة أيام: ان التحقيق قد توالى معي ومع أحمد فؤاد نجم أمام المستشار حسن عميرة. . وكان أحمد فؤاد نجم وما زال . . هارباً. ومن جديد كتب قصيدة. «انا فين»؟ أما المستشار حسن عميرة فقد سمعت فيما بعد أن انتدابه هو وعدد كبير من زملائه الى مكتب المدعي الاشتراكي قد ألغي لأنهم جميعاً رفضوا مشروع «قانون العيب».

ليلتـــان في مبنـــى المباحـث

على أن أواجه الموقف بشجاعة قلت لنفسي وأنا أجتاز بخطوات واسعة المسافة من الشرفة الى الباب الخارجي في بيت صديقينا محمود المراغي ونجاح عمر. . كانت ابنتي رشا قد تحدثت الينا بالتليفون قائلة أن المباحث العامة تفتش بيتنا. . يا الله ما لهم مبكرين لم يكن الوقت يتجاوز العاشرة ليلاً. . لعلهم يريدون أن يثبتوا لنا وللجيران ولأهل الشارع أن زيارات الفجر قد توقفت. . في اليوم السابق على هذه الزيارة كانت الانتخابات في نقابة الصحفيين قد تأجلت بعد أن دفعت وزارة الداخلية برجالها في الصحف إلى مقاضاة النقابة كلما اوشكت الجمعية العمومية على الانعقاد. . المعركة هي باختصار معركة الديمقراطية واستقلال النقابة ونحن في قلبها. . نحن وزملاؤنا ننشط دفاعاً عن النقابة- ولكن العقوبة هذه المرة سريعة جداً. . . أشفقت على زوجي. . إذن هم يريدون بوضوح سافر أن يمنعوه من المشاركة في الانتخابات وهو أحد المرشحين النشطين. وصلنا الى بيتنا بسرعة وسط دهشة الاصدقاء وترقبهم. . أدهشني أن البيت محاصر. . هل يشكون في وجود أسلحة أم أنهم جاءوا لاعتقال اهل الشارع جميعاً. . قوة من امناء الشرطة مسلحة بالمدافع الرشاشة واجهزة لاسلكي معقدة- تكنولوجيا- وقوة شرطة من قسم العجوزة يرأسها ضابط كبير. . وعدد لم أستطع تبينه من المخبرين بالإضافة الى القوة الرئيسية: ثلاثة من ضباط مباحث أمن الدولة بالجيزة. . تقدموا لحراستنا بشدة حين وصلنا الى مدخل بيتنا وكانت المدافع معدة للانطلاق صوبت فوهاتها إلينا ومخبر يبتسم. . دخلنا فوجدنا بيتنا منتهكاً. . الحق أنني لم أجد تعبيراً أفضل. . كان كل شيء مباحاً فتحت الأدراج والدواليب وانتشر رجال كثيرون جداً في كافة أرجاء المنزل يفتشون. . أخرجت رسائلنا الخاصة صور الأطفال كتبنا. . أوراقنا وملابسنا. . . سألت بأدب لماذا لم تنتظروا. . تعرفون أننا قادمين فما هو الداعي لارهاب الأطفال. رد أحدهم بأدب ايضاً. . لقد أطلعنا ابنتك على أمر التفتيش، قصت لي رشا فيما بعد أنها حين رفضت فتح الباب دفعها. . فسألته أن يظهر لها أمر التفتيش على الأقل فقال متهكماً هل تعرفين

القراءة . . كانت مجروحة مرتين مرة حين دفعها وفتح الباب عنوة ومرة اخرى حين شكك في قدرتها على القراءة . وجدتني احاول أن أتذكر بسرعة كم تفتيشاً أجرته المباحث السياسية في بيتنا وحضره أولادنا . . إنها مرات كثيرة . . أشفق عليها الآن . . ولكن ما هي القضية بالضبط . . حين أطلع زوجي على أمر الضبط والتفتيش اكتشف أنني المطلوبة وليس هو . . شعرت للوهلة الأولى براحة عميقة . . لقد تعرض هو للهجمات كثيراً . . لا بأس أن يستريح هذه المرة ولكن لا شك أن حبسي انا سوف يعقد الأمر ايضاً في انتخابات النقابة . . سوف ينشغل حسين والأصدقاء بأمري . . المحامون والزيارات والتحقيق و . . و . . ولكن ها هو القلق يداهمني من جديد . . كيف سوف يعيش زوجي واطفالي بدوني . . هذه عشرات المهام المنزلية المؤجلة من سوف ينجزها . . عرفت بشكل واقعي جداً أن البيت هو في النهاية بيت المرأة . . أخذت أرتب بعض الأشياء بسرعة وأعطي تعليمات لرشا وحسين . . هذه البقع كيف تزال او الأكل كيف يعد وكيف ينبغي ان يحذروا من الكهرباء . . أعدت رشا حقيبتي . . كانت قد تدربت . . منذ خمسة اشهر فقط كانت قد أعدت حقيبة لأبيها . . تعرف بدقة الآن احتياجات السجن ـ يا للخبرة . . أحد المخبرين منهمك في تفتيش حقيبتي الخاصة وضابط يفتش أدراج ملابسي وآخر يفتش شرائط الكاسيت . . انفتحت شبابيك الجيران كانوا منزعجين وخائفين . . هذه هي المرة الأولى التي يقصدونني أنا . . كانوا قد اعتادوا القبض على الرجال . . هذا منطقي ، انتهى التفتيش وجمع كل ضابط رجاله من العساكر والمخبرين . . هذه المرأة أنا التي أترك الأطفال . . الأمر قاسي حقاً . . بكت رشا ونهرتها وجدت احد المخبرين يدعو لي أن أعود بحرارة أثرت فيّ عميقاً . . كان الوقت قد تأخر وأخذ حر «يونيو» الشديد ينحسر قليلاً . . سوف أذهب في ظل هذه الحراسة المشددة جداً الى مقر المباحث العامة فى الجيزة . . جلست في احد المكاتب بينما انهمك الضابط في حجرة مجاورة في تفتيش الأوراق والشرائط وترتيبها . . كانوا قد جمعوا كمية كبيرة جداً من الأوراق المطبوعة والمكتوبه بخط اليد مع شرائط الكاسيت ومطبوعات حزب التجمع والرسائل الخاصة . . بعدما يقرب من ساعتين استدعيت الى غرفة يجلس فيها ثلاثة ضباط . . وجدت أحدهم يواجهني بورقة . . قائلاً بلهجة تنطوي على التهديد المهذب ما هذا؟ فسألت بدوري . . هل هذا تحقيق . . رد قائلاً اعتبريه اي شيء فقلت بهدوء لا اعرف كيف حل بي . . التحقيق لا يجري إلا أمام النيابة . . وتأملت الورقة كانت بياناً أصدرته جمعية ادبية في المغرب تطالب فيه بالإفراج عن الشعراء المعتقلين . . وكتب في أعلى الصفحة ترجمة . . سألني الضابط هي ترجمة اليس كذلك؟ لم اكن أريد أن أسبب له حرجاً أمام زملائه فأجبت نعم . وساد الصمت حوالي نصف ساعة ، كانوا يعدون العدة لنقلي الى المقر المركزي للمباحث السياسية فرع القاهرة . . لكن فرحاً خفياً كان يشوب سلوك رجال المباحث في الجيزة . . انها هم أخيراً يسهمون بنصيب في العمليات الموجهة ضدنا . . كانت القاهرة فيما سبق تنفرد

بالأمر وتفوّت عليهم نصيبهم من المجد وربما أيضاً المصروفات السرية . . لا أدري لكنهم سعداء جداً . كان الوقت قد تجاوز الثانية صباحاً حين وصلت في صحبة هذه الكوكبة من رجال الشرطة والمخبرين السريين الى مبنى وزارة الداخلية حيث يقع فرع القاهرة . . هناك وجدت زوجي في انتظاري شعرت بنوع من الراحة . . هؤلاء الضباط الذين تعاملت معهم كثيراً من قبل أثناء حبس زوجي او مصادرة جريدة «الأهالي» أجدهم مختلفين . . هذه المرة أنا الخصم المباشر . . أنا الطرف الحاضر . . لا يبدو أن هناك حملة واسعة فما من أحد آخر . . وربما أخفوا بقية المقبوض عليهم في مكان آخر حتى لا نتعرف على أبعاد القضية . . كانت كلمات الضباط تحمل نغمات التوتر والعدوانية ولكن بتهذيب بالغ . . أخذوا يقلبون الأوراق التي جاءت اليهم من مكتب الجيزة مصنفة لا أعرف على أي أساس . . وأخذ أحدهم يتهكم على رأينا في الانتخابات التي كانت قد انتهت منذ أيام وكانت رائحة فضائحها وعمليات التزوير المبتكرة تفوح في طول البلاد وعرضها . . ولا أدري لماذا اعتبر نفسه مسؤولاً . وأخذ يؤكد أن الانتخابات كانت نزيهة وأننا نحن الذين نزور الحقائق . . وأن كل شيء . . كل شيء على مايرام . . ولماذا نحن عصبيون . . كان يتساءل بعصبية . . على يميني بامتداد الغرفة الضيقة توجد مكتبة صغيرة وضعت عليها مجموعة كبيرة من أعمال «لينين» . . سألتهم ما اذا كانت تلك هي حصيلة الهجمات على بيوت التقدميين فانبرى أحدهم قائلاً اننا نملك مكتبة ماركسية كبيرة جداً . . لكنه لم يعلق بشيء على وجود العلم الأمريكي الذي انزرع في قلب اعمال «لينين» . . لماذا وضع هذا العلم . . وجدتني أتأمل في بناء تلك العقلية التي تنظر إلى الأمور على هذا النحو . . ثمة فكرة شائعة يروج لها كثيراً جداً في الصحف وأجهزة الاعلام وتتناولها بصور متباينة أقلام كتاب هذا العهد . . تلك هي حياد التقدم . . فالتكنولوجيا ليس لها مضمون اجتماعي وينقسم العالم المتقدم الى معسكرين رأسمالي تقوده امريكا واشتراكي يقوده تلامذة لينين وعلينا لكي ننقل التكنولوجيا أن نختار ، وبالطبع فإن التكنولوجيا الرأسمالية افضل واجود بما لا يقاس . . ويدخل السلاح أيضاً او ربما أساساً ضمن هذه البضاعة . . علينا اذن أن نأتي بها من القلعة الرئيسية . . أمريكا الجميلة وصديقتها اسرائيل ـ ليس هذا على أي حال لا مكان ولا وقت تأمل هذا الموضوع . . هل يا ترى سوف يقول لنا هؤلاء الضباط ما هي القضية . . بالطبع لا . . ودعت زوجي بعد أن عرف انني سوف أقضي هذه الليلة في مبنى المباحث العامة واطمأن أنني لن أرحل الى سجن القلعة ، كنت أقدر جداً قلقه فتلك هي المرة الأولى رغم أننا اتفقنا من قبل على أن نعتاد الأمر . . ان نعتاد الارهاب ونألفه حتى لا يفاجئنا شيء ، أخذت ايضاً افكر في أصدقائنا . . لقد أفسدت عليهم السهرة التي كنا نعد لها منذ أسبوعين حيث أرهقنا في معركة الانتخابات ولم نكد نرى بعضنا البعض . . هل أنا التي أفسدت السهرة؟ . . لأول مرة أتأمل هذا الأمر لماذا أجنح الى لوم نفسي . . ما هو السبب العميق لذلك الاحساس الدائم بالمسؤولية عن كل الشرور والآلام؟ . . لم أفسد السهرة . . أفسدتها

المباحث السياسية «صحبني المخبر الى القبو الذي سوف ابيت فيه . . إنبعثت رائحة كريهة جداً وخانقة من عنبر واسع ينام فيه عدد كبير من العسكر متكدسين . . كم يا ترى عددهم سألت المخبر- فجأة يداهمني الولع بالأرقام- قال لا أدري ولكنهم كثيرون وهم يتبدلون . . إنهم عسكر الخدمة . . بالقرب منهم كانت دورة المياه . . لها رائحة خانقة متميزة ولكنها مشبعة برائحة المياه التي تتساقط من كل الحنفيات وتخلق مع أصوات الصراصير ايقاعاً رتيباً يجهد الاعصاب . . ها هو إذن سريري . . سوف أنام مكان المخبر الذي استيقظ من نومه العميق ليستقبلني .

الحر والرطوبة والبق والصراصير وبصاق العساكر . . أين هذا كله من السهرة التي كنا نعد لها . . ابتسمت . . تذكرت نصيحتي لأطفالي ولنفسي علينا أن نسعى دائماً لتحسين ظروفنا ولكن ينبغي في نفس الوقت أن نكون مؤهلين نفسياً للعيش في ظل أسوأ الظروف دون أن يؤثر ذلك على معنوياتنا . . لم يكن في حسابي حينئذ أنه سوف يكون علي أن أبذل جهداً كبيراً أيضاً لأتنفس ،لا بأس وجدتني أعتذر للمخبر لأنني أيقظته . . كان عجوزاً وديعاً مجهداً وترك لي السرير وهو عبارة عن لوحين خشبيين تغطيهما بطانية مهترئة وقذرة للغاية . . سألني لماذا جئت . . قلت الحق أنني لا أدري ولكنني عضو في حزب التجمع الذي تلاحقه الحكومة . . قال حين تشتد العواصف يا ابنتي ليس عيباً أن ينحني الناس . . تذكري أولادك . . كيف سوف يكون حالهم إذا ما تعرضت للحبس الطويل . . إنهم يلقنونهم إذن كيف يسلكون وماذا يقولون . . ولكنه رجل طيب في الغالب . . يبدو اشفاقه على أطفالي حقيقياً . . وإذا به يقول : كنت حارساً على لطفي الخولي وأعرفه جيداً . . وجاءنا هنا منذ شهور حسين عبد الرازق ، وفي الصباح الباكر وجدت- راديو لندن يذيع خبر القبض عليه . . قلت له أن حسين هو زوجي ويبدو أن المباحث سوف تقبض علينا بالتناوب . . سألته عن أطفاله فقال انهم حوالي تسعة فانفجرت ضاحكة لم أر الدهشة على وجهه لأنه كان قد أطفأ النور وأخذ يرص الكراسي بجوار المكتب لكي ينام . . لم أنم كانت العفونة والقلق خانقين نهضت في السادسة ولأول مرة أميز وجود زنزانتين ملتصقتين ببعضهما عرفت فيما بعد أن واحدة مخصصة للرجال والأخرى للنساء ويبدو أن المباحث العامة لا تستضيف نساء كثيرات فتحولت زنزانة النساء الى «بوفية»- يديره أحد الرجال المهمين لصالحه . . حكى لي المخبرون عن النساء اللاتي استقبلوهن . . «عزة بلبع» . «شوقية الكردي» . . ليلى الجبالي كانت ليلى في ذلك الوقت في سجن القناطر متهمة بالجاسوسية لبلغاريا . . انزعجت حين سمعت اسمها هل يلفقون لي قضية جاسوسية . . المرء لا يستبعد شيئاً . ولكن قضية بلغاريا التي اتهموا فيها النائب التقدمي أحمد طه كانت قد أعدت خصيصاً في زمن الانتخابات- لاسقاطه وقدموا فيها زميلين صحفيين «ليلى

الجبالي» و «نبيل زكي» . . وثلاثة مرشحين هما أحمد طه وحمدي مرسي وأحمد مجاهد . . إن لي أصدقاء ومعارف كثيرين بين الملحقين الثقافيين والصحفيين الأجانب هل يا ترى سوف أتهم بالجاسوسية لفيتنام مثلاً؟ وجدتني أتصور أولادي وأصدقائي وجيراني . . ونحن بلا جريدة كيف يمكن أن يدافع المواطن عن نفسه في هذه الحالة . . ترى كيف يشعر هؤلاء المتهمون بالجاسوسية . . ذلك شيء فظيع . . إن الحد الأدنى من النزاهة لم يعد متوافراً . . انفتح باب الزنزانة المواجهة عليّ وأطل وجه شاب مجهد للغاية . . مشعث الشعر نما شعر ذقنه نمواً مشوشاً . . كنت أجلس على حافة السرير بملابس الليلة الماضية . . كان شكلي مضحكاً بالقطع . . فأنا ألبس عباءة جميلة أحبها . . عرفت أن الشاب طالب فلسطيني . . يبدو أن المباحث تشتبه في علاقته باحدى المنظمات الفدائية أخذ الرجال المحبوسين يخرجون تباعاً إلى دورة المياه كانوا يفترشون الأرض . . وكانت الرائحة التي انبعثت من فتح الباب قد أخذت تخف ليأتي بعض الهواء النقي من الطاقة الصغيرة المواجهة للباب . . سوف أستنشق أخيراً بعض الهواء النقي . . حسن فلنحمد الله . . انهم تركوا طاقة هنا . . انقضى الوقت بطيئاً . . كان المخبرون يعدون الشاي على سخان كهربائي بطيء . . وقد جاءوا جميعاً من الصعيد . . أخذت أتأمله في انتظار أن ينتهي اعداد الشاي وقد ساورني القلق من جديد . . ها أنذى في انتظار الترحيل إلى النيابة . . ماذا سوف يوجهون لي من تهم . . أي شيء ممكن إلا الجاسوسية . . سوف يكون ذلك صعباً للغاية . . قاسياً . . ها هو الشاي معد . . كنت بحاجة ملحة إليه . . لو عاقبوني هنا عقاباً حقيقياً لمنعوا عني الشاي وجدت له مذاقاً رائعاً أعاد إليّ عبير سهرات جدتي وأمي الشتوية . . نفس المذاق ونفس الألفة . . أناس طيبون يشقون كثيراً في ملاحقة البشر ولا يعرفون لماذا . . انهم لا يدافعون عن شيء . . بلى يدافعون عن لقمة العيش التي يحصلون عليها بصعوبة . . جميعهم بلا استثناء يعولون أسرار كبيرة . . جميعهم دفعوا بأبنائهم إلى المدارس بعضهم إلى الجامعات . . قلت هذه هي الفئات المسحوقة التي أتيح لها بصيص من النور وخرجت نسبياً إلى سطح الحياة في ظل الإجراءات الاجتماعية العميقة التي حققها الرئيس جمال عبد الناصر، تساءلت . . لو سار الأمر على وتيرة الانفتاح فهل سوف يستطيع أشباههم أن يدفعوا بأبنائهم إلى المدارس . . الإجابة هي بالقطع لا . . جميعهم يشكون الآن من قسوة الدروس الخصوصية وعجزهم عن تأمينها لأبنائهم . أخيراً جاء ضابط شرطة من قسم الترحيلات وبرفقته شرطيين ليصحبني الى النيابة . . قبل ذلك على أن أصعد إلى مكاتب الضباط من جديد حتى ينتهوا من تصوير الأوراق قبل أن يرسلوا بها إلى النيابة . . أوراق كثيرة جداً بعضها مقالات لم تستكمل وقصاصات ، فقرات من كتب ودراسات ترجمتها ولم أستخدمها بعد . . ملاحظات حول قضايا كنا ننوي الكتابة عنها . عملية تخريب

عشوائية اذن فليصوروا الأوراق. . في الطريق إلى أعلى عرفت الكثير من الوقائع الطريفة حول تزوير الانتخابات. . كيف أن أقسام البوليس قد استقبلت صناديق ملأى عن آخرها بالأوراق والبطاقات الانتخابية التي صوتت مقدماً لمرشحي حزب الحكومة ، وكيف أن بعض الضباط الشرفاء قد احتجوا ولم يستمع إليهم أحد. كانت وزارة الداخلية تريد أن تجعل من جهازها كله طرفاً في التواطؤ ضد أي معارضة لاتفاقيات كامب دافيد سواء تلك التي تأتي من اليسار أو من اليمين الديني. . رتب كل شيء بدقة . . قال أحد الرجال الذين شاركوا في التزوير. . «لقد شعرت بالقرف». .الطريف في الأمر أن هذا الرجل نفسه أخذ يدلي بشهادة عكسية تماماً حين أثير الموضوع أمام أحد ضباط المباحث الذي دافع عن نزاهة الانتخابات وخاصة في دائرة خالد محي الدين. . «رفض الناس خالد محيي الدين لأنكم ضد السلام- أنتم دعاة حرب والناس تحب السلام وتؤيد المعاهدة». جعلني هذا الموقف أتأمل العداء الذي يكنه ضابط الشرطة العادي لرجال المباحث. خاصة المباحث السياسية فهؤلاء يستطيعون أن يكتبوا التقارير التي تؤدي إلى نقل أو إيذاء ضباط الشرطة في أي وقت. . في انتظار الانتهاء من التصوير سألت الضابط . . هل أنا مقبوض علي احتفالاً بالعام الدولي للمرأة على طريقتكم؟ قلت ملاحظتي الاستفزازية بعد أن أدركت أنني وحدي وأن الموضوع يخصني أنا. . وليست هناك حملة. . ذهبنا إلى النيابة وفي الطريق عرفت المزيد عن مشكلات رجال الشرطة وخاصة الجنود وضباط الصف وأمناء الشرطة أن معاناتهم المتزايدة تجعلهم أقرب إلى الشعب الفقير وأشد عطفاً عليه. . ربما كان هذا هو السبب في استدعاء الجيش أثناء مظاهرات يناير ١٩٧٧ لضرب المظاهرات. . ولكن هذا الاستنتاج يتسم قليلاً بالميكانيكية. . ذلك أن قوات الأمن المركزي التي تدرب خصيصاً لمواجهة الاضطرابات في المدن، تتلقى إلى جانب الأكل الخاص والعزلة في معسكرات بعيدة دورات تدريب معنوية عصبية بحتة تضبط جهاز الجندي العصبي على اشارات محددة يتحول بمقتضاها إلى كائن شرس عاجز عن التفكير وعن استخدام عقله، فينقاد إلى غريزة بدائية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بزمان القنص والصيد والدفاع المستميت عن النفس. . في الجيش التونسي. . وقبل الاضطرابات الشعبية الكاسحة عام ١٩٧٧ أجريت عمليات تدريب عصبية مشابهة. . كانوا يقدمون للجنود الفقراء كميات هائلة من البيرة. . وحين يستغرقون في النوم يوقظونهم للتدريب بعد ساعتين في منتصف الليل. . ويتكرر هذا التدريب المضني فيتحول الجنود والضباط إلى كائنات عصبية يمكن استثارتها بسهولة بالغة. . ولا يحدد جهازها العصبي لغة خاصة للاستجابات تختلف عن الاستجابات الطبيعية للانسان العادي. . وقد ضرب الجيش التونسي، المكون من جنود فقراء- مثلهم مثل جنود الأمن المركزي - ضرب المظاهرات الشعبية بقسوة. . هكذا لا ينبغي أن يعول أحد على تضامن الفقراء التلقائي

على لغة الفقر المشترك . . في مقر النيابة كان زوجي وزملائي في النقابة والحزب يجلسون في انتظاري قلقين مثلي ولا يعرفون شيئاً . . دخلت غرفة التحقيق لم أكن خائفة كنت قد اعتدت ذلك بعد أن سألني المدعي الاشتراكي قبل عام . . حضر معي الزميل محمود سامي سكرتير عام النقابة وسبق أن حضر معي تحقيق المدعي الاشتراكي مندوباً عن النقابة أيضاً . . لا بد أن أقف هنا قليلاً لأنبه من جديد أن بعض الناس سوف يقولون ها هي الضمانات . : ذلك نظام ديمقراطي حقاً يكفل للناس حماية قانونية كاملة . . مندوب للنقابة ومحام هذا شيء بهيج وحر للغاية . . ذلك منطق خطير ينساق إليه الكثيرون . . عشاق المقارنة . . الأصل في الأمر أن لا يسأل الانسان في رأيه . . وكلها قضايا رأي أجدني مضطرة دائماً للتذكير بهذه الحقيقة البسيطة وهذا المبدأ الدستوري المعروف جيداً وأتذكر أيضاً تلك الحدوتة الشائعة في أوساط السياسيين عن رجل تعرضت له عصابة من الأشقياء في الطريق . . جردته من أمواله وأوراقه حتى خلعت عنه ملابسه وحين احتج على تعريته كلية قادوه إلى المحكمة متهماً بالاعتداء عليهم . . ومثلوا أمام القاضي الذي حكم ببراءة الرجل فخرج إلى الشارع عارياً مبتهجاً وممتناً وهو يهتف . . يحيا العدل يحيا العدل . . أسوق هذا المثل الطريف لأن موضوع مساءلتي سواء أمام المدعي الاشتراكي أو أمام النيابة كان موضوع رأي لا يجوز المساءلة فيه وفقاً للدستور . . كنت قد أرسلت مجموعة من الدراسات حول الآثار السلبية للمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية على الثقافة والاقتصاد وحركة التحرر العربي كلها كتبها باحث مصري في الاسرائيليات يدعى محمد حسن . أعطيت الدراسات لبائع الكتب محمد مدبولي صاحب أشهر المكتبات الثقافية في القاهرة ليرسلها مع أحد المسافرين إلى مجلة «دراسات عربية» في بيروت . . ولا أعرف بالضبط الظروف التي أدت الى القاء القبض على نزيه بعلبكي اللبناني الجنسية وحامل الرسالة . . وجدت مدبولي نفسه في مقر النيابة . . إن الدراسات لا تحمل إسمي ولا توقيعي وليس ثمة ما يدل على الاطلاق أنها تخصني . . وهناك أربعة أطراف في الموضوع : كاتب الدراسات . . وحاملها والوسيط وأنا فلماذا اختاروني أنا بالتحديد ليلقوا القبض علي . . يقول مدبولي إن مخبراً كان يلاحقني حين سلمته الرسالة . .

وماذا في ذلك . . أنني لا أخفي الأمر فأنا أعطيته الرسالة لتوصيلها . .

هل كانوا يريدون دخول بيتنا أثناء انتخابات نقابة الصحفيين؟ . . كيف سوف يكيفون الأمر قانوناً .. كيف تسمح النيابة لنفسها بهذه البساطة أن تعطي أمر ضبط وتفتيش لمواطن

ليس هناك ما يدل على الاطلاق أنه صاحب المقالات؟ . . ولكن تلك هي عادة نيابة أمن الدولة . . لا ترفض طلباً لرجال المباحث فيما يختص بضبط وتفتيش واحضار السياسيين . . واجهني المحقق بمدبولي وبالدراسات فقلت أنني فعلاً أعطيتها له . ولكن ماذا فيها . . لا بد للمحقق أن يسأل في الموضوع . . لا بد له أن يقرأها . . ولا بد أنه سوف يكتشف أن المقالات ضد الصهيونية واسرائيل فكيف يا ترى سوف يجري التحقيق . . هل هي ورطة . . أم أنه هو الآخر موقن الآن أن اسرائيل دولة صديقة وجارة طيبة . .

على أي حال لماذا ينجو هذا المحقق بالذات من سطوة تأثير أجهزة الاعلام البالغة . . انه حتى يسألني لماذا شطبت كلمة باسم الله الرحمن الرحيم في أعلى الصفحة . . كان شيئاً بديهياً انه حين تعطى أي مواد للنشر للمطبعة لا بد أن يشار إلى ما يكتب وما لا يكتب . . ولكنه صمت . . لعله هو الآخر يفكر أن المعادين للمعاهدة هم ملحدون شيوعيون كفرة لا يؤمنون بالأديان بما فيها اليهودية . . في أثناء التحقيق دخل المحامي المعروف عبد الله الزغبي . . كان يحق لي باعتبارها قضية نشر أن أطلب حضور محام أثناء التحقيق طلب عبد الله الزغبي أن يتصفح الدراسات موضوع المساءلة ووجدته يقفز خارجاً بعصبية فسألته ماذا حدث . .قال موجهاً كلامه للمحقق . . هناك حدود لكل شيء . . انني أتساءل حقاً هل يجوز ذلك . . وفيما بعد أخبرني أنه كان يود اشعار المحقق أنه يمكن للناس أحياناً أن يقولوا لا . . وانه ربما لو قرأ الدراسات لرفض التحقيق في محتواها . . الحق أن الأمر لم يكن كذلك . . فأجهزة الأمن ونيابة أمن الدولة التي أعطت أوامرها باقتحام مقر حزب التجمع أكثر من مرة لأنه يصدر دراسات وبيانات تحمل وجهة نظره في السياسات المطروحة يدركون أنه يستحيل نشر هذه الدراسات في مصر . . ولو أن صاحبها استطاع أن ينشرها في مصر حيث الجمهور الأساسي الذي يتوجه له لما أرسلها إلى الخارج . . انهم يريدون أن يغلقوا حتى هذا الباب الذي يصل المثقفين المصريين ببقية أرجاء الوطن العربي . . هذه ضربة تحذر عشرات الصحفيين الذين يعارضون المعاهدة ويقفون بصلابة مع انتماء مصر العربي ولا يجدون منفذاً للتعبير عن أنفسهم إلا في جرائد ومجلات الوطن العربي . . ولكن ما زال السؤال قائماً كيف يرى المحقق الأمر؟ انه سؤال يحيرني . . هل كف المتعلمون المصريون كلية عن طرح الأسئلة وأعطوا لحكومتهم تفويضاً نهائياً لكي تسأل وتجيب نيابة عنهم . . كنت أظن أن هناك مجموعة من البديهيات ترسخت في الوجدان الوطني والقومي العام يصعب طمسها بهذه البساطة . . على أي حال الرجل مهذب جداً . . لا تستطيع معه أن تعرف إذا كانت البديهيات قد ترسخت في الماضي أم أن بديهيات جديدة تترسخ الآن . . طلب إليّ أن أسجل إذا ما كنت أريد أن

أضيف شيئاً فقلت له إن تفتيش منزلنا كان باطلاً لأنه تم في غيابنا، فضلاً عن أن اجراء غير أخلاقي قد اتخذ حين دفع أحد الضباط المكلفين بالتفتيش ابنتي ودخل منزلنا رغم أنفها ولم يكن بصحبتها سوى شقيقها الصغير. وحين طلبت منه إظهارأمر التفتيش تهكم وسخر منها. أبدى المحقق دهشته متسائلاً كم عمر ابنتك؟ قلت له اربعة عشر عاماً. . فقال. . ياه ومتى عرفت معنى أمر التفتيش وضرورة طلبه من قوات الأمن. . قلت له لقد اعتاد أبناؤ نا وأبناء زملائنا الكثير من الاشياء غير المعتادة. . تعلمنا ذلك من الارهاب المستمر. . لم يعلق.

أعادتني سيارة الشرطة إلى القبو الذي بت فيه الليلة الماضية بمقر وزارة الداخلية. . الحرارة والرطوبة والعفونة كما هي. . . وجوه المخبرين تغيرت. . ها هو طاقم جديد. . زنزانة الرجال مفتوحة. . الطالبان الفلسطينيان منهمكان في المذاكرة. . ميزت الآن الفروق الواضحة بين مستواهما الاجتماعي ومستوى الشابين المصريين. . الفقيرين للغاية أحدهما بحار عرف معظم الموانىء وخبر الحياة فيها. . وحين وقع اتفاق الصلح المصري- الاسرائيلي كانت سفينته ترسو في أحد موانىء المغرب وهناك التقى بالمصريين المعارضين للاتفاقية واتفقوا- كما حكى لي- على الاحتجاج لدى السفارة وكتبوا رسالة بهذا المعنى- واختاروه هو ليقدمها- ولأنه لا يجيد القراءة والكتابة فقد أنقذته الصياغة المثقفة أو «السيغة» على حد تعبيره. . وبرأه المحقق. . يستحيل أن تكون صيغة رسالة الاحتجاج السياسية على المعاهدة من صنع أمي. . حين كان المخبر ينصحه بالتوبة والاستقامة كان يستجيب «حرصاً على أمي التي تقيم في الاسكندرية ولا تعرف أنني محبوس وليس لها أحد في هذه الدنيا سواي». . ، ومع ذلك كان الفتى الأمي الذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين يتكلم بمرارة عن الصلح مع اسرائيل. . لا يستقيم الأمر معه نفسياً. . هو لا يستطيع أن يجادل كثيراً في شروط الاتفاق وبنوده لكنه على حد قوله «مطعون». . . . .

كان المصري الآخر مطعوناً كذلك ولكن على طريقته. . . يتحدث عن جمال عبد الناصر بنوع من التقديس وسرعان ما تلوح الدموع في عينيه. . . «أنا صنايعي» وددت دائماً أن أضع تصميماً لطائرة. . كانت لدي خطة للحرب مع اسرائيل. . تحدثت لعبد الناصر عنها والآن يذهبون إلى اسرائيل. . اعتاد الفتى أن يردد تفصيلات خطته في شوارع حي باب الشعرية المزدحم بالسكان وهو يلعن اسرائيل والذين يتعاملون معها. . يلعنهم بأشد الألفاظ الشعبية بذاءة. . كان حديثه يستوقف الناس ويجمعهم واعتادت المباحث القاء القبض عليه بين الحين والآخر، حيث تقوم بحجزه ثم اطلاق سراحه ولكنه يعود ليردد تفصيلات خطته ويعلن عن رأيه. . إستعد للخروج بعد أن جاء الأمر باطلاق سراحه واستطال شعره جداً كما استطالت أظافره. الجميع يستخفون به بسبب ما يلوح في عينيه وكلماته من عدم الثبات. . كان يشعر بالخجل لأنه يدخن سجائر

الآخرين . . ويعد الجميع حين يخرج أن يزورهم ويرد سجائرهم . . نصحه المخبر وهو يغادرنا وقد لمعت عيناه أن يعتزل السياسة ويعتني بعمله فطاوعه ثم سألني ولكن هل توافقين على الذهاب إلى اسرائيل فقلت له- رغم امتعاض المخبرين . . . أنا هنا لأنني لا أوافق . . أخذ يدعو بحرارة إلى أن غاب عنا صوته المميز . . أصبح الفتى الآخر وحيداً . . وحيداً لأن فقره الشديد يعزله عن الطالبين الفلسطينيين لا أعرف اذا ما كان أحدهما قد حاول أن يبذل جهده لكسر هذا الاحساس العميق بالغربة لدى الفتى . . . لكنه لا يشاركهما الطعام ولا حتى الحديث . .

تبدأ الليلة الثانية الآن الظلام يشتد والحر لا ينحسر، كنت قد حصلت على مبيدات كثيرة أخذت أرش سريري واستعد للنوم . . ولكن هل يمكن هذا حقاً . . إن عدد المخبرين قد ازداد وزنزانة الرجال مفتوحة . . والنيون مسلط تماماً على رأسي . . تمنيت الان لو أنهم كانوا قد رحلوني إلى سجن النساء . . سئمت الحديث والناس وأشعر بارهاق هائل . . أخذت أقرأ في سفر التكوين كانت رشا تعرف أن الكتب المقدسة مباحة فوضعت لي القرآن والأنجيل . . عجزت عن التركيز . . ولا أعرف متى نمت وأنا جالسة إلى أن نبهني المخبر العجوز فطلبت إليه أن يصحبني لأغسل وجهي . . كنت مصرة على عدم الاستسلام للنوم إلى أن يخلو المكان كلية من الناس والضجيج . الأمر صعب . . كم هو الزمن المطلوب لاعتياد الأشياء غير المألوفة . . يختلف الأمر قطعاً من إنسان إلى آخر وفقاً لتركيبته النفسية والاجتماعية والثقافية ولوعيه . . ها هي كل قواي تتكاتف لمقاومة هذه الوضعية لن استسلم للنوم بتعمد . . ولا أعرف متى أطفئت الأنوار ولكنها أطفئت وخلا المكان ونمت نوماً عميقاً إلى أن صحوت مبكراً جداً . . وبدأ يوم آخر من الانتظار . . توافد عدد آخر من المخبرين بالاضافة الى حارس وعساكر الخدمة . . تذكرت فجأة قول صديقة فرنسية كانت قد زارت مصر في الستينات وزارتها قبل عامين وأبدت ملاحظة هامة هي تدهور الشكل العام للمواطن المصري البسيط . . الموظف الصغير والعامل والعاملة . . تآكل ملابسهم والاجهاد الذي يبدو في ملامحهم . فرغم أن هؤلاء المخبرين محظوظون ويتمتعون بامتيازات نسبية كبيرة إلا أن ملاحظة صديقتي عادت إلى ذاكرتي بقوة . . في وجوه العساكر تتكاثر البقع البيضاء ولا يوحي المشهد العام كله إلا بالتعب . أخيراً وصل أمين الشرطة ليصحبني الى النيابة من جديد بينما كنا نناقش قضية الدروس الخصوصية وهي شكوى الجميع . . هناك فزع عام من الضياع . . . تدرك الأسرة الفقيرة انها إذا لم تنفق على تعليم أبنائها فسوف يضيعون . . وقد أصبحت الدروس الخصوصية منتشرة انتشاراً كبيراً حتى على مستوى الجامعات، وأسعارها تتزايد بانتظام مثل كل شيء . . كانوا يطلبون إليّ كصحفية- أن أكتب عن هذه القضية في أي مكان . . فشلت في أن أشرح لهم أنني وعشرات غيري ممنوعين من الكتابة فاكتفيت بالانصات . حين تأهبت لمغادرة المكان

أخذ البحار يدعو لي بحرارة ألا أعود إليه من جديد.. حملت أشيائي وصافحت المخبرين والعساكر والمسجونين واتجهنا من جديد إلى مبنى نيابة أمن الدولة لاستكمال التحقيق.. وضع المحقق أمامه كمية هائلة من الأوراق التي أخذوها من بيتنا.. لم أستطع أن أتعرف عليها كلها. فإما أنني لا أتذكر أو أنهم قد أتوا بها.. كثيراً ما يفعلون ذلك حين تكون لديهم أوامر واضحة بشل حركة أحد المعارضين وليست لديهم مادة لإدانته.. على أي حال تبينت فيما بعد أن القصد من اطالة التحقيق هو معاودة السؤال عن شخص محمد حسن وشكله ومكانه.. ولأجل هذا عرض علي الدراسات من جديد.. كانت دهشتي تزداد. ألم يشعر بالفضول لكي يقرأها.. لكي يعرف حجم المشروع الصهيوني في مصر طبقاً للمعاهدة ويعرف ما نحن مقبلين عليه.. لو أنه فعل لوجد الأمر كله مخيفاً ولكن المحقق لم يكن مؤهلاً أصلاً لتقبل فكرة أن يجد في البلاغ المقدم ضدي سخافة أو مكيدة- لقد أصبحت البيروقراطية جزءاً من التكوين النفسي والعقلي ومن ثم فان- السلطة أي سلطة لا بد انها على حق دائماً في بلد تملك فيه الدولة كل هذا النفوذ والتراث والسطوة.. ولكي نهز ذلك التكوين.. لكي نزلزل هذا الاعتياد لا بد أن تزدهر الديمقراطية ازدهاراً حقيقياً لا شكلياً.. تلك هي معركتنا.

حسن؟ أنا لا أعرف محمد حسن ولست إلا رسول.. أفرجت عني النيابة بكفالة قدرها عشرون جنيهاً يا لي من محظوظة! سوف يذهب ركبنا من جديد إلى مبنى المباحث العامة لندفع الكفالة وأخرج الى بيتي. في مبنى المباحث وجدت زوجي وعدد كبير من الضباط لم يستطيعوا اخفاء غيظهم.. العملية حتى الآن فاشلة بالنسبة لهم.. يبدون مودة زائفة وتهذيباً عصبياً للغاية.. على أن أملأ بعض الأوراق عن اخوتي وأقاربي ولون عيوني ومرتبي.. إنتهيت منها بسرعة سألني أحدهم كيف حال أحمد فؤاد نجم لقد افتقدناه.. كانت قصائد نجم عن الثورة الايرانية قد راجت جداً في هذه الأيام وعجزت أجهزة الأمن عن القبض عليه ويبدو أنهم يتعرضون لتوبيخ رؤسائهم.. سألني أحد الضباط من جديد من هو محمد حسن؟ فقلت له أن التحقيق قد انتهى وابتسمت لأنني تذكرت أن جريدة الأخبار كانت قد نشرت خلال الخمسينات مسلسلاً مصوراً عن «حسن» الذي يبحث عن «فاطمة»... ولكنني لم أستسلم لها جس المزاح.. في الليلة السابقة كان أحدهم قد طلب الي الصعود الى مكتبه ليسألني.. أين نشرت المقالات التي حقق فيها المدعي الاشتراكي معك فقلت انها نشرت في جريدة السفير، وعرفت فيما بعد أن ليلتي المباحث كانتا مجرد تمهيد لحملة أغسطس التي ألقي القبض فيها علي أنا وزوجي مع ستين سياسياً آخرين من العمال والمحامين والطلاب والفلاحين.

العداء للديمقراطيـــة . . واسرائيـل

أفزعتني مظاهر الجلال التي تحدث بها الضابط المتوسط العمر عن اسرائيل وتذكرت قول الصديق رفعت السعيد: إنك تواجهين موضوع الزيارة لاسرائيل بالبكاء. . من أين تأتين بكل هذه الدموع؟. كنت أريد أن أبكي حقاً لأن الرجل يتحدث عن اسرائيل وكأن شيئاً لم يحدث أبداً. . يتحدث عن التقدم والنظافة والجاه والطرق المرصوفة وضرورة أن يلتفت كل بلد عربي. . كل بلد عربي إلى مصلحته الخاصة. . وقال الجملة الأخيرة ببطء مشدداً على كل حرف فيها. كان الرجل يحدثني بلهجة تهديد واضحة. . ضابط مباحث خدم في قسم مكافحة الشيوعية، قبل رحيل الرئيس جمال عبد الناصر والآن أضيفت اليه مهام قسم مكافحة حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي وهو يتربص بنا. . انتمى الرجل دائماً على اي حال إلى جهاز القمع الرئيسي للديمقراطية، وهو المباحث السياسية. . عداؤه لنا وللديمقراطيةمنطقي وطبيعي ولكن أن يتحدث عن اسرائيل بهذه الحميمة هو الأمر الغريب. . كنا لكثرة الهجمات على بيوتنا ومقر حزبنا قد تآلفنا مع وجوه وملامح عدد كبير من الضباط ذوي الرتب المختلفة وكذلك المخبرين السريين. . سواء في قاعات المحاكم أو على أبواب الحزب والبيوت. . كنت موقنة حتى ذلك الحين أن ثمة قلق وعدم رضا بين كافة فئات الشعب باستثناء المستفيدين مباشرة- ضد الاندفاع نحو اسرائيل والتسليم لها عبر اتفاقيات كامب دافيد- المناقشة المتأنية الصبورة مع الناس تكشف لنا ذلك في النهاية. . فهل يا ترى الحق جهاز المباحث بهذه السرعة بعجلة الطفيلية وأصبح جزءاً منها. . وهل نجحت المصروفات السرية المتزايدة والامتيازات الكبيرة. . الرواتب والشقق والرحلات المنظمة الى الخارج والنقود بلا حساب أو محاسبة. . هل نجح كل هذا في محو كل ما رسخته سنوات الناصرية في وجدان رجال هذا الجهاز أنفسهم. . فرحت لأن ضباط الشرطة العادية لا يبدون نفس الحماسة لاسرائيل. لا يلوح الرضا على وجوههم أو سلوكهم. . كانوا يقومون بحراستنا في قاعات المحاكم أو أثناء انتقالنا من السجن إلى النيابة أو المحكمة أو المباحث العامة. ذات مرة قلت

أحدث حارسي : لم يعد الأمر محتملاً . . فتفجر بسخط لم أكن أتوقعه كان منصباً على شيئين الغلاء الفاحش ومد النيل إلى اسرائيل . . قلت لنفسي حسن أنهم اذن يختلفون . . كان قد خطر في بالي ذلك الأسلوب الذي يتبعه الاخصائيون الاجتماعيون حين يسعون إلى رصد ظاهرة معينة بطريقة علمية فيصممون استمارات ويحصلون على عينات من الاجابة . . ماذا لو سألوا الشرطة عن اسرائيل ما هي يا ترى تلك الصلة التي سوف يكشفون عنها بين امتيازاتهم وتأييدهم للمعاهدة دون أدنى احساس بالذنب؟ يتدرج ضباط الشرطة العاديون في الأقسام مثلاً طبقاً للروتين الوظيفي العادي ويحصلون على رواتب متوسطة نسبياً لا تفي بالاحتياجات البسيطة في ظل المصاعب المتزايدة للحياة . . معظم من قابلتهم عاجزون عن اتمام زواجهم بسبب مشكلة الإسكان . يصبح الضابط الشاب عرضة للانحدار الاجتماعي المستمر اذا سلك في موقعه بشرف تحميه فحسب حليته الرسمية التي تضفي هيبة الانتماء للدولة ولأحد أجهزتها المسلحة . . هذا اذا لم يكن أصلاً ينتمي إلى طبقة اجتماعية كبيرة قادرة على سد الفروق المتزايدة بين راتبه ومتطلبات الحياة .

إذن فالأمر معد سلفاً وباحكام لالحاق رجال البوليس السياسي بالصفوة الحاكمة . لقد عايش هؤلاء الضباط الذين يعملون في مكافحة قوى اليسار المرحلة الناصرية ، ومن المؤكد أن ملامحها لم تندثر بعد من ذاكرة الأجهزة . . في ذلك الوقت كانت لهم أيضاً امتيازات واضحة . . حارب النظام الناصري لفترة طويلة قطاعات واسعة من اليسار ودخل معها في مصادمات دامية ، وخصص لذلك أجهزة متفرغة وضباطاً وجنود وعبأ الأعلام الرسمي ضدهم . . حينئذ كان هؤلاء الضباط- وقد بقي منهم من بقي الآن- يدافعون عن مجد دولة صاعدة يمثلون فيها هم وفئتهم الاجتماعية الغالبة «البورجوازية الصغيرة» عصب البناء الرئيسي . . وان كان عبد الناصر قد بلغ مرحلة تجاوز فيها وعي هؤلاء وفهمهم خاصة بمد قوانين التأميم الواسعة في ٦١ ، ٦٤ واختياره للتحول الاجتماعي العميق خروجاً من المأزق . . تعمقت هذه الإجراءات التقدمية لدرجة جعلت واحد من ضباط هذا الجهاز نفسه عاش في هذه السنوات وتشبع- حتى وهو يمارس ملاحقة اليسار- بانجازاتها ومعاركها- يقول في شهادته أمام محكمة أمن الدولة في قضية ١٨- ١٩ يناير أن احدى المنظمات اليسارية السرية تهدف في نشاطها إلى «إقامة وضع أكثر تقدماً» حسب نص تعبيره .

كان هؤلاء الضباط الذين يدافعون الآن عن اسرائيل يستندون - خاصة فيما قبل هزيمة ٦٧- إلى نظام راسخ . . إلى دولة تبدو كما لو أنها بنيت خصيصاً من أجلهم ومن أجل أشباههم- دافعوا باختصار عن مصالح شخصية فعلية ودافعوا عن مصالح سلطة أحاطتهم بهالة من الاحترام ومثلتهم كمدافعين عن مجد الوطن كله .

في ذلك الحين كانت إسرائيل عدونا الذي لا تناقش عداوته وكان الإستعمار قديمه وحديثه سيداً لها. وإلى وقت قريب بالتحديد في زمن إحتدام الثورة الأنجولية ضد البرتغال- زار أحد الصفحيين العرب المهتمين بالشؤون الافريقية مقر المخابرات العامة حيث تولى أحد رجالاتها شرح تطورات الحرب في أنجولا على خريطة لافريقيا وضعت بالمقر.. كان يشير إلى قوات الثورة.. قوات المبالا.. باسم قواتنا.. وإلى اجوستينو نيتو باسم رجلنا.. والآن هل يا ترى أصبحت قوات موبوتو في زائير هي قواتنا؟ وكيف؟

لم يكن الطموح المادي لضباط المباحث السياسية في زمن عبد الناصر يتجاوز كثيراً شراء سيارة فاخرة قد يغيرها كل عام والحصول على الشقق الجميلة وبعض المصروفات السرية.. وكان ذلك كافياً في ظل بناء الدولة الناصرية لكي يجعل منهم (أسياداً) بكل معنى الكلمة ويلحقهم بصلب الطبقة الحاكمة فيصبح دفاعهم الحار عن وجودها واستمرارها دفاعاً عن النفس قبل أن يكون دفاعاً عن الأفكار والشعارات التي يغلفون بها أعمالهم.. كانت تلك هي الامتيازات الشائعة والمتاحة لرجال الدولة الكبار في ظل الناصرية، وهو ما مثل طموح البورجوازية الصغيرة في حدود التشريعات التي وجدت حينئذ. هذا لا ينفي طبيعتهم كأعضاء في جهاز قمع لأي مد ديمقراطي.. ولا ينفي أنهم لفقوا القضايا وطبخوها عندما كان يطلب منهم ذلك.. وكان بعضهم وأساتذتهم الذين ضربوا المناضلين في السجون حتى الموت.. ومع ذلك فان هذا التاريخ لم يكن يسقط عنهم ارتباطهم بذلك العالم الناصري الصاعد المستقر ومثل عامة واضحة. إن لم يكونوا قد آمنوا بها فقد عاشوا على الأقل في ظلها وتشبعوا- قبل غيرهم - بالمناخ العام الذي أشاعته.

والآن لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التساؤل كيف تقلبت الأفكار والمثل.. الحت علي هذه القضية طويلاً وأنا في السجن.. هل يمكن للبيروقراطية أن تنقلب بهذه البساطة.. كي حول هؤلاء الضباط مشاعرهم على الموجات الأمريكية- الاسرائيلية.. هل نجح الاعلام الزائف والمضلل مثلما نجح مع غيرهم من فئات الشعب في تعبئتهم للدفاع عن مثل مغايرة كلية لتلك التي قام عليها البناء الناصري كله قبل أن ينقلهم اجتماعياً على الأقل الى مصاف أكبر الكبار؟.. بالقطع هم لم ينتقلوا بعد أن اشتكى أحدهم أمامي أنه عاجز عن السكن لأنه لا يملك «الخلو المطلوب».. وكيف أصبحت اسرائيل جارة طيبة وزائير دولة صديقة ومعارضي المعاهدة خونة؟ هل يكفي التدريب في أمريكا والمانيا الغربية خلال السنوات الماضية لكي يغير بهذه البساطة ولاء هؤلاء الذين خرجوا جميعاً من عطف الناصرية؟ لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل.. هؤلاء الضباط الشبان الذين عرفت معظمهم بعد أن كثرت الحملات على حزبنا وبيوتنا وزملائنا.. هل هم مقتنعون حقاً بما يفعلونه؟ هل يعتقدون حقاً أن الصهاينة هم أولاد عمومتنا

وأننا كنا طوال السنوات الناصرية مخطئين وسيء الظن وضيقي الأفق . . ولنترك جانباً ذلك القول الساذج الذي يبررون به دفاعهم عن السياسات القائمة بخصوص مصير الوطن حين يقولون ليهتم كل منا بنفسه . . على كل بلد عربي أن يهتم بمصلحته الخاصة وأن هذا الاختيار الأخير في السياسة المصرية هو اختيار للمصلحة الوطنية وحدها بعد أن يئسنا من العرب، فلا أظن أنهم حين ينظرون حولهم بعد تردي العلاقات المصرية- العربية يكتشفون بطريقة ما صحة نظرتهم .

هل كانت سنوات النضال الوطني الماضية التي تربوا في ظلها عبثاً مطلقاً؟ أم أن البيروقراطية الباردة يمكن أن تتوغل في وجدانهم وضمائرهم بهذه البساطة فيقولون لسنا الا موظفين فاذا أضفنا الى البيروقراطية هذا التدريب المعنوي والروحي والتقني الذي يتلقونه بحكم دراستهم وعملهم ضد الأفكار اليسارية وممثليها ترجح كفة عدوانيتهم المتزايدة ضد اليسار. ولكن وحتى يدخل هؤلاء الضباط في حالة عداء مصلحية سافرة . . حالة عداء واعية ذات طابع نفسي عميق يصبح تغيير الخرائط معها مقنعاً جداً- لا بد أن يرتبطوا ارتباطاً عضوياً وثيقاً بالنشاط الاقتصادي الأساسي السائد- أي- بالطفيليين حتى يكونوا جزءاً حياً من السياسة القائمة ومستوى رجالها المادي العالي المعزول عن الشعب . . ذلك انهم مهما ارتفعت رواتبهم وازدادت المصروفات السرية والامتيازات التي يحصلون عليها- فانهم يظلون في اطار التركيبة الاجتماعية القائمة متصلين من بعيد أو قريب بمشكلات الشعب القاسية . . ولا يمكنهم اذا ما استخدموا العقل البسيط والمنطق الا أن ينصتوا إلى ما يقدمه اليسار وحزب التجمع من حلول .

أما الشرعية التي يتحدثون عنها كثيراً ويعتزون بأنهم سدنتها وكثيراً ما يسألوننا حين ندافع عن منجزات المرحلة الناصرية : هل تفضلون معتقلات عبد الناصر على محاكم السادات- وكأنما قد اتيح لنا دائماً أن نختار ما نفضله من بين أشكال الاضطهاد . . . الشرعية هم غير مقتنعين بها فهم لا يستطيعون كتمان غضبهم حين تفرج المحاكم عن المحبوسين وتفسد للأجهزة قضاياها .

إن هذه الأسباب مجتمعة مضافاً إليها سقوط أكثر من وزير للداخلية وأكثر من رئيس للمباحث السياسية قد أضفت نوعاً من عدم الحماسة على حملاتهم فاستجابوا كموظفين للعمل الروتيني واللوائح . . ولكن أجدني أشعر بالحذر، وأحذر زملائي وأصدقائي من الانسياق وراء هذه الفكرة الخطرة التي تقول بأن ثمة انعدام للحماسة لدى الأجهزة، انها أي الأجهزة لا تؤمن إيماناً حقيقياً بما تدافع عنه . . . حقاً . . لقد افتقدت الأشياء جلالها القديم، واختلطت صورة الأعداء والأصدقاء . وسقط رجال السافاك الذين ربما كانوا قد أثاروا اعجابهم . . وأجدني أحذر أكثر حين

أتذكر ما كان يقال عن جيش شيلي وعمق إيمانه بالديمقراطية، بما يتضمنه ذلك الإيمان من نفور من فكرة حسم السياسات بالقوة المسلحة، وقد حسم جيش شيلي للثورة المضادة الدامية أمرها بضربة.. ولا بد أن أتذكر أيضاً ما يشاع هنا عن وجود عدد كبير من رجال السافاك في أجهزة الأمن المصرية الأمر الذي ليس مستبعداً سياسياً ومنطقياً.. فضلاً عن أن الخبراء الأمريكيين والالمان الغربيين يملأون الأجهزة الفنية في مصر، فكيف بأجهزة الأمن حيث تتكثف وتتزايد الدورات التي يتلقاها ضباطها في الخارج.. لا بد أن يؤتى كل هذا ثماره ان عاجلاً أو آجلاً فيسرع بايقاع عملية الفرز الاجتماعي التي سوف تحمل هؤلاء الشبان بمفاهيمهم وهي تغسل عنها كل آثار الماضي القريب- إلى مصاف الطفيليين الكبار فاما أن يتصالحوا كلية مع الواقع الجديد أو أن هؤلاء ذوي الضمائر الوطنية منهم سوف يطردون خارج الجهاز.. حينئذ تنفقد الحماسة ضدنا وتشتد الضربات مع تعمق النزوع اللاديمقراطي لدى الطفيلية.. هذا النزوع الذي يفرخ المزيد من النظارات السوداء الكبيرة والنظرات القاسيةوالعداء العميق للشعب الفقير.. وتلك القدرة النفسية على ابقاء المناضلين مسلسلين كما حدث لنا طوال اربع ساعات متصلة انتظاراً للمحكمة، واشهار بنادق الحراس أمام آبائهم وأمهاتهم دون أن يشعروا هم الذين قاموا بهذا العمل بأن ثمة شيء غير منطقي... غير أخلاقي... غير انساني.....

التحـــقيـــق

دق مأمور سجن القلعة باب زنزانتنا رقم ٢٠ . حوالي العاشرة مساء، كنا نبدأ الليلة الأولى وقد نال منا الارهاق وبدأنا نصمت ونغفو. . قال استعدوا للذهاب إلى النيابة، لم نكن في زحمة الأحاديث ومفاجأة الاكتشاف قد غيرنا ملابسنا، الفتاتان مرهقتان للغاية، وأنا لا أقل عنهما ارهاقاً لكنني أكبر سناً وأكثر خبرة وعلي أن أنصح وأواسي وأشرح. . تقبلت ذلك الدور. ومع التعب صمتنا جميعاً وجاءت دقات الباب الذي لم يفتح أبداً منذ أغلق على مجيئي في حوالي السادسة لنبدأ انتظاراً جديداً ومفاجآت جديدة. سوف يبدأ التحقيق إذن في منتصف الليل وربما بعد ذلك. . كانت تلك هي المرة الأولى التي تمثل فيها كل من هدى وفريال أمام المحقق. . شعرت بالاشفاق نحوهما. . «لا شيء يخيف» قلت لهما وكأن واحدة منا لم تفكر بأمر التحقيق من قبل. . فلنكف الآن عن ملاحقة الحشرات الغريبة التي امتلأت بها الزنزانة الضيقة ونناقش الأمر قليلاً. . . طالت مناقشاتنا وتفرعت وبدا كما لو أن النيابة نسيتنا. . بعد قليل أخذوا ينادون أسماء زملائنا عرفت أن النائب السابق «أبو العز الحريري» بينهم كان قد عاد قبل أيام من مدينة طنطا حيث وجهت له تهمة التحريض على ازدراء النظام والحض على قلبه . . وقد باتت هذه التهمة مضحكة. . كان أبو العز ينتظر حكم المحكمة في طنطا. . وها هو الآن يأتي إلى القلعة في القاهرة ليواجه اتهاماً آخر. . توالت الأسماء لم يكن من بينها اسم زوجي حسين عبد الرازق . . ساورني القلق إلى أن انغمسنا من جديد في المناقشة انتظاراً للترحيل. . بعد ما يزيد على الساعتين دقوا الباب من جديد. . قال أحد الضباط هيا. . خرجنا ثلاثتنا من الباب الضيق للزنزانة. . القمر ساطع قلت لصديقتي الصغيرتين. . ها هو القمر رغم الظلام يحيينا. . قادنا ثلاثة من الضباط الصامتين. . وقف المأمور يتفرج دون أن يبدي ملاحظة ما إلا أن ضحكاتنا أزعجته كما بدا. . عند المدخل الذي شهد تفتيشنا الدقيق أنا وحسين في بداية المساء كان الحراس قد تغيروا. ها هي وجوه جديدة لا تعبر عن شيء. . وقف الأصدقاء المحبوسين في طابور طويل. . ميزت للوهلة الأولى أبو العز الحريري ومحمد علي عامر ذلك الشيخ الذي تجاوز السبعين. . كان يبتسم. . كأنه في رحلة اعتادها وألف الوجوه. . ولكن يا لعظمته انه يألف هذا المشهد طيلة نصف قرن كامل منذ بدأ نضاله التقدمي. . فكم تغيرت الأجيال . . لعله الآن سعيد لأنه يرى شباباً وفتيات في عمر

أحفاده أو أصغر . . حييتهما قبل أن يتقدم الضابط ليضع القيد في يدي ويربطني الى هدى . . كان مدخل السجن مظلماً حين تقدم طابورنا الطويل إلى الخارج ولكن صوت بنادق العساكر التي ارتفعت فجأة لتضعهم في حالة استعداد كان يشق الليل والظلمة . . انفتح الباب الضيق للسيارة كان علينا أن نصعد بأصفادنا . . بدا الأمر صعباً ثم أخذنا نتبادل الملاحظات الهازلة . . صعدنا جميعاً . . كنا حوالي خمسة وعشرين . . السيارة محكمة الاغلاق . . رائحتها كريهة، يبدو أنهم يستخدمونها في أوقات «السلام الاجتماعي» لنقل الحيوانات بدلاً من المتهمين السياسيين . . الحرارة شديدة نحن في ليلة السابع عشر من اغسطس . . القاهرة خانقة ورطبة . . نحن لا نراها . . لكننا نحسها . . تتشبع أرواحنا برائحتها وأضوائها . . فالسيارة محاطة بالأسلاك . . لها طاقات صغيرة متناثرة لا تكاد تظهر شيئاً . . وحتى لا نكاد نصلها لأننا مربوطون . . . لم تكن السيارة معدة للجلوس . في وسطها اطار كبير لسيارة شحن اكتشفناه حين «فرمل» السائق فجأة فوقعنا أنا وهدى . . جلسنا . . كان الصمت قليلاً . . اقترح أبو العز الحريري أن نتعارف . تبادلنا الأسماء وكلمات التضامن والمودة ثم ساد صمت آخر إلى أن كادت السيارة أن تنقلب من جديد فوقع الكثيرون . . في هذه اللحظة وجدتني أغني دون اعداد سابق . . «يا مصر قومي وشدي الحيل . . كل اللي تتمنيه عندي» التي وضع كلماتها «الشاعر نجيب شهاب الدين» ولحنها وغناها الشيخ «إمام» بعد انتكاس الهبة الطلابية سنة ١٩٧٢ .

كنت أتعمد أن يكون صوتي عالياً وواضحاً . . لم أجرب الغناء من قبل ولكنه بدا لي جميلاً ومقنعاً وأنا أغالب الدموع حين فوجئت بأن كل هؤلاء الشبان من العمال والطلاب ،الذين أتعرف على أسمائهم للمرة الأولى يعرفون الأغنية واللحن معرفة جيدة . . ولكن ها هي مدينة لا تسمعنا . . وقت السحور اقترب ومن الثقوب الصغيرة كنا نميز وجوه الناس يجرون هنا وهناك هل يسمعنا أحد؟ أخذت أغني بصورة عصبية . . . كان صوتي عالياً جداً أعلى من الجميع ولكن السيارة محكمة للغاية ولا أحد يهتم ومع ذلك فقد تخلق هذا الدفء الخاص الذي يتجاوز الرطوبة والعفن . . دفء اكتشافنا في لحظة تبدو تعيسة ان ما يربطنا جميعاً . . . نحن الذين لا نعرف بعضنا البعض هو المعنى الراقي للانتماء الحقيقي للشعب الفقير . . «الدم يجري في ماء النيل والنيل يفتح على سجني . . » كنا قد وصلنا الى هذا المقطع من الأغنية حين توقفت السيارة فجأة عند باب نيابة أمن الدولة العليا في شارع زكي بالقاهرة وانفتح الباب . . علينا أن ننزل ونحن مقيدون بالسلاسل . . قال محمد علي عامر . . في أيام الملك كانوا يربطوننا من أقدامنا . . يا للتطور . . ها قد فكت الحركة الوطنية قيود الأرجل فمتى تنجح في فك كل القيود . . على باب النيابة التي تقع في الدور الخامس وقف الأهل والأصدقاء وقد تحلق حولهم العسكر ومنعوهم من الدخول . . هتفنا

«عاش كفاح الشعب المصري» . . كانت أصواتنا مجهدة وبدا القلق على وجه صديقتي ليلى الشال كانت تنتظر زوجها رفعت السعيد وفوجئت بوجودي وبالقيود . . . صعدنا الى الدور الخامس وجلسنا متراصين في انتظار التحقيق . اقتربت الساعة من الثانية صباحاً . . عرفت فيما بعد أن التحقيق الليلي هو في مصلحة النيابة لأنهم يتقاضون أجوراً اضافية ضخمة . . حاصرنا المخبرون من كل جانب وبدت صفاقتهم واضحة . . وحدثت مشادات كلامية حادة وكاد أحد الطلاب أن يصطدم مع المخبر لولا أنه مقيد . . ولكن المخبر بدا في النهاية تعيساً جداً وشرع يدافع عن نفسه . . لست مسؤولاً عن شيء . . لقد قال لي الضابط حتى لو طلبوا ماء للشرب لا تعطيهم لأنهم كفرة . . هكذا اذن . . دخل نقيب المحامين أحمد الخواجة وبعد قليل جاء كل من الدكتور يحيى الجمل وعبد الله الزغبي من حزب التجمع طلبا إلى النيابة أن تفك قيودنا . . لم يأت حسين في الدفعة التالية كانت السيارة التي أقلتنا قد عادت إلى السجن لتحضر مجموعة أخرى ولم يكن بينها . . يساورني القلق وأخذت أترقب واستغرقت كلية في الترقب . . إلى أن سمعت من ينادي اسمي دخلت إلى غرفة التحقيق . . كان المحقق مهذباً للغاية ، وجه الي تهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي المصري ، . . وقال أيضاً أنني أحضى على ازدراء الحكم وكراهيته وطلب إلي أن أسجل اذا ما كانت لي أقوال فقلت ان التحقيق يحرمني الضمانات القانونية الطبيعية وأهمها حقي في حضور محام اتسمت ملامحه بالعصبية . لم أكن قد عرفت بعد أن الاستاذين زكي مراد ونبيل الهلالي قد رفضا الاستمرار في التحقيق بعد أن تنقضي أيام الحبس الأربعة الأولى على ذمة التحقيق ودفعا بالسقوط الضروري لحالة الطوارىء بعد توقيع اتفاقية الصلح بين حكومتي مصر واسرائيل . . كانت النيابة تستشعر الموقف الحرج الذي وضعت فيه . . وكان نقيب المحامين قد أخذ في القيام بدور الوسيط بين المتهمين من المحامين وبين رجال النيابة . . انتهت جلسة التحقيق الأولى معي على وجه السرعة . . وخرجت الى القاعة التي تكدس فيها زملائي . . .

حاصرني المخبرون ومنعوا تبادل أي كلمات بيني وبين الزملاء . جاء فوج جديد من السجن . . ومرة أخرى لم يكن حسين بينهم . أخذت أسأل بقلق . . عرفت في ذلك الحين أن عدد المقبوض عليهم تجاوز الخمسين . . لم يأت حسين . . نزلنا لنستقل السيارة التي سوف تحملنا من جديد إلى القلعة تجاوزت الساعة الرابعة صباحاً وجدت الفتاتين قلقتين لتأخري . . اكلنا طعام السحور ولم ننم . في حوالي السادسة صباحاً سمعت اسم حسين عرفت أنهم يذهبون بآخر مجموعة الى النيابة شعرت بالاطمئنان قليلاً . لا أدري لماذا خطر لي أن هناك من يتعرض للتعذيب . ففي لحظة بين النوم واليقظة ارتفع صوت الراديو مشوشاً للغاية وبدت الأصوات الغامضة كأنها لبشر يتعرضون للتعذيب . . تمركزت كل حواسي في أذني وانجذبت روحي إلى مصدر الصوت . . في هذه اللحظة لم يكن حسين هو الذي يشغلني وانما الجميع . . عندما تأملت الأمر بيني وبين نفسي

شعرت بالفرح الحقيقي . . لقد اتسع عالمي الفعلي بحق . . لم تعد أفكاري تقف في جانب منه مجردة وباردة وبعيدة عن الوجود الحي لأناس أعرفهم وأحبهم وأعمل معهم في حزب التجمع . اختلف واتفق . . أعرف الفضائل والنقائص وأحبها جميعاً . . ولا أنكر أنني كنت في هذه اللحظة أتمنى أن لا يكون حسين واحداً من الذين استهدفهم التعذيب البدني . . أخذت أدق الحائط الذي يفصلنا عن رفعت السعيد . . لعله نائم . . ذلك المناضل الخبير بكل ألوان العذاب والحبس الانفرادي والنوم على الأرض الذي أورثه عدداً من الأمراض استعصي علاجها . . لم يرد انه نائم اشفقت عليه وعدلت عن المحاولة . . لم أتحدث مع هدى وفريال في الموضوع كنت أخشى عليهما . . كانت فريال مضطربة بالفعل أما هدى فتريد أن تجرب كل شيء . . كل خبرتها قراءة وفرجة . . أما فريال فانها تعرف جيداً معنى التعب والألم، تعرفه بشكل مادي مباشر وقد استقامت حياة أسرتها الكبيرة العدد الضئيلة الموارد على شعرة تدرك هي الآن انها لم تقطع فحسب وانما أحرقت كلية بالقبض عليها هي وأبيها . . قالت هدى دون أن أذكر شيئاً عن الخاطر الذي راودني حين سمعت الراديو . . متى يأتون لتعذيبنا؟ أريد أن أتعرف على ذلك وانتهي منه ثمة شوق للمعرفة . . لمعرفة كل شيء بصورة حسية مباشرة . . فريال تكتفي بما عرفته ولا تريد المزيد . . تعرف الكثير عن التعاسة وقد تعلمت الحذر . . استجاباتها مكونة ومشكلة مسبقاً من الخبرة العميقة . . بالسن هذه الفتاة في الثانية والعشرين تعمل بدأب عشر ساعات في اليوم وها هو انحراف غير متوقع لمسار حياتها الشقي يحملها أعباء جديدة . . انها مطالبة الآن بالدفاع عن نفسها وعن خطيبها أمام أسرتها . . فماذا لو عذبوها . . أخذت أحدثهن عن التعذيب، عن القصص التي سمعتها من الأصدقاء والروايات التي قرأتها، تحدثت هدى التي كانت تعشق النوم على البلاط عن تجربة أبيها الذي قضى في المعتقل خمس سنوات بدءاً من عام ٥٩ . . ثم غفونا جميعاً ولم نستيقظ إلا في بداية الضحى وحين أفقنا اتصل الحديث كأنه لم ينقطع أبداً وكأننا لم ننم . . جاء الضابط قال لنا أخرجن من الغرفة لتنظيفها . . كانت تلك فرصة طيبة لنرى النهار الجديد بصورة أفضل وقفنا ثلاثتنا على باب الزنزانة كان رفعت السعيد يقف هو الآخر على باب زنزانته رقم (١) تبادلنا التحية . . كان وزنه قد نقص عن آخر مرة رأيته فيها . . حاولنا الحصول على الجرائد ولم ننجح . . تكدسنا مرة أخرى في الزنزانة كانت الحرارة عالية والرطوبة خانقة والنهار لا يريد أن يرحل رغم كل الحكايات التي حكيناها . . فجأة ضحكت بصوت عال فضحكت كل من هدى وفريال . . كنت قد تذكرت الصديق طارق البشري ونحن في جمصة حيث كنا نقضي الصيف بصحبة مجموعة من الأصدقاء . . كنا حين ندعوه للسباحة أو للعب الكرة أو الطاولة يعتذر قائلاً انه جاء هنا «يتلقح»، وهذا هو أحد تعبيرات العامية المصرية التي تعني الكسل الكامل . . كانت

القلعة مكاناً مناسباً جداً ليمارس من يشاء هواية التكاسل المطلق. . كل الحواديت تنتهي بسرعة ولا نعرف شيئاً عن العالم الخارجي والنهار طويل للغاية. . شرعنا في وضع برنامج للتثقيف وأخذت هدى تحكي بحماس حقيقي قصة فيلم «الغجر السعداء». . لم أكن قد شاهدته لا أنا ولا فريال. . هدى من حيث لا تدري تركز على صورة التكامل الانساني والأخلاقي لبطلة الفيلم التي تعيش تمزقاً عنيفاً بين ولائها للغجر. . لأهلها، وحبها لرجل ينتمي لعالم يختلف. . هدى أيضاً تتحدث بحرارة عن معنى الحرية وكيف تفهمها هي. . عيناها لامعتان وخيالها متدفق، تعينها أحداث الفيلم على اكتشاف أحلام تخصها هي. . كانت فريال منتبهة جداً تتوقف أسئلتها دائماً عند علاقة الفتاة الجميلة بأهلها. . انتهت الحكاية وأخذت فريال تدق على الحائط الآخر الذي يفصلنا عن زنزانة تحت الأرض كنا نعرف أن عدداً كبيراً من الزملاء قد تكدس فيها. . تلقينا رداً وفرحنا كالأطفال. . كانت هي الفتاة التي لا تفارقها صورة أبيها واخوتها تكتشف علاقات جديدة وعالماً جديداً. . أخذت تتمايل على ايقاع الدقات القادمة من الزنزانة الأرضية ثم أخذت تغني ودخلت في حالة ابتهاج عام ورقصت دون أن تدري وتنوعت الايقاعات الشعبية التي اختارتها لتوصل صوتنا للزملاء الآخرين. . . وكنا كلما ساد الصمت وانقطع الحديث ندعو فريال إلى وصل الحديث الايقاعي الذي توقف مع زملاء لا نعرف من هم.

التعرف على الجيران في الزنازين المختلفة أمر صعب في البداية. . لكن مع مرور الوقت استطعنا أن نكتشف الوسائل عرفت أن حسين في الزنزانة ٢٣ وان معه ثلاثة آخرون. . كانت الأدوية المشتركة التي تعالج الكليتين والتي نتناولها كلينا تقدم لنا في مواعيد محددة لأنهم يمنعون عنا الاحتفاظ بالأدوية. . كانت علب الدواء رسائل صامتة بيننا. . وكانت الأغنيات رسائل أخرى ولأن السجن لم يكن يضم نساء غيرنا فمن المؤكد أن حسين سوف يميز صوتنا ويعرف اننا بخير. . في الزنزانة المواجهة لنا كان يقيم زكي مراد وكنا قد اتفقنا ان ندخل في الاضراب العام الذي تقرر احتجاجاً على ابقائنا في سجن القلعة واغلاق الباب علينا طيلة الأربع والعشرين ساعة. . ولم نكن نعرف موعد البدء بالضبط وفي طريقي إلى دورة المياه وجدت باب زنزانته مفتوحاً فاتجهت إليه بسرعة خاطفة فاجأت الحارس الذي صحبني وأبلغته بنفس السرعة اننا ثلاثة وسوف نشارك في الاضراب. . المضحك في الأمر أن مأمور السجن الذي يعرف جيداً أن الباب مغلق علينا بصفة دائمة هددني باغلاقه. . وبعد قليل استدعوا أحد السجناء الفلسطينيين المتهمين بالعمل في احدى المنظمات الفدائية ولأن غرفة المأمور مواجهة لنا كنا نسمع الكثير من الأسئلة التي وجهت إليه حول علاقاته في الخارج والداخل أدهشتني بساطته الغلابة وبدا لي عديم الخبرة بالأمور السياسية المباشرة. . قلت لنفسي ربما كان العمل الفدائي يستدعي في بعض الأحيان بناء نفسياً خاصاً

يشابه ذلك البناء النفسي للاعبي السيرك أو كرة القدم . . في ذلك المساء نفسه استدعيت للتحقيق من جديد وكان الاستاذ نبيل الهلالي ينتظر في مدخل السجن . . فتشه الضابط تفتيشاً ذاتياً دقيقاً ولم يكن ضابط السجن ينوي وضع القيود في يديه إلا أن أحد الضباط المباحث الذي جاء ليشرف على ترحيلنا قال له بصلافة لا ، لا بد أن توضع القيود في يديه وهنا لاحت نظرة العداء المكتوم تجاه المباحث العامة التي رد بها ضابط السجن عليه، لكنه لم يستطع أن يلغي الأمر فوضعت القيود في أيدي المناضل الكبير الذي استدار قائلاً ان هذا شرف لي ، فوجدتني أقول انه شرف لي أيضاً أن أكون متهمة في قضيتك وان تشدني نفس القيود اليك . . ساد الصمت قليلاً . . إلى أن أتوا بشاب لا أعرفه استطال شعره وثمت ذقنه، يدخن بعصبية وضعوا القيود في يديه كذلك، وأقلتنا السيارة نحن والحراس ولحقتنا سيارة المباحث العامة في الطريق عرفت أن الوافد الجديد هو سمير مأمون خطيب فريال . وكان الضابط الشاب الذي لا أعرف اسمه فرحاً جداً وبدا أنه ينتظر ترقية أو مكافأة .

. . وصلنا إلى مبنى النيابة كان الوقت متأخراً فوجدت شقيقتي أمينة وزوجها صلاح عيسى وفاطمة زكي زوجة الاستاذ نبيل الهلالي ومحمود حامد زميلنا في حزب التجمع في انتظارنا على السلم . . كان رئيس النيابة رجائي العربي قد منعهم من الدخول . . كما منع المحامين كذلك بحجة سرية التحقيق . تحدثت إلى أميتة بصورة تلغرافية، فريال طالبة وعليها أن تعد نفسها لدخول امتحان «الملحق» خلال شهر وتحتاج إلى الكتب وشهادة الميلاد . . بلغتها كذلك بقرار الاضراب الذي سوف نبدأه منذ الغد جميعاً . . كان ضابط المباحث مستفزاً للغاية ولاحق خطواتي بصورة مزعجة حتى اضطررت إلى دفعه بهدوء . . بدأ التحقيق الذي استمر حتى ساعة متأخرة من الليل حيث جرى استكتابي ستة عشرة مرة لدرجة أنني شعرت بالارهاق الشديد وخطر لي أن أطلب من رئيس النيابة عبد المجيد محمود أن نؤجل بقية الاستكتابات إلى يوم آخر . . كان الملل قد بدأ يتسلل إلى حالتنا العامة . . وحينئذ دخل الدكتورين الجمل وعبد الله الزغبي بلغتهما بقرار الاضراب وبرغبتي في أن يبقى أولادنا في المصيف، وفي هذه الأثناء كتبت رسالة إلى المحامي العام أحتج على حبسي أنا وزميلتي في سجن للرجال وعلى منع المحامين من حضور جلسات التحقيق وحظر ادخال الكتب والجرائد والاذاعات لنا، كان العيد يقترب وكنا نخشى عدم تمكن النيابة من الحضور وبذلك يستمر الاضراب إلى ما بعد عيد الفطر، ونحن لا نعرف قدرة الاحتمال لدى الجميع ولا نريد للاضراب أن يفشل، كان الاستاذ نبيل الهلالي قد بدأ بالفعل منذ الصباح اضرابه عن الطعام وأبلغ ادارة السجن ثم النيابة بعد ذلك أنه سوف يستمر في الاضراب إلى أن تجاب مطالب كل الناس . . هذا هو نبيل الهلالي المقدام الشجاع القدوة أبداً . . يناضل ويضحي بصبر

وتواضع وثبات باسل . . في طريق العودة إلى السجن عرفت انه قد جرى استكتابه أيضاً، وان سمير مأمون الذي ألقوا القبض عليه في الأقصر حيث كان يزور أسرته قد وجهت اليه تهمة العمل في الجهاز الفني للحزب الشيوعي المصري، نفس التهمة التي وجهت لفريال . . في الطريق كانت المدينة قد أوشكت على الانتهاء من سحور هذه الليلة الرمضانية . . في الطريق سمعنا مدفع الامساك عالياً وقريباً جداً لأنهم يطلقونه من القلعة . . ها هي تغفو رغم أنها ما زالت مضاءة ومبهجة . . . هل تعرف شيئاً عنا . . هل كتبت الجرائد كعادتها اننا عملاء ومخربون وخونة . لا أدري . . . .وصلنا إلى السجن جرى تفتيشنا من جديد كانت أمينة قد أحضرت بعض الاحتياجات العاجلة . . أكواب بلاستيك ومطهرات وورق تواليت . . الخ جرى تفتيشها بدقة . . صادروا الكبريت الذي حمله سمير والكولونيا التي كانت معي ولا أعرف إذا ما كان الهدف هو منعنا من شربها أم لأنها معبأة في زجاجة . . بعد وصولنا بدقائق كان سمير مأمون قد تسلق شباك زنزانته معلناً عن مشاركتنا نحن الثلاثة فريال وهدى وأنا مع الاستاذ نبيل الهلالي في الاضراب . . في ذلك الحين كانت ادارة السجن تجري مفاوضات مع الزنازين المختلفة حول ضرورة فتح الباب من ناحية والغاء الحبس الانفرادي بالنسبة للزملاء المحبوسين انفرادياً من ناحية أخرى . . كنت أتصور أن فريال سوف تشعر بالاكتئاب لأنهم جاءوا بخطيبها ولكن فوجئت انها شعرت بالاطمئنان . . كانت تؤنب نفسها من قبل لأنها في زحمة تفتيش منزلها قد أعطتهم عنوانه في الأقصر . . والآن ها هو قد أتى ولم يعد هنالك ما يقلقها في العالم الخارجي سوى مصير اخوتها . . تخلصت من ذلك القلق الغامض حول وضع خطيبها . . وأخذت تدخل في ترتيبات الحياة داخل السجن حيث التفصيلات حول امكانية دخول الكتب وبرنامجها للمذاكرة وترتيبات دخول الامتحان . . ومصاعب الاضراب عن الطعام .

في الصباح دق التومرجي بابنا لكي يعطيني الدواء وقال سوف ينقلونكن- قلت لصديقتي ان الاضراب ومعرفة الخارج به ورسالة المحامي العام قد فعلت مفعولها، أخذنا نعد أشياءنا على وجه السرعة . . . كان أول خاطر أقلقني هو الوحدة المطبقة التي سوف يجد رفعت السعيد نفسه فيها . . . كنا نتبادل الاشعار والأغاني والأحاديث عبر الطاقات الضيقة التي تفصلنا عنه . . . كنا نشعر بالأمن لقربه الشديد منا نحن العديمي التجربة وهو في وحدته يشعر بالدفء ويأتنس بنا . . . أخذنا نغني ونحن نعد أشياءنا وكان صوتنا عالياً جداً حتى يصل إلى كل الزملاء نحييكم نحييكم نشد على أياديكم . . . ثم تسلقت هدى النافذة العالية التي اعتادت تسلقها كلما قررنا ابلاغ خبر ما لزملائنا وصاحت بأعلى صوتها ان زنزانة رقم ٢ سوف ترحل إلى سجن القناطر . . . . كذلك قمنا بتكليف أحد عساكر الحراسة الطيبي القلب والذي تعاون معنا طيلة الوقت بابلاغهم بأمر

ترحيلنا، وجاء إلينا حاملاً رسالة: انهم منقولون كذلك جميعاً. واتضح لنا فيما بعد انهم نقلوا إلى سجن طره بينما بقي عدد منهم من بينهم رفعت السعيد ونبيل الهلالي وزكي مراد ومحمد علي عامر وظل حبسهم انفرادياً إلى أن أفرجت النيابة عن رفعت السعيد بينما واصل كل من زكي مراد ونبيل الهلالي.

قبل أن نغادر باب زنزانتنا تبادلنا التحية الحارة مع رفعت السعيد وفي طريقنا إلى السيارة حيث أحاطت بنا مشاعر التضامن والمودة الصامتة من قبل عساكر الحراسة الفقراء وبعض ضباط السجن... أخذنا نغني «يتجمعوا العشاق في سجن القلعة يتجمعوا العشاق في باب الخلق»... فتشت فيما بعد في ذاكرتي عن كل الأغنيات الثورية التي أحفظها.. غنينا طويلاً حتى تعبنا... في الطريق حيانا بحرارة شاب رسم علامة النصر في الهواء، كان بيان النائب العام حول قضيتنا قد صدر ولا بد أنه قرأه واستنتج من شكل الحراسة وهيئتنا عامة أننا متهمات في قضية سياسية... ها هو خيط صغير غير مرئي يربطنا بالعالم الذي يبدو انه لا مبال وصامت... قلت لنفسي هذا شعب غريب الطباع لا يستطيع أحد أبداً أن يتنبأ باستجاباته انتفض من أسوان جنوباً إلى الاسكندرية شمالاً يومين متتاليين حين رفعت الحكومة أسعاراً المواد الأساسية في يناير ٧٧ ولكن القضايا السياسية المباشرة لا تحركه بنفس القوة والشمول... هذا قصور فينا لسنا بعد قادته... استغرقت في التأمل بعد أن تعبت من الغناء إلى أن نبهني السائق العجوز: نحن على أبواب سجن القناطر يا ابنتي ونحن أيضاً على أبواب العيد ولن تجدي في اليومين شيئاً يؤكل أو يشترى فهات اشتري لك بعض المعلبات والخبز الجاف... كان ودوداً وطيباً للغاية، حين دخلنا سجن القناطر اكتشفنا انه انقذنا بالفعل.. فالسجينة تتلقى «التعيين بعد يومين من تسجيلها، واجازة العيد سوف تعطلنا خمسة أيام اضافية على الأقل ولن نجد حتى الخبز... استقبلتنا على الباب سجانة سمينة متجهمة لها وجه صارم لا تبتسم أبداً، جاءت مفتشة شابة متسائلة حين رأتنا هل هذا إيراد؟.. ضحكنا جداً للنكتة ثم قالت: إن اسمك منشور اليوم في الجريدة... قلت ان أسمي كان ينشر منذ عشر سنوات على الأقل.

فتشتنا بدقة ووضعنا ما نحمله من أموال في الأمانات... صادرت المفتشة الكتب والأوراق ولأول مرة سلموا لنا الراديو ففرحنا لأننا أخيراً سوف نتلقى الأنباء بانتظام... على باب العنبر الذي خصصت فيه زنازين للجرائم السياسية استقبلتنا سجانة أخرى لا تقل سمنة ولكن لها وجه اجرامي تتحلى بذهب كثير جداً وتقف في حالة استعداد للشجار، تلقي بالألفاظ البذيئة كيفما اتفق، وكنا بسذاجة بالغة قد وضعنا كل ما نملكه من أموال في الأمانات وشعرنا باحتياج شديد للشاي فجمعنا ما تبقى لدينا من قروش تناثرت هنا وهناك وقلنا لها نريد شاياً... ألقت علينا

درساً مطولاً حول الأسعار في السجن ثم تساءلت ألم تحضرن أموالاً قلنا لقد وضعناها جميعاً في الأمانات فأتت صوتاً بذيئاً وانصرفت وجلسنا ننتظر الشاي ولكنها لم تأت أبداً.

في الصباح قامت هدى تستكشف السجن... لها مقدرة خاصة على التعرف بسرعة على الناس وتبادل الأحاديث والمودة معهم ذهبت أنا وفريال إلى المكتبة في محاولة للحصول على بعض الكتب الدراسية التي يمكن استثمارها في اجازة الأعياد حتى تصل كتبها وحينئذ وقع أول اشتباك كلامي مع مشرفة تدعى «ماري» أصيبت بالذعر حين وجدتنا واقفات بالقرب من بوابة السجن... نحن سجينات احتياطياً أي تحت التحقيق ولا يجوز للسجن أن يلبسنا ملابسه ومن ثم يصبح سهلاً أن نتسلل مع الزوار إلى الخارج... عدنا إلى زنزانتنا.. مضينا يوماً مملاً وفي الصباح التالي استدعيت فريال للتحقيق من جديد... في النيابة التقت فريال لأول مرة بخطيبها وعادت لتقول انه كان جميلاً جداً بعد أن حلقوا له شعره... عرفت أسماء أعداد جديدة من المتهمين... «ماجد الصاوي» الذي كانت خطيبته «أميرة» تبحث عنه في كل السجون ولا تعرف أين هو «عبده جبير» وزوجته «جين» التي لا تعرف العربية ولا تستطيع أن تتفاهم مع النيابة، والتقت للمرة الأولى «بزكي مراد» الذي يثير وجوده ذعر المباحث لأنه يسلك بشموخ وحزم على حد تعبيرها... سألوها إذا ما كانت عضواً في الحزب الشيوعي... فقالت ان المكتب الذي كانت تعمل به وهو لمقاول كبير قد ملأ باسمها استمارة عضوية في الحزب الوطني الديمقراطي وخصموا من راتبها الصغير ستين قرشاً ليدفعوا الاشتراك وهي تحتفظ بحقها في أن يدافع أحد محامي الحزب عنها... ضحك المحقق وانتهى التحقيق...

في العاشرة مساء جاءت سجانات ثلاث بصحبة ضابط اصطحبوه من سجن الرجال... هدى مطلوبة لاستكمال التحقيق... كان اليوم وقفة عيد الفطر... وفي صباح العيد... قلنا لها... شاهدي لنا القاهرة وهي تستعد للعيد... خرجت هدى وتعرضت للتفتيش الدقيق... وحين حاول الضابط الذي اصطحبها ان يستفزها قائلاً: لعل هذه التجربة تجعلك تعودين إلى رشدك وتتفرغين للدراسة.. سألته بحمية كم فتاة حبست في عهدك هنا في قضايا السياسة قال لها كثيرات... سألت كم واحدة أدانها القضاء... فقال ولا واحدة... قالت: إذن أنت تقر بأن الحكومة تصفي حسابها مع العناصر النشطة التي تحترم رأيها وتدافع عنه... ركب في السيارة التي أقلتها ضابط مباحث وكانت تعرف أن ذلك غير قانوني ولا مسموح به ولكن يبدو أن رجال البوليس السري يتحينون الفرص لتخويف المسجونين السياسيين خاصة اذا ـ كانوا صغار السن

وعديمي الخبرة. . . ارتبك الضابط الذي كان يحرسها واضطر أن يكذب قائلاً: إن هذا ليس ضابط مباحث ولكنها أكدت بثقة أنه ضابط مباحث وهي تعرف ذلك. . . .

في التحقيق عرضوا عليها تحريات المباحث العامة أن الحزب الشيوعي يستأجر شقةً ليعد فيها دورات دراسية لأعضائه وان الأجيال القديمة تربي أجيالاً أخرى وأخيراً انك عضو بالحزب. . في النيابة التقت هدى بأبيها وشقيقها الوحيد مصادفة. . قالت شعرت أن أبي الشاعر توفيق خليل فخور بي. . . كان في الصباح قد التقى بفريال يبدو انه يذهب إلى النيابة كل يوم على أمل أن يلتقي بابنته. . . قال لفريال بلغي تحياتي لها. . قولي لها أن تكون جديرة بتهمتها وان لا تتنصل من قناعاتها تحت أي ظرف اذا كانت لها قناعات. . هذا الشاعر مناضل من مناضلي الأربعينات الذي يعرفه أصدقاءه باسم توفيق الشاعر. . . يشعر بأن آماله تحيا من جديد. . ان عالمه الذي كاد أن يندثر أو يتبدد في الجزئيات قد أخذ يلتئم مرة أخرى في صورة ابنته. . أي فرح. . كان يبالغ في الإغداق على هدى ويبذل محاولات مضنية لرؤيتها وزيارتها خارج الامكانيات الرسمية رغم انهما لم يكونا على وفاق قبل أن تسجن. . . حين عادت في ساعة متأخرة من الليل فرحة ومضطربة قليلاً لأنها التقت بأبيها وشقيقها ولم تجد أمها المريضة قالت: ان الطريق الذي تشاهده لأول مرة في الليل جميل جداً وان القاهرة تستعد للعيد وقالت أيضاً لي أن المباحث العامة قد فتحت منزلنا في غيابنا وأرغمت البواب على اصطحابها حين لم يجدوا أحد بينما كنا نحن في مصيفنا وان شقيقتي أمينة قدمت بلاغاً للقسم وتطلب إلي أن أسجل ذلك في التحقيق حيرني الأمر طويلاً لأنهم حين استبقوني في مقر المباحث واصطحبوا حسين إلى منزلنا لإجراء التفتيش ثم عادوا به لم يذكر لي شيئاً عن ذلك. . . لعله لم يعرف. . . انهم على أي حال لن يبلغوه. . .

جاء يوم العيد. . . في الصباح شعرت بحزن غامر كنا قد وعدنا رشا وجاسر أن نقضي هذا اليوم في مصيف آخر قريب لم نره من قبل. . . لن يشاهدوا «رأس البر» إذن. . نبهتني فريال في الصباح الى حزني الواضح. . . . أفقت قليلاً وكما اتفقنا ثلاثتنا لبسنا ملابس زاهية وتجولنا بين المتسولات والسارقات والداعرات لنتبادل معهن التهاني. . . هنالك امرأة سودانية عجوز تجاوزت السبعين كلما أفرج عنها عادت بتهمة التسول من جديد كلفتها ادارة السجن هذا الصباح أن تعطينا «كعك» العيد. . . وتهنئتنا باسم مأمور السجن الذي لم نعرف شكله حتى ذلك الحين. . . ابتسمت لنا ولمعت أسنانها وعيونها ولأول مرة سألتني عن أطفالي. . . أما هي فلها أحفاد كثيرون لا تستطيع أن تحصي عددهم. . . تفضل أن تموت في السجن ثم استدركت: ولكن ليس في يوم العيد. . «حداقة». . . هذا هو اسمها انقطعت صلتنا- المقطوعة أصلاً- بالعالم الخارجي تماماً في أيام العيد الثلاثة حيث لا يتوقع أحد زيارة أو جرائد. . . علينا إذن بالاذاعات كانت أخبارنا

متصلة في معظم الاذاعات العربية والأجنبية الموجهة للعرب . . . عرفنا أن نبيل الهلالي وزكي مراد ورفعت السعيد ومحمد علي عامر ما زالوا محبوسين انفرادياً وان الاضراب عن الطعام مستمر وشعرنابالقلق لأن حالة نبيل الهلالي الصحية سيئة . .

بعد العيد بأيام قليلة زارتني شقيقتي أمينة وابنتي رشا بصحبة توفيق الشاعر وأم هدى وجاءونا بكتب فريال . . . بدت رشا غريبة كنت أحلم أنها مريضة أو متعبة . . . كان القلق من أجلها هي وجاسر يتشكل في صور مختلفة . . . لكنها جاءت تفيض حيوية وثقة . . . أمينة هي المتعبة قامت لتوها من فراش المرض كما علمت فيما بعد . . . هي أقرب الأصدقاء والاخوة والصديقات الى الأطفال . . . أسفت لأنني أحيل كل همومي الخاصة بالأولاد اليها . . . وشعرت بعمق الرابطة التي تشدني إليها . . . وفي اللحظة العابرة التي انفتحت فيها بوابة السجن عرضاً وكانت شاهقة الى الداخل تخيلتها وهي تزحف في قريتنا «ميت سمنود» طفلة لم تتجاوز الشهور العشرة حية لها عينان لامعتان . . . وكان علي أن أرعاها بتكليف مشدد من أمي التي مرضت بعد ذلك بسنوات وماتت بآثار البلهارسيا لتتركهم لي . . . كل أخوتي الصغار . . . . . كانت دائماً تخشى على أمينة لأنها البنت الوحيدة بينهم . . . أما أنا فكنت قد كبرت ووضعت ثقة لا تحد في أمينة الآن . . . ومنذ زمن بعيد تحمل أيضاً هموماً كثيرة هموم الوطن واخوتها والآن عليها أن ترعاني في الظروف الجديدة، كانت الزيارة قصيرة للغاية . . . هاجمتني المخاوف من جديد لأن جاسر لم يكن معها لكنه كتب لي رسالة جميلة وساذجة . . . قال انه يفتقدني جداً ويود بحرارة أن تعود «أيام زمان» حيث كنا نتبادل الحواديت ونصغي لبعضنا البعض، سألتها اذا ما كان مريضاً . . . فأكدوا لي أنه بخير . . . حضرت «فريال» الزيارة فيما بعد قالت لنا انهم أيضاً أهلها . . . لم تكن احدانا قد ذكرت شيئاً عن الموضوع أو التفت لأن أحداً من أسرة فريال لم يحضر الزيارة . . . ثم عادت وسألتني عن جاسر انها لكثرة احاديثي عنه كانت تتمنى أن تراه . . . مرة اخرى هاجمتني صورته وهو يبكي . . . كان ذلك في غرفة الزيارة بسجن الاستئناف عام ١٩٧٧ . . . كنا نزور حسين الذي ظل محبوساً في هذا السجن حتى آخر ابريل الى أن انتقل الى سجن «أبي زعبل» . . . . كانت قوة من البوليس قد جاءت الى السجن لتصحب الشاعر أحمد فؤاد نجم الى مستشفى القصر العيني كان نزيف معدته قد عاوده بشدة . . وهو صديق حميم «لجاسر» وتحدثا معاً طويلاً ، وحين أزف موعد رحيل «نجم» الى المستشفى تقدم الشرطي وأخذ يضع القيود في يديه حينئذ ودون انذار «انفجر» جاسر في البكاء وكان علينا أن نخرج نحن أيضاً بعد أن انتهى موعد زيارتنا خرجنا ولم أتحدث إليه إلى أن كف من نفسه عن البكاء ولم نتحدث في الموضوع أبداً . . . كان السجن أخيراً يتجسد بصورته القبيحة في وجدان

الولد الصغير. . . وقد شعرت بارتياح لأنها هي المرة الأولى التي يبكي فيها بحرقة منذ سجن أبيه. . . وكانت المرة الثانية حين توفي جده. . . بينما أبوه في السجن ولم نكن ندري كيف نخبره بالأمر. اطمأن قلبي لرسالته الصغيرة الجميلة ولوعود رشا الصارمة بأنها سوف ترعاه وتهتم به جداً. . .

في الثالث من سبتمبر استدعيت مرة ثالثة للتحقيق. . . . وفي مقر النيابة التقيت بحسين. . . كان فرحاً يفوق طاقتي حتى وجدتني عاجزة عن التعبير. كان المحقق يريد أن يجري مواجهة بيننا حول بعض الأوراق والمطبوعات التي يقولون انهم وجدوها في بيتنا. . .

غمرتني الدهشة. . . ولكن الفزع غلبني. . عرفت أننا سوف نمثل أمام المحكمة يوم ٩ سبتمبر مع ما يقرب من عشرين من زملائنا وان الباقين سيقدمون يوم ٨ سبتمبر. . . حاولت أن أجمع أكبر قدر من المعلومات عن المحاكمة والمحامين قبل أن أعود إلى السجن كان ذلك هو آخر تحقيق معي. . . ومعنا كلينا ولم يكن ينطوي على أي جدة. . . في مقر النيابة وقبل أن نرحل الى السجن كانت أمينة قد نجحت في الاتصال برشا وجاسر فصحبتهم عمتهم إلى النيابة. . . ها قد اجتمع شملنا. . . فرحنا كأن شيئاً لم يحدث شعرت براحة غامرة لأن جاسر بخير ولأنه أتى. . . قال لي معتذراً. . . لم أزورك في السجن لأنني لم أحب أن آتي ولا أراك. . وحين جاءت خالتي وأختي لم يكونا على ثقة اذا ما كان مسموحاً بالزيارة عن طريق السجن أم لا. . . ثم أخبرته عن ذلك الولد الجميل الذي ولد في السجن وأطلقت عليه أمه اسم محمد جاسر لأنني كنت أحكي لها عن ابني. . . تحدثنا عن كل شيء باستثناء توقعاتنا عن المحكمة. . . كان الدكتور عصمت سيف الدولة الكاتب والمحامي الذائع الصيت متفائلاً. . . سألني ضاحكاً اذا ما كنت أسمح له بالدفاع عني فأجبت ان ذلك يشرفني جداً. . . كان ضابط الحراسة الشاب الذي صحبني من السجن الى النيابة يشعر بالجزع الشديد لأنه يطلب إلي أن أترك زوجي وأولادي وأعود الى السجن. . . كان مهذباً طيب القلب شعبي المزاج عطوفاً سأله جاسر الذي اطمأن اليه. . . هل لسيارة البوليس التي تحمل ماما الى السجن «سارينا». . . فقال ضاحكاً نعم لأن «ماما» مهمة جداً.

ودعتهم على أن نلتقي في المحكمة. . . وفي السجن كانت هدى وفريال متلهفتان لسماع الأخبار. . . وكانت فريال القلقة لم توف حصتها من الدراسة لذلك اليوم في انتظاري. . . اتفقنا أن نغني في المساء قبل المحاضرة الليلية عن حركة التحرر الوطني.

قضينا الأيام الباقية في انتظار يوم المحكمة نعد العدة لامتحان فريال الذي يبدأ في الثامن من سبتمبر، لا بد أن تضمن موافقة النيابة وموافقة المباحث العامة وادارة السجن التي عليها أن تخطر

الترحيلات . . . وأشد ما كنا نخشاه في ذلك الحين أن تعطلها الإجراءات البيروقراطية وتمنعها من دخول الامتحان كانت تدرس بحمية تساوي قلقها. هي طالبة في السنة الثانية الثانوي. . . تريد أن تدرس من جديد لتلتحق بالجامعة وتتخلص من العمل الروتيني القاتل الذي تقوم به وهو السكرتارية. . .

حدث ما كنا نخشاه تماماً وجاءت السيارة صباح الثامن من سبتمبر متأخرة جداً عن الموعد المحدد ولكن فريال استطاعت أن تنجز الامتحان محاطة بعطف كبير من المدرسين والمراقبين والتلميذات وحين عادت كان بانتظارها خبر الافراج عنها وعن هدى. . . .

كانتا حزينتين لأنني سوف أبقى وحيدة. . . وكانتا فرحتين في نفس الوقت لأنهما سوف تساعدان في رعاية المسجونين الآخرين حين تخرجان إلى الحرية، وكانتا مشغولتين بتسجيل اسميهما وشعاراتهما على الحيطان قبل الرحيل وكانتا مشغولتين بي، سهرنا إلى وقت متأخر من الليل. . كنا نغني ونتبادل الاغنيات مع جاراتنا اللاتي احتفلن احتفالاً صاخباً وراقصاً بالافراج عن الفتاتين. آه لو أن البوليس السياسي سمع رأي المسجونات في السلطة لأعيدت محاكمة الجميع بتهم غير الدعارة والسرقة والقتل ولاصبحن بلا استثناء متهمات سياسيات. . . كنا نحاول أن نستبدل الشتائم البذيئة التي تطلق على رجال الحكومة بكلمات سياسية ونشرح لماذا. . . وكانت لهن دائماً قدرة على الاستيعاب. . . .

حبيبتي الغالية رشا

اخيرا حدث ما كنت دائما اخشاه وارهبه، ان تجدي نفسك انت وجاسر فجأة بدوني انا وبابا ولكننا محظوظون حقا لأنكما بين اصدقاء اعزاء ومسؤولين. . المهم يا رشا ان قلقي عليكم لم يشتد بل على العكس قل كثيرا لانني حين تأملت في الامر بعد رحلة من جمصة الى سجن القلعة مرورا بمباحث المنصورة ومباحث الجيزة وبيتنا الذي فتشوه انتهت في السادسة مساء- ادركت اننا كلينا انا وبابا لم نقصر في اعدادك لذلك اليوم الصعب واعترف يا حبيبتي انه صعب ولكنني اعرف ايضا انك مؤهلة له نفسيا وثقافيا وسياسيا كذلك. . هل تذكرين حين طلبت الي ان اكتب لك كلمة في الاتوجراف عشية توقيع معاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية وبدات كلمتي بتساؤل- لم اعد اطرحه الآن- هل يمكننا يا حبيبتي ان نختار الحياة في هدوء وان نسعى الى حل خاص بنا وان نكتفي بموقف الناس الشرفاء المتفرجين- وهم كثيرون. . انني لا اتصورك انت وجاسر سعيدين في وطن تعيس. . هانئين في قلب الشقاء العام ولا تلتفتان. . والان اقول لك نفس الشيء فهل تلومينني؟ انا اعرف مسبقا اجابتك واعرف انك جديرة بالموقف الذي اخترناه انا وابوك وسوف تدركين بسرعة- طال الوقت ام قصر- مسؤولياتك الفعلية تجاه نفسك واخيك وتجاهنا نحن وتجاه الوطن. الظروف الصعبة تعلمنا دائما ان نكون أكثر صلابة وثقة في انفسناوقدراتنا،وانا اثق فيك واعتز بهذه الثقة واجد انه من حقي ان ازهوبك. . بذكائك وحساسيتك وشجاعتك ولا احب ابدا ان اسمع انك كنت حزينة او مستسلمة للاحساس بالوحشة نتيجة للتغير المفاجيء والقاس في كل برامج حياتنا هذا الشهر على الاقل.

سوف احكي لك كيف وصلت الى هنا- سجن القناطر للنساء- الذي قضت فيه طنط ليلى الشال اربع سنوات متصلة دون ان تقدم للمحاكمة. بعد ان تركناكم في الصباح وكنت ادرك مدى اضطرابك الذي اصابني انا بالاضطراب ايضا ذهبنا الى المباحث العامة في المنصورة ومكثنا حوالي

ساعة ونصف حتى دبروا سيارة ترحيلات اقلتنا الى مباحث الجيزة فوصلنا في الثانية بعد الظهر وهناك اصطحبوا بابا الى البيت للتفتيش ولبثوا هناك حوالي ساعتين، كانت القاهرة رطبة وحارة وكئيبة للغاية ونحن في طريقنا الى القلعة حين عرفنا اسم السجن الذي نحن مرحلون اليه ادركنا ان هناك حملة وطيلة الطريق كنا نقلب كافة الاحتمالات في القلعة تم تفتيشنا بدقة فجردنا من الاوراق والاقلام والكتب والراديو وزجاجات الكولونيا والادوية وودعنا بعضنا ولم نلتق منذ ذلك الحين حتى الان، اتجه بابا الى زنزانته وانا الى زنزانتي وحين فتح الباب فوجئت بوجود فتاتين هدى توفيق وفريال عطية نسيت ان اقول لك اننا عرفنا منذ دخولنا من باب القلعة ان السجن مكتظ وحين وجدت الفتاتين ادركت هذه الحقيقة اكثر فالزنزانة ضيقة وقذرة للغاية. . كانت هدى تقطع الغرفة جيئة وذهابا وهي تضحك وتتكلم وفريال جالسة في حالة اكتئاب وحين سالوني من اين اتيت قلت سوف اغيظكم لانني جئت رأساً من البلاج .تعارفنا .هدى طالبة في كلية التجارة وفريال موظفة في المجمع تناولنا فطورنا فاصوليا وارز ولحم مسلوق وكمثرى «شوفي العز» ثم خبطنا على حائط جارنا وكلمناه فإذا به رفعت السعيد ضحكت كثيرا وقلت له انني كنت في الطريق الى هنا اقول لنفسي ولحسين اننا نعتمد على رفعت ليطمئن الاولاد ويهتم بالقضية. .بعد قليل دقوا بابنا وقالوا لنا استعدوا للذهاب الى النيابة. . ولبسنا وانتظرنا حوالي الساعتين في اثنائها عرفت ان نبيل الهلالي يسكن في مواجهتنا وزكي مراد الى جواره وانهما محبوسان انفراديا ايضا وان محمد علي عامر العجوز الذي تجاوز السبعين موجود في السجن وانه ليست هناك نساء اخريات وفي الطريق الى النيابة وجدت ابو العز الحريري وشحاته عبد الحليم كانت السيارة التي تقلنا يا رشا تحمل اجيالا متعاقبة من المناضلين من محمد علي عامر ونبيل الهلالي وابو العز الحريري حتى هدى توفيق خليل التي لم تتجاوز العشرين عاما. . شعرت بالامتنان لان شعبنا لا يعقم ابدا ووجدت نفسي فخورة لانني انتمي الى هؤلاء المناضلين الذين لم يختر احدهم هدفا خاصا يكرس الحياة له بل اختاروا ان يعملوا من أجل تغيير وجه الحياة في بلادنا واختاروا ان يقفوا دائما الى جانب الكادحين وعلى راسهم لا يترددون في دفع أي ثمن. . والثمن هو دائما على حساب حياتهم الخاصة واستقرار اسرهم واولادهم. . اخذت احصي عدد السنوات التي قضاها هؤلاء المناضلون في السجون فوجدتها كثيرة جدا. رفعت السعيد قضى خمسة عشرة عاما ونبيل الهلالي ثمانية اعوام وزكي مراد اربعة عشرة عاما ومحمد علي عامر يخرج الى الحرية نادرا وذلك منذ الثلاثينات. . الخ ولكن ما من احدهم يشعر أن حياته ضاعت هباء. . . بل ان كل خطوة يقطعها نضال شعبنا في سبيل استقلاله وطبقاته الكادحة في سبيل القضاء على الاستغلال وتحرير الناس من قبضته الكريهة هم مشاركون فيها تحمل انفاسهم وبصامتهم وتؤكد ثقتهم في صحة الخط الذي انتهجوه وعظمة الطريق الذي

اختاروه ولم يحيدوا عنه ابدا.

سجن القلعة لا يخضع للوائح السجون وتديره المباحث العامة حيث تطبق فيه قوانين البلطجية. . . يغلقون الباب طيلة الوقت باستثناء، فترات الذهاب الى دورة المياه وربما نصف ساعة خلال اليوم- هذا اذا شاؤا وبينما تتكدس بعض الزنازين حيث يقيم فيها اربعة او خمسة من المناضلين حبسوا عددا منهم حبسا انفراديا «ولم يكن بابا بمفرده» ومن هنا نشأت ضرورة الاضراب عن الطعام الذي لا بد انك سمعت به والصورة ليست مع ذلك كئيبة- بل انها صدقيني- مليئة بالبهجة كنا نغني معظم الوقت اغنياتنا الثورية ونقرأ الأشعار التي حفظناها ونتبادل التحية عبر الحيطان والابواب الموصدة والشبابيك ونشعر ان سجاننا هو الاضعف وليس نحن رغم قوته الظاهرية وسطوته الشكلية. . ورغم ان ضابطا يملك ان يغلق علينا الباب طوال اليوم تنفيذا لاوامر سادته. . على فكرة غنينا الكثير من اغنيات الشيخ امام ونجم وخاصة «شيد قصورك» «ويتجمعوا العشاق» وفي الطريق الى النيابة غنيت انا «يا مصر قومي وشدي الحيل» وفي زنزانتنا شكلنا شطرنج جميل من لبابة الخبز وبدأنا في المباريات.

نقلنا الى سجن القناطر صباح اليوم وكانت هناك استعدادات لنقل بقية الزملاء الى سجن طرة «الذي يفضله بابا» وبالطبع لولا الاضراب لما نقلنا. سوف اكتب لك مرة اخرى رسالة عن سجن القناطر للنساء وعن شكل الحياة والعلاقات فيه. . المهم الان يا حبيبتي ارجو ان تقضي انت وجاسر عيدا سعيدا صحيح سوف تفتقدوننا ولكن تأكدي اننا سوف نسعد سعادة حقيقية حين يبلغنا انكم استمتعتم ببقية الاجازة كما ينبغي- احيانا يا رشا يداخلنا شعور بالذنب لاننا نقضي اوقاتا طيبة واحباؤنا ليسوا معنا وقد جربت انا ذلك كثيرا ولكنني اكتشفت الخطأ بل والانانية فيه لماذا؟ لاننا حين ننال حقنا المشروع في الراحة والبهجة نكون بالقطع اناسا افضل واقدر على مواصلة مهامنا واكثر صحة من الناحية الجسدية والنفسية. . اننا نهزم أعداءنا حين نكون قادرين على السعادة مقدرة حقيقية داخلية في الاصل ونابعة من قوانا الروحية العظيمة وذلك يتحقق بالارادة الفعلية وباختياره عن عمد. . وتأكدي ان الذين القوا القبض علينا تملؤهم السعادة حين تبلغهم اخبار فشلنا في أي شيء. . حتى في قضاء اجازة طيبة. . انا اعرف انه من الصعب عليك ان تتصوري الحياة المستقرة المنتجة المليئة بالمباهج بدوننا وخاصة واننا مسجونين ولكن فكري بالامر بهذه الطريقة سوف يكون امي وابي سعيدين اذا كنا نحن سعداء واصحاء واذا سارت حياتنا بشكل منظم ومثمر. . هكذا نكون انتصرنا حقا يا رشا في هذه المعركة العابرة. . معركة تأقلم عواطفنا مع واقع يريدون هم ان يفرضوه علينا مشتتا وبائسا اما نحن الاذكياء الحساسون المدركون لقضيتنا الحقيقية ولجوهر ما يدافع عنه اهلنا فسوف نحوله الى واقع منظم مفعم بالبهجة وتذكري

دائما يا حبيبتي ذلك البيت من شعر ناظم حكمت الذي يحبه بابا كثيرا «ان اجمل الايام، هي تلك التي لم تأت بعد» فسوف نخرج حتما ونسعد بكم وتسعدون بنا..

من ناحيتي افضل جدا ان تعودوا الى بيت طنط اميمة فأمينة وصلاح معرضين للقلاقل مثلنا تماما وانا أخشى ان تبدأ الدراسة ولسنا معكم في هذه الحالة انتم في حاجة الى رعاية مستمرة ومستقرة سوف توفرها طنط اميمة وسوف تزوركم امينة وصلاح وكل الاحبة والاصدقاء كثيرا.. على كل حال سوف نناقش هذا الامر بالتفصيل فيما بعد حين تتضح الامور اكثر.. وحتى القاك لك الف قبلة واشواقا لا تحد

ماما

سجن القناطر ١٩٧٩/٨/٢٠

حبيبي الغالي جاسر

لم اكن اعرف ان لك ابتسامة جميلة جدا الى هذا الحد الا حين وصلت سجن القلعة ووجدت في انتظاري فتاة تبتسم مثلك اسمها هدى توفيق خليل فهي لا تكف عن الضحك لها روح قوية وقلب جسور. . اما اخر ما احتفظت به انا من جمصة فهو ابتسامتك الجميلة وشجاعتك في مواجهة الامر فأنت فتى ناضج تفهم جيدا معنى نضالنا من اجل مستقبل سعيد لكل الناس. . وحتى يأتي الاطفال الى هذا العالم فيجدونه خيرا جديرا ببراءتهم وحتى يكونوا جميعا سعداء واذكياء مثلك. حين اخرج يا جاسر سوف اغلبك في الشطرنج فقد شكلناه هنا شطرنج من لبابة الخبز وزيناه باوراق مفضضة ونعقد مباريات فالعب كثيرا لتستعد. نحن ايضا نقضي اوقاتا مليئة بالبهجة نغني ونتحدث كثيرا ونحكي حواديت واحكي عنك وعن ذكائك وشطارتك «طبعا دي كذبة صغيرة لأنك انت حاتبقي شاطر في المستقبل وتذكر ان«العجلة»سوف تأتي مع التسعين في المائة في القبول» واتحدث ايضاً عن اختك رشا وافخر بكما جدا ياجاسر .ونتحدث عن الاصدقاء ونحلل الاخبار السياسية ونلخص كتبا او روايات قرأناها وقد شرعت هدى المملوءة بالحيوية مثلك في اعداد برنامج لمحو الامية بين السجينات. . هدى تجيد استخدام عقلها ويديها بنفس الدرجة. . اما فريال فهي صامتة قليلا هل تعرف لماذا؟ لانهم القوا القبض على ابيها وخطيبها، وقد ترك ابوها عشرة اطفال مهددين بالجوع الفعلي لانه عامل اسانسير في المجمع وهم يعيشون من اجره اليومي ساعة بساعة. . ومع ذلك ففريال واثقة بنا وبالحياة. فالحياة جميلة جدا يا حبيبي الصغير والمصاعب التي نواجهها فيها ليست الا شيئا عابرا وبسيطا ويكفينا شرفا وفخرا اننا لن نستسلم ابدا للصهاينة والامريكان الذين يغتصبون وطننا ولا لحلفائهم الذين يغتصبون قوت الشعب ويتاجرون في عرقه. . سوف اكتب لك يا حبيبي رسائل كثيرة جدا كلما امكنني ذلك. . ارجو ان تقضي عيدا سعيدا وان تهتم بنفسك وبصحتك ان تتناول الفتيامين وتاكل جيدا وتقرا سوف اعرف اذا كنت قد أكلت ام لا فهناك عصفورة تأتي على شباكي كل صباح تحكي عن اخبارك. . فاذا كانت صامتة اعرف انك لم تاكل ولم تهتم بنفسك ولم تنم جيدا اما اذا كانت تطير وتلعب وتغني فسوف اعرف انك مهتم بنفسك تاكل وتنام جيدا او تقرأ الغازا كثيرة وتكتب لي ولبابا رسائل.

ما رايك في ان نبدأ درس الجيتار مع اول الشهر ولكن قبل ذلك اريدك ان تناقش نفسك بهدوء وتجيب على هذا السؤال هل انا حقا احب ان اتعلم الجيتار؟ اذا كانت الاجابة بنعم فسوف ترتب لك امونة كل شيء في هذه الحالة لي رجاء خاص جدا وهو ان تواصل التعليم والتدريب لانك كما تذكر بدأت مشروعات قليلة مشابهة ولم تكملها مثل السباحة مع انني اعترف انك تسبح الان

ولكنك لم تواصل التعليم . . كذلك فعلت رشا لا احب ان نبدا شيئا ونتركه في منتصف الطريق لا بد ان نتمه لان جهدنا اثمن من ان نبذله عبثا . . كل عام وانت واختك الجيملة رشا بخير

ماما

١٩٧٩/٨/٢٠

اريد ان احدثك هذه الليلة عن فريال زميلتي في الزنزانة التي قلت لك انها صامتة لانها تركت احباء وحملت هموما تفوق سنها وخبرتها بالحياة وقدرتها المادية . . ولكن فريال لم تعد صامتة تحدثت بحرية اخيرا . . لمعت عيونها وشحذت قوتها الخفية العاتية لتحكي لنا عن كل شيء كنا نعقد جلسة للنقد الذاتي يحكي كل منا عن عيوبه كما يراها ويحلل اسبابها من وجهة نظره ويقول الاخرون رايهم وتدور المناقشة . سخرت منا فريال بذكاء وادب حين قلنا لها انك عصبية قليلا ، كان خطيبها قلقا حين التقيت به في الطريق الى نيابة امن الدولة . وقال لي راعيها فهي عصبية ومهزوزة وكانت اندفاعاتها المفاجئة توحي بذلك احيانا . . قالت لنا فجأة هل تعرفون متى اعود الى منزلي من عملي الذي يبدأ في التاسعة صباحا . . . اعود في العاشرة ليلا «خلصانة» ، ما الذي يبقى من الوقت . . وبعد قليل تقول كأنها تتهمنا ما الذي يتبقى من العمر اصلا . . ومع ذلك والغريب في الامر حقا انها ليست يائسة بل ان لها روحا قوية ومهاجمة وثابة وطموحة . . تتطلع دون كلل الى حياة اخرى . حياة انسانية في هذا العالم نفسه . في البدء كان طموحها من اجل نفسها . . كان التعب يغلقها على ذاتها ويحدد احلامها ويجعلها صغيرة . فستان ومقعد في الاتوبيس وبعض الصحة لمواصلة العمل واحتمال اللضي- هل تعرف اول مرة سمعت فيها هذا التعبير- اللضي- لا اعرف مدى صحته اللغوية- كان في مسرحية دائرة الطباشير القوقازية لبريخت وقد شارك في اعداد الحوار العامي الشاعر صلاح جاهين يا لله كم تغيرت الدنيا وكم ابتعدنا عن اشياء واقتربنا من اخرى . . انها كلمة تتالق وحدها وسط مفردات التعبير عن الشقاء- صديقتي كانت باختصار منغمسة في شقائها الفردي الخاص وما زالت . . ولكن رؤيتها الجديدة للعالم او بالاصح محاولتها لرؤية العالم من زاوية اوسع جعلتها تلتفت بشكل انساني وفطري الى معنى الاستغلال المباشر الذي يقع عليها وعلى كل افراد اسرتها حتى الطفل الرضيع الذي لا ينال كفايته من الاكل . . حقه البسيط في ان ينمو. فهي تعمل هذا العدد المضني من الساعات وتتقاضى ثمانية عشرة جنيها ، ولها شقيق في مثل عمرك- جميل كالقمر- هكذا تقول ، حين بدأت العطلة الدراسية التحق بعمل في الفرن المجاور. يذهب الى هناك في السابعة صباحا ويعود في العاشرة ليلا تقول هي انه فقد كل وزنه . وانه يعود كل ليلة ومعه خمسة وعشرين قرشا هي اجره ويقول لها انا لن اعمل ابدا مرة اخرى ويبكي . . ولكنه يحب مدرسته وشديد الذكاء وعليه ان يجمع كل المصاريف وثمن الملابس وهو يحلم ببنطلون جينز وتأخذ فريال في تشجيعه فيواصل العمل في الصباح . . هل تصدق انها سألتني اين يقف الله من كل هذا . . ونموذج «خالد» يتكرر في كل اخوتها . . ليست هناك حاجة ولا

ضرورة لان يرهق انسان نفسه في شرح معنى الاستغلال لها . . فريال حين يتفتح وعيها تتقدم بخطوات واسعة على طريق النضال . . كل شيء يكتسب في حياتها معنى عمليا واضحا للغاية لا تحتاج الى شروح ونماذج . . لانها حساسة وذات روح قوية . ولانها اثرت طول حياتها العملية ان تنفق كل دخلها على اسرتها دون ان تحتفظ بشيء لنفسها فقد تعلمت وحدها وبالفطرة ان لا تكون انانية وان تخرج من ذاتها وان تبذل من نفسها في سبيل هؤلاء الاحباء المقربين منها . والان تتوسع دائرة عالمها واحبائها وتدرك أن عطاءها ليس محدوداً بدخلها الصغير وأن مسؤوليتها إزاء ما تعيه وتفهمه من مشكلات الحياة وتقدمها تزداد بزيادة هذا الوعي . . وشيء جميل يا جاسر ان يتم ذلك يوما بعد يوم امامك ان يكون لك شرف وضع انسان له كل هذه القدرات الدفينة على الطريق الصحيح ومساعدته على اكتشاف نفسه بينما وجوده في حد ذاته يضيء ويجسد لك هذه المعاني العامة المجردة والنظرية التي يقرأ عنها كثيرا . فالانسان هو حقا اثمن راسمال . الانسان هو قدراته وخياله وطاقة المحبة والتغيير الهائلة في داخله . هو سيد هذا الوجود الذي لا يبارى وحين يلتحم وعيه بقدراته العملية وبشجاعته وتفانية يكون قادرا على تحقيق المعجزات . صحيح ايضا انه يمكن لقوى كثيرة ان تلحق بالانسان الاذى،ان تلحق به اذى جسيم كما يفعلون الان بنا حين يفصلوننا عنكم قسرا وكما يفعلون في اماكن كثيرة من العالم بصورة أكثر شراسة حيث يعذبون المناضلين ويسوقونهم الى الموت ، ولكن كل ذلك ينتهي ويصبح ذكرى مؤلمة يبقى فيها مشرقا ومضيئا ذلك التجسيد العظيم لقدرات الانسان رغم كل ما يلحق به من الاذى . . خالد شقيق فريال رغم صغر حجمه والانيميا التي تهدده بسبب الجهد الزائد عن الحد والذي لا يتناسب اطلاقا مع سنه يرغب بكل قوة في ان يتعلم ويدخر جهد اللعب والخيال لكي يعمل ويتعلم ولان فريال تهتم به وتساعده وتشجعه ربما استطاع ان يشق طريقه ويتعلم . ولكن يبقى خالد نموذجا لا يتكرر كثيرا لان هذه القوى الشرسة تقمع الذكاء الفطري للانسان بما تفرضه عليه من معاناة وحشية ولن يجد كل الاطفال في سن هذا الولد الجميل اختا مثل فريال انما لكي نرعاهم حقا ونحمي مواهبهم لا بد من مناخ عام وقناعات سائدة اي نظام يؤمن حقا بقدرات الناس ويحترمها . ويقر بحقوقهم كحقوق اساسية لا صدقة ولا زكاة . . مشوار بلدنا طويل يا جاسر فان ما الحقوه بها من أذى خلال السنوات الماضية لقاس للغاية . . انهم يفرضون بالعنف والكذب والشراسة فيما مغايرة تماما لكل ما ساد في حياتنا خلال الحقبة الناصرية ، وكل ما كنا نحلم به ، لم يعد الانسان في ظل ما هو قائم هو جهده ومواهبه وانسانيته . . وانما هو ما يملك ومن يملك كثيرا يسرق كثيرا ومن يسرق كثيرا ينشر الفساد في رقعة واسعة حوله . هل تعرف الفاكهة العفنة انها سرعان ما تضرب بعفونتها في الحبات السليمة . وحتى هؤلاء البشر من ابناء

مصر الطيبين الذين يعيشون بجهدهم فقط عاجزون كل يوم عن مواصلة الحياة- اصبح يومهم رحلة مضنية ولا امل في هذه الحياة ولا افق لتقدمها ولاتغيرها.

ولا اقول لك يا حبيبي ان الامر سهل وان طريق نضال الناس مليء بالورود انما لا بد من التضحيات ولكن الذين يقدمون انفسهم دفاعا عن الشعب يكثرون ولا يقلون. . . ليس حزب التجمع وحده الان. . بالعكس ان الناس جميعا ينظرون الينا ويتجهون صوبنا يحدوهم امل كبير ان يجدوا مرشدا وسبيلا. وعلينا نحن الذين نعي الامر على حقيقته ان نرشدهم ونضعهم على الطريق واكثر من ذلك نشير اليهم الى حيث يوجد الامل لان الناس يكادون ان يستسلموا لحالة من الياس والاسى العميق تجعل كلمة «ما فيش فايدة» تروج كثيرا وهم معذورون فالفساد الضارب في الاعماق والالام المتزايدة تطحن الناس وتسد عليهم السبل. ليس السجن هنا يا جاسر بعيدا عن الحياة في الخارج انه نموذج ايضا لكل الفساد القائم في المجتمع لكنه نموذج صارخ ومكثف فالذين يملكون يستغلون الاخرين استغلالا شرسا مكثفا ودون اية رقابة بينما الذين يقع عليهم الاستغلال لا يملكون من امرهم شيئا فهم فقراء ومرضى في معظم الاحيان. . المهم ان كل الناس هنا تدرك هذه الحقيقة وتتجاهلها. . بل هي تتجاهل حقيقة اخرى اكثر بساطة واشد سطوعا وهي ان هذه الكائنات بشرية ايضا. . ولكن اذا كانت حقوق الانسان البسيط قد أهدرت الى هذا الحد خارج السجن او على حد تعبير هدى في السجن الكبير الواسع فما بالنا هنا حيث السجن مادى له قضبان ومعنى ووجود مباشر للغاية. سوف احكي لك عنه مرة اخرى

لك حبي والف الف قبلة

ماما

سجن القناطر.

حبيبي الجميل جاسر

كنت حاضرا جدا هذا الصباح في زنزانتي حين اندفعت هدى مسرعة وكنت انا بين النوم واليقظة ونادتني . . ماما ماما لتوقظني . . وكانت تعنيها . . أحببت ذلك جدا، وتذكرتك انت ورشا . . ولا اكتمك انه طالما شغلتني هذه القضية واسميتها في يناير ٧٧ «لغة الغياب» حين كنت تنادي أحيانا اصدقاءنا خطأ بابا . وكان ذلك يؤلمني جدا . . تساءلت انا تحت اي دعاوي يحق لهم ان يتركوا في نفوس الاطفال كل هذه الغصة كل هذه المساحة الغامضة الغائبة ثم قلت لنفسي هذا اغراق في الرومانسية . . العالم مليء بالشقاء وما من عدل كامل . . سوف نناقش معا فيما بعد ما هو العدل الكامل . . وسوف أحكي لك كثيرا عن احلام ومشروعات وفعالية رجال عظماء في هذا العالم سعوا لاقرار العدل الحقيقي، قلت لنفسي يا حبيبي الصغير انني اتعزى حين اتكلم عن الرومانسية . . وعدت اتساءل منـــذا يحق له وتحت اي دعاوي ان يجعلكما انت ورشا واطفال كثيرين مثقلين بالغياب القسري للاباء . . وفي حالتكما بغياب الاب والام معا . . ذلك على اي حال كثير جدا، ولكنني اقول لك بثقة ان غيابنا عنك واضطرارك لتجهيل اسم ابيك واسم امك والكلام عنهما بالضمائر الغائبة هو وسام حقيقي لك، وسام يستحقه الابناء الشجعان الاقوياء وحدهم . . وسام مؤلم لكن ينبغي ان تفخر به . ان الذين يضعون السلاسل في ايدينا يا حبيبي قد فرطوا في الوطن . في استقلاله وفي مستقبله وهم يسعون الان بالملاحقة والحصار الى اسكات اصواتنا وتشويه صورتنا امام الناس، وخلق فجوة عميقة بيننا وبين الشعب الذي نؤمن بقدراته، ونسعى دائما للتواصل معه وايقاظه واثارة وعيه والارتقاء به . ستر التضليل والكذب شديدة السواد يا حبيبي الصغير، وهذا هو عهد الامبرياليين حين تسقط في ايديهم النظم والدول، انهم يفرقونها في التضليل بينما يستنزفونها في الصميم ولكن هل ينجحون في تضليل كل الشعب كل الوقت؟ ! ماذا سوف نراهم يقولون عن الخبز وعن الاسى العميق المتزايد والاحزان . . ناهيك عن لغة غيابك انت وامثالك، وعن اعدائنا المباشرين الذين يقتحمون شتى الميادين الان ليصنعوا من بين ما يصنعون هذا الغياب نفسه . . لعلك تتساءل هل يطول ذلك . . ؟ الذين يلاحقوننا يعيشون الان في حماية الصهاينة واسيادهم الامريكيين الذين يغدقون عليهم الوان الحماية والمذلة في آن واحد . لكن الذين يتقبلون الحماية والمذلة قد غيروا من النسق الطبيعي للاشياء . . من معنى الارض والوطن والانتماء وتجردوا من الولاء لاي شيء الا لانفسهم لنزعة الاستهلاك الشرة وللامتلاك، ولمزيد من الاستهلاك والامتلاك، ولذلك السعار الذي يركبهم في محاولة للتشبث والتشبه بالمثل الاعلى الذي وضعته امامهم الاحتكارات العالمية التي تتعامل في دماء الشعوب

وثرواتها . . وهو مثل اعلى مجرد من اي نزوع كريم او ولاء وطني او قومي ، هو مثل يكرس عبوديتهم وضعفهم وتخاذلهم لانهم لا يطمحون ولا يعرفون حتى كيف يكون الطموح للاستقلال المعنوي الحقيقي وكيف يكون الطموح لاستقلال الاوطان الحقيقي . نحن يا حبيبي نعيش في ظل هيمنة هؤلاء . . . هؤلاء الذين ابتذلوا اصالتنا . . وباسمها بالذات وابتذلوا ثقافتنا الوطنية والقومية وتراثنا ليقيموا ادلة على طيبة الظالمين ، وداسوا كرامة الشعب وشهدائه باحذية الغزاة والمحتلين الصهاينة . . وذلك ذنب عظيم لا يكفر عنه شيء مهما كبر . . فما بالنا لو كانت كفارتهم ذلك الابتهال الساذج والزائف الى الله والتفتيش في القران الكريم لاستخراج شهادات براءة لاعدائنا والاحتماء ببضع ايات من القران لتخليص انفسهم من حساب الشعب . ان صلاتهم الحقيقية يا حبيبي وقرابينهم تقدم للبنتاجون والكونجرس والكنيست . . فهل ننتظر من هؤلاء ان يعرفوا لغة الغياب ولغة الحضور . . ان حضورهم في التاريخ سوف يظل عاطلا ومشينا . . لانهم يضيفون بالسلب ، بالانتقاص والنكوص بالمشي خلفا . . الى ان ياتي اليوم . . حينئذ سوف ينمو الشجر المحرع وسوف يتسع المدى ويكون الحضور الحقيقي الفعال ابدا في التاريخ هو حضور الشعب العظيم . . فهل تحزن انت يا صغيري الجميل لاننا ننتمي الى هذا الميلاد الصعب للعالم القادم . . نحن فقط نغيب بهذا العذر القاهر فلا تحزن وانتظرنا دائما .

ماما

حبيبتي الغالية الجميلة رشا

الان تستعد كل من فريال وهدى للرحيل بعد ان قررت النيابة الافراج عنهما، واكتب لك هذه الرسالة بسرعة لانني سوف اراك في المحكمة. . . صديقتي الصغيرتين الباسلتين سوف تستأنفان حياتهما العادية وانا سعيدة جدا بتجربتهما، وبصداقتنا الوليدة، واكثر من ذلك باعجابهما البالغ بك وبرسالتك الجميلة الشجاعة. . . لم يترك السجن علامات مؤلمة في اي منهما. . . بل انني اجزم انهما الان، كلتاهما اشد عزما على مواصلة طريق النضال، وذلك واحد من المعاني الايجابية للتجربة العابرة في سجون السلطة بدءا من الحجز في الاقسام عند الفجر كما حدث مع فريال مرورا بسجن القلعة وانتهاء بسجن القناطر للنساء.

تعطلت حياتهما وفسدت مشاريع كثيرة، وفريال مهددة بالطرد من عملها اذ لم يمض على استلامها له اكثر من اسبوع.

. .ومع ذلك فان المشروع الجوهري الاكبر مشروع بناء مناضل واكتشاف طاقاته في قلب لتحدي ومن واقع انعدام الخبرة وفي مواجهة العسف قد نما وسوف يثمر حتما. . . ان الضربات التي لا تقتل تثبت الاقدام وتقوي عزم الناس، وتلهب جذوة الشوق الى اقرار العدل الحقيقي وتقويم العالم المعوج. . . العالم المعوج لا بد ان يذكرك «بهاملت» امير الدانمرك في مسرحية شكسبير العظيمة التي قرأتيها في الصيف الماضي، هاملت تلك الشخصية الفذة الباسلة التي تهز الجبال وتستصرخ عالمها الناشىء بقوة روحية لالاف الرجال. .لكن احدا لم يفهم في عصرنا هذا المغزى الروحي العميق لصرخة هاملت «يا ايها الزمن المعوج لعلني جئت لأقومك»ثم حولوه بابتذال الى حالة سيكولوجية منذ اطلق الامير الرومانسي صرخته في صراعه لتجاوز حدود العالم الضيق القائم وذلك قبل ما يزيد على اربعمائة عام، قوم البشر كثيرا من اعوجاج العالم. . . وما زالت امامهم مهام اخرى كثيرة. . . كان الامير يشم ريحا عفنة. .ونحن نعيش في زمن تكثفت فيه عفونة كل اعداء الشعب وعجزهم الخانق عن تجاوز انفسهم. . فاخذوا يهددون الوطن والامة. . . وفاحت رائحة فسادهم بصورة لم يسبق لها مثيل. . . كل شيء خرب. . هذا المعنى وما شابهه يتردد كثيرا على السنة الناس هنا في السجن او في الخارج، وهو المعنى الذي يعبر عن حالة مزاجية مواتية لدى الشعب، حالة خروجه من مرحلة شبه اليأس الى التربص. . . اصبحت الاكاذيب مضحكة. . ولكن الضحكات مرة للغاية. . . نحن هنا بصدد الركاكة الغلابة على كل شيء، ركاكة تخلقها العفونة حيث تتسلل الى كل شيء ويتحول وجودها غير الملموس الى بصمات تلوح على وجوهم حين يكذبون. وهم يكذبون دائما بينما يتحدثون عن الاخلاق، ولكن مالنا

بهم . . فعلى ارضنا نحن يشتد عود البناء الجديد العفى ، وكثيرا ما كنا نتساءل . . هل نعيش لنرى العالم الجديد؟ هدى قالت لي أنها بحثت طويلا عن صورة للعدل المرجو فلم تجد عدلا اخر سوى ذلك الذي تناضل هي وعشرات غيرها لاقراره . . اقامة العالم الاشتراكي . . . كلماتها جعلتني اجيب على التساؤ ل بصورة مغايرة فربما يطول انتظارنا ، وربما لا يكون حتى في مقدورنا ان نعجل بقيام العالم الجديد . . لكن يكفينا شرفا يا حبيبتي اننا لسنا متفرجين وانما نسير على الطريق المؤدي اليه ونحن على استعداد لكل تضحية .

لك حبي

ماما

. . . يا رد السجون . . حاولت ان اكتب لك من قبل رسالة مطولة ولم استطع فهناك اشياء كثيرة جدا اريد ان احدثك فيها وعنها- ليس اهمها القضية الحالية اريد اولا ان اطمئنك فالاولاد بخير وما زالوا في جمصة وسيعودون في الموعد المحدد من قبل سوف تعيدهم امينة وصلاح وسوف يقيمون لدى اميمة . . . وهم بخير. اما فيما يخصني فالسجن اقل سوءا بكثير مما تصورت . . الشيء المزعج الوحيد هو قلقي من اجلك ومن اجل الاولاد- الحياة هنا مليئة بالمباهج صدقني، وما من شيء يمكن ان يهزم روحنا وقناعاتنا الا الفشل الذي كان يمكن تداركه ولم نفعل- هكذا قلت لرشا . . . الفشل في مهامنا العامة او الخاصة . . . ولا اعتقد اننا نواجه فشلا ما انما هي التجربة التي ينبغي ان تستكمل . . لا اعرف حتى الان ما هي الحدود الحقيقية للضربة، فقد تم التحقيق معي مرتين ووجهت في الثانية باوراق قالوا انها بخطي وجرى استكتابي حتى يعرضوا النماذج على الطب الشرعي، ولم يستكمل التحقيق معي حتى الان وسوف احكي في المرة القادمة عما فعلته المباحث العامة حين فتحت باب شقتنا وفتشتها في غيابنا . . . لا اعرف ما الذي واجهوك به وما هي تهمتك . . . تهمني انا هي عضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري . تصور . . . سوف يتضح في الايام القادمة مدى حبكة اللعبة الجديدة . . ولكن من المؤكد ان اجهزة الامن قد اختارت هذا الوقت لعدة اسباب منها اقتراب موعد انعقاد مؤتمر قمة عدم الانحياز حيث تجد الحكومة نفسها في مأزق لاتحسد عليه، وحيث تدهورت سمعتها بسبب الممارسات الاخيرة كلها، وثانيا استباق امكانية قيام هبة شعبية في بداية الخريف نتيجة للاستجابة لشروط صندوق النقد الدولي اما السبب العملي والذكي نسبيا فهو اختيار الاجازات الصيفية والاعياد لاحتجازنا اطول وقت ممكن دون نظر التظلمات ولعل في ذلك دلالة هي ان القضية الجديدة لا تختلف كثيرا عن سابقاتها، وان المباحث تدرك ذلك جيدا رغم السعادة الغامرة التي كان مصطفى موسى يبديها حين دخل علينا في غرفة التحقيق وهو يبتسم ابتسامة واسعة جدا، وكذلك فعل حين دخل اثناء التحقيق مع الاستاذ نبيل الهلالي وقد صافحنا مصافحة المنتصرين . . من الواضح جدا ان نفوذهم يتزايد سواء داخل سجن القلعة الذي زاره مصطفى موسى مرتين خلال اقامتنا وحيث كان احد رجاله يجلس بزيه المدني طيلة اليوم في مواجهة زنزانتنا . . . ثم نجاحهم في ابقاء الابواب مغلقة علينا معظم الوقت . . . وابقاء الزملاء المحبوسين انفراديا على حالهم رغم الاحتجاج والاضراب عن الطعام . . الخ ومن ناحية اخرى فقد نجحوا الى حد كبير في السيطرة على الخروج والدخول الى مبنى نيابة امن الدولة ومنعوا الاهالي- الا بصعوبة من الانتظار . . على اي حال ذلك تصاعد

منطقي في نفوذهم مع الانحراف في اتجاه الاحتكارات العالمية وسيادة النشاط الطفيلي شبه الكلية على الحياة الاقتصادية والاتجاه بخطوات واسعة نحو القبضة البوليسية الفاشية وسد كافة المنافذ الشرعية الضئيلة الباقية امام الحركة الشعبية . . .

كنت اريد ان استكمل معك المناقشة التي بداناها في الطريق الى القاهرة اثر القبض علينا . . . هناك اشياء كثيرة ينبغي ان نعيد النظر فيها وان نتناقش بالجدية اللائقة ولا بد ان يأتي الوقت لذلك ، ليس عيبا ولا جرما ان نقع في الاخطاء ولكن الجرم الحقيقي هو السكوت عنها والنكوص عن نقد النفس ومحاسبتها . . . المهم انا لا اتصور ان الصياغة القانونية التي نحاكم في ظلها الان او سوف نحاكم في ظلها بالاحرى سوف تستمر طويلا رغم انها في النهاية محكمة استثنائية ، في رأيي انه بعد اجراء التعديلات الدستورية التي يزعمون اجراءها سوف تسعى السلطة الى مزيد من التشدد واحكام القبضة دفاعا عن النفس وخروجا من العزلة ، وهو ما لا تحسب كل القوى الوطنية حسابه جيدا- فاذا كانت سياسة الضربات السريعة المتلاحقة- الفاشلة حتى الان في معظم الاحيان- قد نجحت في استنزاف قدر كبير من طاقة الناس ، وحتى شل اعداد كبيرة من المناضلين لفترات تطول او تقصر فانني لا استبعد ان تجد السلطة نفسها مضطرة- وهي الان تدافع عن وجودها ووجود الاسرائيليين معا- الى حشد المعتقلات بالاف المناضلين دون محاكمة . . ومن ثم فهي تدفع كل اشكال العمل السياسي الى السرية وكل اشكال الصراع الى العنف .

انتهيت الان من «ما تش بنج» مع هدى توفيق وفريال عطية زميلتي في الزنزانة هما ظريفتان ومتعاونتان وفارق السن الكبير بيني وبينهما يسمح لي بالكثير من الراحة خاصة حين تثرثران واريد ان اقرأ . . بالمناسبة دخلت لي بعض الكتب من بينها البحث عن الذات سوف اطلب الى النيابة واطلب انت ايضا ان يسمحوا لنا بالاوراق والاقلام ماذا عنك انت؟ . كنت انوي في البدء ان اكتب لك رسالة حب . . وسوف اكتبها حتما ، ليتك تستطيع ان تكتب لي رسالة طويلة جدا . . رسالة حب . . ان اشياء كثيرة تتجدد ومشاعر طازجة وحارة تتدفق ، واكتشف بان ارتباطي بك الان هو اعمق كثيرا من اي وقت مضى وانني وقد تداخلت القضية العامة والخاصة اشد صلابة بك وبوجودك ، بفكرك وعواطفك وقوتك الروحية العظيمة التي تملؤني بالامل ، وتمدني باحساس غامر بالامان رغم كل الضربات والمصاعب . . اعود فافكر : لم يكن اختيارنا لبعضنا البعض عشوائيا ولا نضجنا المتلازم والتدريجي معا صدفة . . نحن نبحث بوعي واخلاص حقيقي عن طريق للخلاص العام هي الاكثر جدوى وشرفا . . نحن نمد ايدينا بوعي الى المستقبل ، وما نناضل من اجله هو بحد ذاته ما اكتشفناه معا على الطريق فامتزج بنا واصبح جزءا من وجودنا

المتوحد معا . . هل- تتحدث الى القمر . . احيانا تغمرني نزعة رومانتيكية غلابة واتحدث الى القمر، فهو يبزغ كل ليلة من ناحية شباك زنزانتي فاحدثه عنك سرا واعرف انك تراه، وان جاسر ورشا ايضا يريانه فتغمرني الراحة . . واقول لنفسي: لقد فشلت خططهم جميعا . . فلم يتغير شيء هذا القمر كنا نحدو نضجه في جمصه كل ليلة معا ونتابعه حتى يغيب في البحر وها نحن من جديد نراه . . . نتابعه حين يبزغ وحتى يغيب في كثافة الاشجار والفضاء البعيد . . فهل تغير شيء . . فقط تأكد لي انني احبك اكثر مما أتصور في الحياة اليومية العادية وفقط ادركت المعنى الحقيقي لكلمات «نجم» الذي تمنى ان يسجن كل الشعب المصري حتى يدرك ان «باب السجن خايخ وان الظلم شايخ» وان السجان هو الخائف وليس نحن . . ذات ليلة شديدة الحرارة اغلقت علينا الزنزانة طيلة الاربع والعشرين ساعة في القلعة لانني حاولت ان اتحدث الى زكي مراد اثناء مروري الى دورة المياه وكان المامور موجودا فهددني وهذا المضحك- باغلاق الباب وعدم فتحه ابدا . . قلت له انه بالفعل مغلق وطلبت اليه اغلاقه وليلتها غنينا طويلا جدا معظم ما نحفظه من اغنيات ثورية، وسمعناكم تردون على اغنياتنا وتحياتنا، لا تتصور مدى انتعاش روحنا حين سمعناكم، ولا تتصور مدى الغيظ والاسى الذي كان يلوح على وجه ضابط المباحث المقيم حين يسمع ضحكاتنا العالية واشعارنا . . كنا ننظر اليه من العيون السرية التي خصصوها للتجسس علينا . . الاغنيات في سجن القناطر مهداة لنا من المصدورات خاصة، لوزة وتيريزا اللتان تقيمان في مواجهتنا وجدتهما تحفظان اغنيات ثورية كثيرة من بينها «انا رحت القلعة وشفت ياسين حواليه العسكر والزنازين» وقد اصبحت الان مهداة لك كل ليلة، انا رحت القلعة وشفت حسين حواليه العسكر والزنازين لوزة التي خرجت من شارع محمد علي الى «الأريزونا» لها صوت رائع وشجي، وهي تغني مواويل بديعة نصفها الان عنك وعن زملائك تشعر السجينات العاديات بالفطرة اننا على حق . . . يبقى انني افتقدك بصورة غامرة تفيض احيانا دموعا صغيرة لكنها لا تطول ولا يراها احد . . اتفقنا ان نكون جميعا هنا ومهما كان قلقنا الخاص- جديرات بالتهمة الموجهة لنا . . . اطمح في رسالة منك

لك حبي

فريدة

حبيبي حسين

هذا يوم جديد بكل معنى، يوم يخرج عن الايقاع العام لهذا الكابوس الثقيل الاخير، اليوم زارني محمود سامي ومحمود المراغي وعرفت خبر الافراج عنك، وكنت بالامس قد حدثتك طويلا في المساء حين انقطع التيار الكهربائي، وكنت حينئذ على يقين من انك لا زلت في سجن «طرة».. فتحت شباكي لعل الرسالة الصامتة تخرج خلسة، وفتحته ايضا لكي اسمع صوت الصراصير التي تتحلق في دوائر ومربعات وطوابير تخلق جوا كافكاوياً حقيقيا وقلت ولكني سوف اسمع واری بتعمد لكي اشاركك واشارك كل الاحباء المقيمين في طرة حيث القذارة والفئران والصراصير والروائح العفنة... ثم اقول هذا نزوع ما زوكي... هذه نزوة نحن نكسب ولو قليلا لو تجنب احدنا الالام، والتفت لاطل على الحديقة المهملة... لكنهم والحق يقال نظفوها بالامس، قلموا شجرتي وامطروا الحشائش بمياه غزيرة.. كان مدير المنطقة يزورنا وفجأة وضعت قطع من الطوب الاحمر المطلي بالطباشير طلاء رديئاً للغاية... وضعت حول الحشائش، ورفعت اكوام القمامة التي تراكمت منذ شهر، وطلبت الادارة من كل الزبائن بادب وبسوء ادب ان ينظفوا اماكنهم.. ولكني الان ادركت ان مشاركتي في الاحتفال الصامت من شباكي لانك كنت سوف تخرج في المساء... ولكن هذا كذب يا حبيبي فانا فرحة للغاية لان حدسي لم يكن صادقا.. بالامس نفسه، ذلك الامس الملىء بالاثارة.. غفوت قليلا في الرابعة.. وبعدما يقل عن خمس دقائق قمت فزعة جدا على صوت صرخة عالية من جاسر.. كان يبكي ويتألم وقد غاضت روحي.. ولكنني تشبثت بالهدوء وناديتك.. والان انا اعرف ان القلق يصنع الخيال المحموم ويبذر الالام الموهومة في روحنا.

والان انت هناك وقد تراجعت لغة الغياب التي يتقنها الاولاد.. سميتها انا لغة الغياب حين يستيقظ الاطفال فجأة ويكون عليهم ان ينادوا اشخاصا اخرين غير ابيهم وامهم.. اشخاصا يحبونهم ولكنهم ليسوا الاباء والامهات بالذات وان يتكلموا عنهم بضمير الغائب.. هل هذه ميلودراما لا اعرف ولكنها في كل الحالات مؤلمة.. الان انت طليق تستطيع ان تحتضن رشا وجاسر كيفما شئت وان تفكر بي والمدى امامك اوسع.. ذلك رائع يا حبيبي الطيب الشجاع.. الان اطمئن قلبي واعرف ان لهذا الاطمئنان ثمنا سوف تدفعه انت.. سوف تكون مجهدا قلقا من اجلي تتخيلني كما كنت افعل انا- وحيدة ومهمومة من اجلكم تتوتر الى الداخل، وتذهب الى الحزب حيث يتراكم العمل وتتزايد المهام، ولكن صدقني، بماذا اقسم بعالمي الصغير الجميل الذي يضم ثلاثتكم والذي امنحه قلبي وعمري انني الان سعيدة وانني لا اهتم لو طال السجن.

أقرأ كثيراً واتذكر اكثر ، واتامل اشياء كانت زحمة الحياة والعمل قد عفرتها . . من بين ما اخذت اتامله في الفراغ الطويل . . . فكرة بدأت جنينية واخذت تلح علي . . تتبلور في «الزمن الموحش» الحق ان لا علاقة لها بالسجن . . وهي ان الانسان في كل اشكال سعيه الى تحسين وجه العالم وخلق عالم أجمل وأفضل يقصد غريزيا وروحيا الى هزيمة الموت فعلاقة الانسان بهذه الارض وما عليها ومن عليهاتصنع طموحاته وامانيه حتى تلك التي تخص العالم الاخر اليست هذه بعض مباهج الانفراد بالنفس . . نحن نطرح اسئلة لا نجد الوقت ابدا لطرحها على وجهها الصحيح ، وهكذا ترى أن وطأة السجن تزول تدريجياً بالنسبة للسجين في حين يتحملها الاحباء في الخارج ، انتم لا تجدون الوقت لتأمل شيء مترف كهذا قليلا . . وليست لكم ذكريات حاضرة سوانا .أليس كذلك؟ أتأمل اشياء اشد جوهرية ولكنني احتاج الى كتبي حتى تتبلور افكاري بصورة افضل تهزم البورجوازية الصغيرة الموت بالسعي المضني الى الجاه الاجتماعي . بالتحصيل المستمر والصعود المتصل في السلم الاجتماعي ، وتحقيق الوجاهة ، هنا تستند الزوجة الى كتف المهندس العظيم او الطبيب الذائع الصيت فلا يتحقق امنها النفسي في الحب فقط او الاطفال فقط وانما في هذا الوجود المعنوي الذي يظللها ايضا ، حين تتنازل للزوج كلية عن كيانها الخاص . . اما الرجل فهو يستغرق نفسه في خلق هذا الوجود . . انهم جزر معزولة حتى في هذه القضية ، يحلون مشكلاتهم مع العالم الاخر سراً . اما كبار البورجوازيين وخاصة الطفيليين الذين لا يتقنون شيئا سوى الفراغ فانهم يهزمون الموت بفن المجون الذي يجيدونه ويحسنونه مع الوقت ، وهم يخلقون لنا تلك الظواهر الشائعة جدا الان وتسمى فنانات . نساء يغنين ويرقصن ويمثلن ويجدن في كل عمل على حدة فن المجون ولا يعرف احد صلة اخرى يمكن ان تربط هاته النساء بالفنون ، المجون يرتبط ايضا باطايب الطعام والبخور والعطور بالنهم ، والزمن شاسع وليس مطلوباً من احدهم ان يجتهد للتقدم او ان يعمل لخلق شيء ، فكل شيء قائم وجاهز دون معوقات . لا الشعب يعنيهم ولا المستقبل . . اما الطبقات الشعبية فانها تهزم الموت اذا ما تذكرته في اوج شقائها باحالته الى الاخرة التي يثقون في انها قادمة هناك حيث الثواب والعقاب الرادعين ، ولانهم كثيرون ، ولان الموت ضيف معتاد واليف يخطف الكبار والاطفال بحرية فانهم يعقدون معه هذه الصلة القوية ويقيمون له الطقوس ، ويلجأون الى هذا اليقين الكلي والكاسح الذي لايناقش وهو قيام الموتى في الاخرة حيث يهزم الموت من تلقاء نفسه الى الابد ويلتئم الشمل الذي بعثرته الحياة من جديد يقول نجيب محفوظ ان الشعب كثير العدد جدا ، وهو يتكاثر بسرعة ومن اجل هذا هو يرشح البورجوازية الصغيرة باعتبارها اقل عددا واكثر ثقافة لقيادة العالم بصفة دائمة ربما لان الشعب كثير العدد تحصده الدبابات او المجاعات بحرية . . لا يهم . اشعر الان انه لابد لي من الخروج من

هذه الدائرة المخيفة . . ما الذي جعلني ابدأ رسالة بهيجة وانهيها نهاية حزينة، ربما لان جارتي سعاد الصغيرة المريضة الحلوة قد فقدت ابنتها ذات الشهرين هذا الصباح وهي لا تعرف عنوانا لوالد البنت المجند في الجيش، وقد ظلت تبكي بحرقة يمكن ان تدمي قلوب البلدان جميعا في هذا العالم. وكانت سعاد منذ اسبوع قد ظنت ان ابنتها ماتت واقامت نفس المناحة، ولكن الدكتورة اكتشفت ان البنت ما زالت حية وان كانت تعاني من نزلة معوية حادة وحالة جفاف، تماما كما اقرت هي نفسها- الدكتورة- ان ذراع البنت سامية ذات السبعة عشرة عاما ما زالت حية، سامية لا تقو على تحريك ذراعها لان بوليس الاداب حين هاجم الشقة التي كانت تعمل بها خادمة وعشيقة القت بنفسها من النافذة فانكسرت ذراعها ولم يهتم احد . . هذه بعض هموم العالم هنا تطل علي ولا استطيع ان امنعها من التسلل الى قلبي احيانا مهما اقمت من المتاريس وتشبثت بالصلابة الروحية الضروية او اقنعت نفسي بان الهموم لا تأتي فرادى وبان ذلك شيء منطقي في السجن . . ان يموت الاطفال الصغار وان تعجز سامية عن اجراء عملية في ذراعها ليستيقظ تماما. ومع ذلك اتوهج فرحا برجوعك . . هذا اجمل رجوع لك منذ التقينا احبك لانك رجعت للاطفال وسوف اظل احبك حتى لو سجنت من جديد- وطبعا سوف تسجن. ماذا اقول . . . . الشجر كثير جدا هنا على حافة السور وهناك اوراق تسرع في النمو ليلا وخفية لتبشرنا من خلف عيون المخبرين السريين والسجانين العميان ان عالمنا يبزغ رغم كل شيء وان رايتنا المنتصرة ترتفع في مواقع كثيرة من العالم بتضحيات افضل الناس، وان احزاننا لا تعوقنا لانها بعض من فيض احزان الشعب الذي ندين له بالولاء ونؤمن به ونتعلم منه . هذا ختام احبه لرسالة جاءت رغم انفي حزينة .

لك حبي

فريدة

الاحباء الاعزاء هانية ورجاء وسميح وليس [1]

قصدت ان اكتب رغم المصاعب المتزايدة لانني اعرف انكم قلقون، وهناك مبررات كثيرة للقلق اذ ان الضربة هذه المرة جاءت كما لو انها موجهة بالتحديد لرشا وجاسر، وذلك هو الشيء الوحيد الذي يقلقني في الامر كله وبصفة خاصة لانكم لستم هنا، اذ كان بيتكم قبل ان تتخذوا قرار الرحيل ملاذا يعطي لرشا وجاسر احساسا بالامن والاستقرار لا يختلف عن بيتنا، ولكن لا بأس فأمينة ترهق نفسها لشدة عنايتها بهما، ولا اخفي عليكما انني كنت دائما اخشى ذلك اليوم ولكنه حين جاء كان اقل سوءا بكثير. . . نحن محظوظون فكم لنا من أحبة واصدقاء. . . سألتني صديقة ذات مرة اذا ما كان أبناء السياسيين المعرضين للحبس طويلا سوف يجوعون. . . وحين فكرت في الامر قلت لها بثقة ان الحركة السياسية التقدمية في مصر قد بلغت درجة من النضج والقوة لا تسمح ابدا بأن تشرد أسرة او يجوع اطفالها، وتشكل هذه الوضعية عنصرا أساسيا دون شك يمنح الثقة والاطمئنان والقوة للمناضلين وتصبح المعضلة الباقية سهلة للغاية. . اعني معضلة التأقلم مع ظروف السجن والحياة فيه ودفع عجلة الحياة والانتاج بقدر الامكان، [السجن ليس أسوأ كثيرا من عناوين الصحف او زحمة المواصلات او مشاهد البؤس الكالح او بنود اتفاقية الصلح المصرية الاسرائيلية] [السجن يا أحبائي يحاصر الوطن والشعب والامة بأكملها، والفارق طفيف للغاية بين الذين تغلق عليهم الابواب مع حلول المساء وهؤلاء الذين يشخصون الى شاشات التليفزيون ليشاهدوا النماذج المبتكرة في التهريج والتزوير كل مساء، او الذين يجهدون انفسهم طيلة اليوم فلا يؤمنون- الا بالكاد- حد الكفاف لهم ولابنائهم]. كل هذا يحدث للامة العربية، هذه الامة الغنية الشاسعة، المليئة بالثروات والرجال والطاقات المهدورة في كل مكان، انها امة لاتقدم الشهداء بل قدمت منهم مئات الالاف ولاتقدم العقول المفكرة فهي غبر تاريخها كانت تعطي للبشرية رجالا اخيارا وعلماء مبتكرين وانبياء. . . [ومع ذلك تتفشى حالة الانهيار المعنوي والاخلاقي التي يغرق فيها ساستها ويغلفونها بالتزوير وبحصار العقل ليصبح الانهيار معلما اساسيا في حياة الامة، وليصبح الفساد بكل معانيه مرتبطا بالعرب]. لم اكن أنوي ان اكتب لكم رسالة سياسية، وانما اردت فقط ان اطمئنكم، والمرء لا يتمالك نفسه ازاء ما هو

(١) رجاء النقاش: الكاتب والناقد المعروف

هانية زوجته (طبيبة) سميح وليس طفلاهما.

امينة النقاش: صحفيه.

حاصل الان، لان ما يجري ينفي عن كل اهدافنا ومطامحنا الشخصية خصوصيتها، ولا نستطيع ازاءه ان نقف صامتين، وقد جربنا وما زلنا نجرب اشكال الحوار «المتحضر» مع حكومة تدعي ان كل ما تقترفه الان هو عمل حضاري. جربنا ان نقول في حزب التجمع راينا فيما يحدث، وطلبنا الاحتكام الموضوعي الحقيقي الى الشعب، ولكن اللغة الوحيدة التي يعرفونها الان هي لغة القمع وتكميم الافواه وارتكاب الجرائم في حق الشعب والمستقبل كله. ومع ذلك حين سألني مدير المنطقة- كنت اعرفه سابقا- كيف حال الكادحين في العالم الان- وكان سؤاله يحمل لهجة سخرية واضحة لان حبسنا تكرر، اذ كان مأموراً لسجن الاستئناف سنة ١٩٧٧ حيث كان حسين محبوسا بعد احداث يناير- وكان جوابي واثقا كل الثقة ولم أكن اكذب- ان الكادحين ينتصرون في كل مكان.. ثم قلت- ربما لاخدع نفسي حتى في مصر، ولكن حين تأملت الامر بيني وبين نفسي بهدوء وجدت أنني لم أكذب.. ان الحركة الجماهيرية في مصر محتدمة وما الركود المؤلم الا ركودا ظاهريا خالصا، وما الازدهار الذي يلبس العالم القديم ثيابه الباذخة الا ازدهارا شكليا لعالم خرب آيل للسقوط (وتاريخ شعب مصر القريب جدا- ولنبدأ من سنة ١٩٦٨ حيث بدأت اول مظاهرات طلابية وعمالية كاسحة احتجاجا على الاحكام التي اصدرتها المحاكم على المسؤولين عن هزيمة ١٩٦٧ حتى يناير ٧٧- هذا التاريخ الذي ما زال ماثلا يؤكد لنا ان الشعب يختزن حيوية بلا حدود وهي حيوية تحتاج الى الاستيعاب والتنسيق والتنظيم، وان العجز ليس كامنا في الشعب الذي قام بمهامه دائما، وانما هو كامن في حركة هؤلاء الذين فشلوا في قيادته او بالاحرى لم يكونوا مؤهلين لهذه القيادة .. ها هي اذن من جديد رسالة سياسية. كنت اريد ان احدثكم عن بعض مزايا الحبس قرأت «بخلاء» الجاحظ لاول مرة وعرفت كم فاتني اكتشاف الكثير من موهبة وثقافة هذا الفنان العظيم، والحق انني خجلت من نفسي، كنت بسبب دراستي للادب الانجليزي اضع شكسبير كشاعر خبير بمكنونات النفس الانسانية كمثل لا يطال، وارى في كل من «ديلان توماس» و «ازراباوند» قدرات لا تجارى ولا تبارى واعرف عن الادب العربي ما هو معاصر وعام وحين قرات «البخلاء» في متسع من الوقت يبدأ في السادسة صباحا وينتهي في الثانيه عشرة ليلا دون مهام فعلية- في هذا الوقت الذي يمكنك ان تتأمل فيه اشياء كثيرة اذهلني هذا الاكتشاف، وايقنت انني على حق لأنني طالما شعرت بالخجل لعدم دراستي الادب العربي دراسة منهجيه كاملة، وإذا سئلت مَن مِن الكتاب يعرف خبايا النفس البشرية كما يعرف لون عيون حبيبته لقلت انه فنان عربي عملاق له بصيرة نفاذة، وروح فكاهة مرة، وخبرة بالفروق الدقيقة بين الجوهري والعارض، وقدرة على خلق واكتشاف المفارقات الكبرى التي لا يعرفها الا عظماء الشعراء، وأحمد الله ان هذه المعرفة الحميمة التي جاءت بالصدفة البحته كانت عربية، فكم يعزينا ذلك عن الالم المر الذي

نعانيه لهول ما يدور في ساحتنا.

السجن بطبيعة الحال ليس شيئا بهيجا، وانما تتوقف مساوئه على مدى تقبلك لها، فاذا ما كنت تعالج الامر كقضية شخصية ساءت الامور، اما اذا وضعته في السياق العام لما يجري اتسق كل شيء وبان ذلك كأنه المكان الطبيعي للذين يرفضون بجدية وايجابية ما يجري الان. ولكن- صدقوني- ان السجن وعلى حد تعبير نجم هو سور فحسب وان الظلم شايخ- وباب السجن خايخ «فما من احد يعترف بجدية الاتهامات الموجهة لنا ولمجمل فصائل الحركة الوطنية التقدمية حول الارتباط بالخارج وتلقى الاوامر من هنا او هناك، وقد ربط الناس على التوبين وجودنا في السجن وبين الغاء الدعم على بعض السلع استجابة لشروط صندوق النقد الدولي.. يحظى اليسار بصفة عامة بالاحترام، لكن ثمة نقص هائل في معلومات الناس وتزييف لوعيها لا اعتقد اننا عرفناه من قبل في تاريخنا الحديث كله وبصفة خاصة فيما يتعلق بقضية اسرائيل ومعاهدة الصلح معها. اذ يبدي الناس دهشتهم من معارضتنا لها.. ويتبين لنا كل يوم كم استطاعت اجهزة الاعلام بما لها من سطوة على الشعب الامي في غالبيته، وبالتشريعات والقوانين التي تضمن انفراد وجهة نظر الحكومة بكل قنوات التوصيل للناس- استطاعت ان تتوغل في ضمائرهم فصدقوا تلك الكذبة الساذجة: انه ليست هناك معارضة للمعاهدة سوى من بضعة الاف يقولون «لا» في كل الاستفتاءات، وكأن هذه «اللا» اصبحت هواية، اما حزب العمل حزب «المعارضة الشريفة» على حد تعبير الدكتور محمود القاضي فهو يؤيد الاتفاقية.. وتشكل هذه الوضعية معضلة جدية امام قوى اليسار والمعارضة عامة التي ما زالت جميعا تعمل بوسائل متخلفة للغاية تعجز عن مجاراة التقدم الهائل في اجهزة الاتصال الجماهيري الواسعة الانتشار والمحتكرة لصالح افكار الحكومة ووجهات نظرها، وفي نفس الوقت فان اجهزة الامن حريصة على استنزاف قوى الحركة الوطنية اولا بأول، وما عمليات الاقتحام البلطجية المتكررة لمقار حزب التجمع والضربات المتلاحقة للقوى الوطنية والتقدمية والتي تتزايد سرعتها يوما بعد يوم الا تعبيرا عن هذا الادراك من قبل الحكومة وحلفائها الامريكيين والاسرائيليين لخطورة نمو قوى اليسار.

(اقضي الايام هنا في القراءة ولعب البنج الذي تعلمته، وقبل ان تفرج النيابة عن زميلتي كنا نقوم باعداد المحاضرات وفقا لبرنامج تثقيف وضعناه، ونراقب عن كثب مدى الفساد الشائع في السجن، ونغني اغنياتنا الثورية التي اكتشفت ان بعض نزيلات المستشفى التي نقيم فيها يحفظنها، وخاصة المحكومات بمدد طويلة فقد توافدت عليهن عشرات السياسيات في ظروف مختلفة كانت جميعها اشد قسوة من ظروفنا، وتعلمت السجينات ان يغنين للعمال والفلاحين والطلبة وان يهتفن لكفاح الشعب المصري والطبقة العاملة، الاهم من ذلك انهن يقدمن لنا المساعدات برضاء

كامل، ويشعرن بالامتنان لوجودنا لان جل حديثنا ينصب على الام الشعب التي تعشنها وكن جميعا بطريقة او اخرى ضحايا لها.

(نحن قريبون جدا من النيل، ومن شبابيك المستشفى التي يقع بها عنبر السياسيين نستطيع ان نرصد اشرعة المراكب العابرة، ويمكننا ان نتسلى- اذا شئنا- باحصائها.. حتى الان لم اشعر بالملل واسعى جاهدة للتأقلم، الشيء الوحيد الذي يملؤني بالغصة هو اختطافنا المفاجيء كلينا من رشا وجاسر ولكننا لن نطلب ولا نتوقع من الذين يكيلون الضربات للشعب في عيشه وكرامته ان يفهموا معنى الابوة والامومة على وجهها الصحيح، ومن المضحك انهم يتشدقون كثيرا بجهودهم للحفاظ على الاسرة،.. في المستشفى طبيبتان احداهما كبيرة السن والاخرى حديثة التخرج تذكرني بهانية.. افتقدكم جميعا.

لكم مودتي وحبي

فريدة

الصديق العزيز الفنان محمود دياب

كان اول شيء لفت نظري على حائط زنزانتي هنا في سجن القناطر كلمات بديعة من مسرحيتك «باب الفتوح» مكتوبة بالقرب من السقف العالي جدا:

«لو أنا حررنا الناس جميعا
ومنحنا لكل منهم شبرا في الارض

وازلنا اسباب الخوف

لحجبنا الشمس اذا شئنا

بجنود يسعون الى الموت

ليذودوا عن اشياء امتلكوها

واكتشفوا كل معانيها»

التوقيع: ماجدة فتحي

(لا اذكر يا صديقي من اية كلية هي وبأية تهمة جاءت هنا. . .ولكن لا يهم فكل الذين يأتون الى هنا متهمون بحب مصر، بالحساسية البالغة ازاء آلامها وقضاياها. قلت لنفسي لا بد ان اكتب لك فقد فرحت للغاية لانني اعرف كم انت مؤرق بسبب هذا العزل الاجباري والصمت الذي يضربه حولك تجار الثقافة والمزورون.

انك لست معزولا يا صديقي العزيز. . وها انت ترى الان كم انك موجود ومؤثر في قلب الاجيال الشابة التي تسعى لاقرار عالم جديد، ومن بين اسلحتها كلماتك الصادقة الفياضة وابطالك الذين خلقتهم على نسق طموحك وطموح هذه الاجيال نفسها لتجاوز الخراب القائم الى عالم جديد وشرائع جديدة. قليلون هم يا صديقي الفنان هؤلاء الكتاب والشعراء الذين حفظت اشعارهم وكتاباتهم لتقوم بدور مباشر وعملي في وجدان متلقيها وتمتزج بتكوينهم النفسي والنضالي، وانك لسعيد الحظ حقا- رغم كل شيء- لان هؤلاء الذين احبوا كلماتك وتمثلوا قوة وفعالية بطلك «اسامة»- يناضلون ايضا ولا يكتفون بالفرجة على العالم والاستسلام للحزن الرومانسي- هذا هو الجيل الذي نراهن عليه ونضع فيه خلاصة روحنا وافكارنا- وهذه هي مواصفات اجيال متعاقبة من النساء والفتيات دخلت الى هذا المكان لها طموح الانبياء يؤرقهن حلم تغيير العالم. . . وفي السجون الاخرى كتب الشبان كلماتك وهم ايضا مؤرقون بالحلم نفسه.

هل تذكر مناقشتنا اثر وقف اطلاق النار في حرب اكتوبر حين قلت لي . . ها قد خبت روح الشعب الذي تؤملين فيه الكثير وتراهنين على مواهبه وخباياه. هل هذا بلد محارب؟ . . هل هذه وجوه مقاتلين يستبسلون دفاعا عن الوطن والحرية والخبز؟ . . . يومها كنت احتمي انا بجماهير ٩ـ ١٠ يونيو . . ذلك الاحتماء المتكرر ولم اكن اجد ردا اذا كان التجار قد اغتصبوا بالفعل كل وسائل الاعلام والثقافة، وكانت الحرب تدار اعلاميا بلغة الغوازي والمخنثين . . وفي اعماق اعماقي كنت اجدك على حق . . ولم يمض طويل وقت حتى كانت الهبات والانتفاضات الشعبية تتوالى هنا وهناك . . كان الشعب العظيم الذي نعتصم بقدراته حين يشتد الظلام يتقدم . . من المحلة الى حلوان الى يناير ٧٧ . . اقول هذا هو النبع الحقيقي الذي لا يجف لاهامك . . ولكل هؤلاء المجهولي الاسم الفقراء والجائعين والمذلين انت مدين بصلب عالمك الجميل . . وانها لبهجة حقيقية لك الان ان يزداد يقينك بان سعيك واوجاعك لم تكن ابدا سدى . . هؤلاء تلامذتك وعشاقك المخلصون يحملون كلماتك الى منبعها من جديد . . . الى الشعب . . الى حيث اختاروا ان ينتموا وان يجاهدوا ويتصلبوا وينصهروا في افران التوهج الجماهيري المتزايد . . فتيات وشبان في عمر الزهور نفس عمر «سنيورة» و «اسامة» «وعائشة» «وفكري» . . يعيدون خلق عالمك في وجدانهم ومواقع عملهم وفي السجون حيث ينبغي ان يتطهروا جميعا وان يتعمدوا لاداء مهمتهم الشريفة . . .

قلت لزميلتي ـ وانا فرحة للغاية ـ هذه كلمات صديقي الفنان المسرحي محمود دياب الذي يعذبه الغيـاب عن الساحة العامة . . فأدركت من نظراتها، انك لست غائبا على الاطلاق فاحداهما تعرف اعمالك معرفة جيدة اما الاخرى فأخذت تقرأ وتحفظ الكلمات . اتفق معك ان الغياب عن الساحة يعزلنا عن الناس وان الوجود من خلال اجهزة الاعلام ضروري ولابد ان نسعى له، فهؤلاء هم الناس الذين نكتب لهم، وتلك هي الوسائل الموصلة اليهم، ولكن تذكر اننا لم نسع الى هذه العزلة وانما فرضت علينا، قرار لا على اشخاصنا انما على افكارنا واختياراتنا وكل ما نمثله من قيم ايجابية وافكار، فهل تتصور انك انت الفنان صاحب النزعة القومية التقدمية . . المدافع عنها اينما كنت وفي كل ما كتبت يمكن ان تجد مكانا لفكرك واختيارك من خلال الاجهزة القائمة والسياسات الثقافية التي تروج لافكار «ابناء عمومتنا» الصهاينة، وتفتح لغزاتنا ابواب الوطن ومداخل الامة باكملها؟ هل تتصور هذا؟ انني لا اتصوره رغم انه علينا الا نتوانى ابدا عن حفظ حقنا والدفاع عنه في التعبير من خلال هذه الوسائل التي يدفع الشعب من كدحه ثمن توفيرها . . . . ومع ذلك . . ومع التوقيف الاجباري التعسفي على حد تعبير اصدقائنا الشوام، فاننا وحدنا نعرف الطرق الخفية المؤلمة الى وجدان الشعب تلك سبل سلكها من قبل عبد الله

النديم وبيرم التونسي وسيد درويش وعشرات غيرهم من فناني الشعب المجهولين فامتزجت كلماتهم ومواقفهم . . ولم يعانوا ابدا من ازدواجية القول والفعل او تناقض القول والفعل . . كانوا جميعا نماذج شريفة وحقيقية لتزاوج القول والفعل . . الشعار والممارسة . . . الايمان بالشعب والتعمق في صحبته . . وقد دفعوا الثمن قهرا وتشريدا ومطاردة . ولكنهم عاشوا دائما في ضمير الشعب بينما اندثر- والى الابد- قضاتهم وجلادوهم . . يصادرك الان صغار الأميين . . ويلاحقون ابداعك الجميل باقلام تنضح بكل ما هو غث وتملأ الصفحات بآيات التمجيد لسواقط الكتاب الذين يكتبون ادبا للمناسبات ملائما لهوى كل حاكم واي حاكم . فهل تظن ان اي تاريخ بعيد او قريب سوف يذكر عن هؤلاء شيئا اللهم الا انهم اجتهدوا لتلويث ضمير الشعب . . ربما لن يذكر حتى اسماءهم ولكن التاريخ ليس ماضيا يندثر وحاضرا راكدا . انه حركة حية فوارة تتوغل فيها كلماتك وابطالك وكل ما تخلق عن ضميرك القومي التقدمي الانساني الحساس . . هل نقفز الى التاريخ حين يصيبنا اليأس احيانا . . . حين يدهم الظلام ! ! لا بل اننا نتقدم الى المستقبل . . الى التاريخ في قلب حركته الحية بهذا المعنى . . . سوف تبقى يا صديقي . . تذكرني هذه الكلمة باحد شعارات حزبنا . . سوف نبقى اوفياء لمصر الحرية والاشتراكية والوحدة . . أتأمله الان كانني اكتشف للتو طزاجته . . نعم سوف نبقى ولن تستطيع قوة الارهاب مهما تسلطت ان تزحزح هذا البقاء الفعال . سوف تبقى انت ايضا وسوف يوفر لك هؤلاء الشبان والفتيات مداخل سرية لا تعرفها الى الوجدان العام، فانت تسهم في صنع الاسس الروحية والاخلاقية والجمالية لطلائع الشعب، ويحق لك ان تزهو بهذه المهمة الجليلة ايها الصديق .

طالما تساءلت انا عن ماهية الوظيفة المباشرة للادباء، وكانت الاجابات القديمة الجاهزة تؤرقني وكنت انوي دراسة القضية بهدوء، وقبل ان اتي الى هنا قرأت رواية لكاتبة سورية شابة تدعى «حميدة نعنع» هي «الوطن في العينين» عملها الروائي الاول فقدمت لي رغم الملاحظات العابرة وبعض السفسطة والافتعال في بنائها- اجابة اولى- انها دعوة شعرية للانخراط في العمل الثوري- دعوة حارة مبدعة في بساطتها . . تقول لنا ان حياة جديدة تخلق كل يوم في خضم العمل الثوري في احضان الشعب . اما الاجابة الثانية فقد بدأت اتلقاها في القلعة لحظة وصولي الى هذا السجن الكئيب حين وجدت كلمات سميح القاسم وناظم حكمت ومحمود درويش وصلاح عبد الصبور واحمد فؤاد نجم كتبتها الفتيات والشبان التقدميون، والايات القرآنية التي كتبها المناضلون الدينيون من الجماعات الاسلامية . هذا هو الخلق الشعري المباشر الواضح . . الفن- السلاح . . الذي لا نستطيع ازاءه ان نسال كأكاديميين جامدين اذا ما كان ضرورة ام لا . ذلك نوع من الابداع يلعب دورا هائلا حين يزيح بضرباته القوية اثار السموم الاعلامية البذيئة، ويجلو القشرة الخارجية

للروح ليصقلها ويفتح المجال لبريقها الحقيقي، البريق الذي لا ينطفىء او يذوي ابدا لانه يستمد من روح المناضلين انفسهم وهجه وهؤلاء ينقلون الرسالة الى الشعب، يغربلون بالنيابة عنه كل اشكال الابداع ليصلوا اليه بخلاصة ما انتجه العقل والقلب الشريفان المهمومان ابدا بالناس. ان الذين سخروا من الاهازيج والاغنيات والحواديت الشعبية باسم الرقي قد خسروا كثيرا كثيرا وضيقوا عمدا افاق الابداع. بالطبع لا يستطيع احد ان ينكر ان التراث الشعبي مليء بما هو غث وان تدوينه لا بد ان يتم بعد غربلة حقيقية. ولكن هذا التراث الذي يتصل أعمق الاتصال بمنابع الالهام والابداع لدى الفنانين التقدميين يغتني كذلك بوجودك ووجود هؤلاء الفنانين والكتاب في وجدان هذه الاجيال الشابة المثقفة. ومع الزمن سوف تتغير مواصفات وملامح التراث الشعبي لان هؤلاء الشبان يجمعون بين فضيلتين: ثقافتهم من جهة والتحامهم بالشعب من جهة اخرى. فاذا ما اضفنا الى ذلك المواهب الفطرية لنفر منهم، لعرفنا اي مكسب يحصل عليه الابداع والشعب. والنموذج القريب والسهل لبوادر هذا الالتحام الفعلي هو اولا اغنيات الشيخ سيد درويش في بداية القرن واغنيات الشيخ امام في الربع الأخير منه. طبعا لا انكر ان الايقاع والغناء معابر سهلة الى الوجدان العام، ولكن نمو الثقافة وارتقاء الوعي وتزايد عدد المثقفين المرتبطين بالشعب والذين لا يجدون في تراكم معارفهم وثقافتهم حلية يتفاخرون بها ويكتسبون ثروة ومكانة، وانما يستخدمونها مباشرة في صنع التغيير واقامة العالم المنشود دون زيف أو تعال، كل هذا يا صديقي سوف يضعك مع الوقت في حبات عيون الشعب كفنان طالما انتمى اليه واختبر اوجاعه، وذاكرة الشعب قوية تختزن الكثير وهو لا ينسى ابدا ابناءه المخلصين والشرفاء. ارجوك ان لا تنظر الى رسالتي كأنما هي رسالة عزاء اكتبها بقصد التخفيف عنك من الام النسيان المقصود التي يفرضها عليك المزورون، فلا تنسى ان مسرحياتك الان تشكل جزءا رئيسيا من «ريبرتوار» معظم المسارح القومية في بلدان الوطن العربي، وان اضافاتك للمسرح العربي تكتشف الان وسوف تكتشف بشكل اعمق في المستقبل من قبل نقاد يعرفون جيدا طبيعة المسرح ووظيفته. وسوف اظل اقرأ الكلمات على الحائط واتخيل «اسامة» بطل «باب الفتوح» على طريقتي، واعود لاذكرك بهذا العرض البديع الذي قدمته كلية حقوق عين شمس لمسرحيتك وبهذا الحرارة التي شملت القاعدة كلها خشبة وجمهوراً وان هذا كله كان اكثر حميمية وصدأ من عشرات العروض التي قدمتها المسارح الرسمية.

إنني اعتز بصداقتك وبفنك الجميل وابعث اليك بتحيات حارة **فريدة**

صـــور مـن السجـــن

النســـاء والشطرنـج
السجـــن
جزيرة صغيـرة في العـدم
الساعة والكيروسين والذهب
مشـروع الراقصـــة المجهض
الأمـومـــة الآفلـــة
المفتـــاح
حول الخير ضيـــق الأفق

النســـاء والشطرنـــج

هل تلعبين الشطرنج . . . انها تغني أيضاً . . . تداخلت الجملتان حتى أنني لم أعرف أي الرجلين قال أيهما . . . كانت تلك فترة سماح استغرقت أقل من ربع ساعة فتح فيها باب زنزانتنا رقم ٢ في سجن القلعة . . كانت زميلتي هدى توفيق منهمكة في اعداد قطع الشطرنج من لبابة الخبز وكنت أغني احدى أغنيات الشيخ إمام الثورية التي كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم . كانت تعليقات الضابطين تحمل معنى الدهشة والاستنكار الخفي . . . نساء يلعبن الشطرنج ويغنين للثورة . . . وربما كانا قد نسيا للحظة أن النساء سجينات أيضاً . . . وأكثر من ذلك متهمات بالانتماء لحزب شيوعي سري . . . بدا ذلك كثيراً على النساء في نظرهما كما تصورت أنا معنى الجملتين، ربما لا يتذكر الرجلان أن هذا السجن قد أخذ يستقبل النساء منذ سنة ٧٢ مع الحركة الطلابية العارمة حينئذ، والغريب أنه لا تعتريه الدهشة لمجرد وجودنا في هذا السجن وانما يندهش لأننا نجيد في نظره هو وزميله- تلك المهارات الخاصة بالرجال وحدهم- فهو بحكم وظيفته كضابط سجون وبحكم الطابع البيروقراطي للوظائف يرى أن المتهم ينبغي أن يكون مسجوناً على أي حال وربما ينبغي أن يعاقب كذلك ولا يهم إذا ما كان هذا المتهم امرأة محبوسة في سجن كل حراسه من الرجال . . . ذلك أمر طبيعي بينما يتوغل فيه عميقاً ذلك الاحساس الضمني بدونية النساء عقلياً وهو ما يثير فيه كل هذا الاندهاش . . . حين أغلق الباب على دهشته وغنائنا . وابتسمت فسألتني زميلتي لماذا ابتسم قلت لها حين استلقي في فراغ الزنزانة الحارة المغلقة طوال النهار والليل اسأل نفسي هل يا ترى هذا هو المقصود بالضبط من استصدار وثيقة حقوق الانسان المصري التي يتحدثون عنها هذه الأيام . ربما لو قلنا ذلك لهذين الضابطين المندهشين لردا بأننا نحن النساء نطالب بالمساواة . . . ما هو الضرر إذن في أن يكون لنا حراس من الرجال في السجن، وأن يفتحوا باب علينا في أي وقت يشاءون من الليل أو النهار أليس لكل هذا أدنى علاقة بالأفكار الثابتة في ذهنه عن دونية النساء . . . انه يستطيع حتى أن يتحقق من ذلك . . إذا اهتم بقراءة الكتابة على

حيطان الزنازين . . . فتيات وشبان كتبوا أسماءهم وشعاراتهم، والأشعار التي حفظوها. . . وأحياناً قصائد حب لرفاق قلوبهم، ودونما كثير تأمل يستطيع أن يمسك بحجج وبراهين قوية تؤكد له مشروعية أفكاره عن تخلف النساء عن الرجال حتى في ميدان النضال السياسي أو الجرائم السياسية كما يسميها رجال البوليس والقانون. قراءة الكتابات على حيطان الزنازين متعة مزدوجة. . . إنها أولاً تقودك نسبياً الى العالم الداخلي الذي يكون صلابة الناس وتضيئه لك وهي من جهة أخرى تشغل جزءاً من الوقت الطويل جداً الذي ينقضي بصعوبة حين تمنع عنك الكتب والاذاعات والصحف والزيارات وكل شيء . . . يبقى لك فقط أن تستلقي وتقرأ الحيطان. . . للوهلة الأولى تكشف الفروق الواضحة بين الثقافة الواسعة نسبياً للشباب والمحدودة نسبياً للفتيات- هذا مع مراعاة أن عدد المحبوسين من الشباب هو دائماً أكثر بما لا يقاس- ولكن فارق الثقافة يظل واضحاً وتأكد لنا ذلك بعد أن انتقلنا إلى سجن القناطر للنساء إذ اكتشفنا بالمقارنة أن المصادر الثقافية المتعددة المتاحة للشبان هي أكثر كثيراً مما هو متاح للفتيات رغم انخراطهم جميعاً في نفس العمل السياسي، ذلك أن القيود التي يفرضها المجتمع على المرأة رغم التوسع في تعليم الفتيات وتشغيلهن تعوق انطلاقها الفكري والثقافي، تعوق أيضاً حركتها المادية نسبياً فتنشأ هذه الفوارق التي تتبدى في حصيلة أكبر من الأشعار المحفوظة لدى الشبان وحصيلة أكبر من الشعارات، وميلودرامية أقل في تناول الأمور السياسية وفي معالجة قضية الصمود، حيث تتسم كتابات الفتيات بعاطفية زائدة. . وضحالة نسبية فيما يخص الكتابات السياسية، أما رسائل الحب فانها تتشابه في أن معظمها يربط بين الحب والرفيق وبين الكفاح السياسي الذي ينخرطون فيه معاً، فلا الشبان ولا الفتيات يعالجون محبتهم لبعضهم البعض بعيداً عن الشعب والوطن. . ولكن هناك فارق أساسي هو أن الشبان بينما يكتبون أسماء حبيباتهم ويوقعون تحتها وتحت صورة القلب والسهم التي تتكرر، فان الفتاة تكتب اسم حبيبها ولا توقع. . وعدم توقيعها هو نوع من الرهبة أمام القيود التي يفرضها المجتمع على الحب وأمام التراجعات عن المكاسب التي كان الفتيات والشبان قد حصلوا عليها في سنوات سابقة حيث كان الاعتراف بالرفقة والمحبة بينهم أكثر مشروعية وأسهل مما هو الآن بعد تزايد نفوذ التيارات الدينية المتزمتة خاصة في الجامعات، وأيضاً تزايد الفروق الاجتماعية بصورة ملفتة للنظر.

قلت لنفسي لو أن الضباط لاحظوا كما لاحظت أنا هذه الفوارق لتأكدت لهم صحة اندهاشهم العفوي أمام شطرنج النساء. . وقلت أيضاً أنني في خضم عملي العام قد أهملت أكثر مما ينبغي النشاط النسائي المستقل. . وانسقت في زحمة العمل وراء فكرتي المعاندة انه ما من فروق بين الرجال والنساء وعلينا أن نعمل كزملاء ما دمنا قد اخترنا العمل السياسي التقدمي. . أي أنني

افترضت أن المساواة الفطرية للقدرات العقلية بين البشر حين يولدون لا بد أن تتجسد حالاً ما دام كل العاملين في الميدان الواحد ـ هو هنا ميدان العمل السياسي التقدمي ـ يؤمنون بالمساواة بين الرجال والنساء ويؤمنون بأن المرأة ليست أقل قدرة ولا ذكاء . . . ولكن الواقع العملي أثبت لي أن النساء بصفة عامة أكثر تخلفاً وجهلاً وأن الاحساس العميق بالدونية يتفشى بينهنّ كما هو بين الرجال بالنسبة للنساء وربما أكثر وانه حتى النساء اللاتي يعملن بالحياة العامة يعانين من مركبات نقص وانعدام الثقة بالنفس، تلك المثالب التي تشوب عملهنّ العام بالقصور وتترك بصماتها على جهد النساء، وتعطي للمعادين لتحرير المرأة أسلحة تصوب إلى حركة النساء وتجعلها أشد صعوبة . . . بدأنا مناقشة الموضوع . . . لماذا تنفر الفتيات من الانخراط في صفوف الحركة النسائية المستقلة ويفضلن عند بداية عملهن العام اختيار الميادين المشتركة . . . لا شك أن الأمر الأخير أسهل كثيراً . . ولكن التجربة والحياة تثبت لنا كل يوم أنه لا بد من التميز النسبي لنضال النساء في آخر المطاف وسوف يستمر ذلك طويلاً .

السجـــن

كيف ابدو. . تذكرت ذلك المشهد من فيلم الفراشة الذي عرض في القاهرة تحت اسم «الهروب من الجحيم» وهو يحكي قصة مسجونين في ظروف قاسية لم يكفا عن محاولة الهرب لعدة سنوات متصلة. . كان البطل يقضي فترة العقوبة بعد ان فشل في الهرب في زنزانة انفرادية تحت ظروف قاسية. . وذات صباح اطل جاره من الطاقة الصغيرة الشبيهة بالمقصلة وناداه سائلا انظر الي. . . كيف ابدو فقال له: انك جميل معافى. . وفي اليوم التالي مات السجين الذي كان قلقا ولا يرى وجه نفسه. . عاد الى ذاكرتي هذا المشهد بكل تفصيلاته حين انقطع التيار الكهربائي. . وسمعت صرخة عصبية يترامى صوتها الي من زنزانة جارتي التي تواجه زنزانتي «عايدة»كانت هي الاخرى محبوسة انفراديا وكانت خائفة. . السجن موحش في الظلام. . وموحش ايضا في النور. . جارتي لم تتخلص من عفاريت الطفولة فاصابها الذعر. وجدتني احاول تعزيتها. . قلت لها غني ان الغناء مثل البكاء يريح القلب وهي تبكي كثيرا واذا بكت في الظلام تحول العنبر باكمله الى سرادق عزاء. . جاراتها من الجهة الاخرى ثلاث فتيات مصدورات. . قضين سنين في هذا المكان. . تسلقن الشبابيك وامسكن بالسور الحديدي وكن ايضا فزعات. . قالت احداهن: هل تريننى كانت مخلفات طفيفة من ضوء النهار الراحل تسمح بالرؤية فقلت: الى حد ما: قالت بصوت عال كانما لتعوض الرؤية انك محظوظة منذ عام كانوا يطفئون الانوار في السجن كله بدءاً من السادسة مساء مفترضين أننا ننام أخذت عايدة تبكي بدلا من الغناء. . طال الامر حتى انه أرهق روحي. . صمتت قليلا ثم قالت انا لا ابكي خوفا بل لقد تذكرت زوجي. . . زوجها في سجن القناطر للرجال عجوز خائر القوى. . قالت انها في الزيارة الاخيرة وجدته مضربا عن الطعام ويكاد ان يتآكل، هو باكستاني الجنسية ومتهم بتزوير جواز سفره ولا يجد في هذا العالم كله سندا وهي الاخرى بلا حيلة. . السيدة تحب فريد الاطرش بعد ان سئمت البكاء والحواديت اخذت تغني اغنية حزينة. . وهي تطل من الفتحة المربعة التي ذكرتني بالفيلم ومع الاغنية كانت خربشتها المنتظمة في محاولة لفتح الباب لا تتوقف. . يحيط بنا الان اللا شيء داهمني فجأة ولعي القديم

بالجغرافيا . . اين يا ترى تقع القاهرة من النقطة التي اقف عليها الان في الظلمة اين الشمال واين الجنوب . . كيف هي خريطة الوطن بعد كل ما حدث. اين تسقط الدموع بالضبط . . لعلها تسقط بغزارة القنابل الاسرائيلية في جنوب لبنان وتصب في النيل . . النيل قريب جدا . . هل يا ترى هذا هو السبب في ان السفن الشراعية الكثيرة بدت صباح اليوم اعلى من اي يوم اخر . . . كم ام عربية تبكي الان . . وعلى كم مقبرة . . هل يجدون شواهد كافية . . اه كم عدد البكائيات العابرة في ارجاء الامة . . ارغب بكل قواي الان في التعرف على الحدود والخروج من الحدود . . القضبان لا تهم . . لا تعوق. ليست شائكة ولا هي تنغرز في القلب . . تهم الان تلك الجهات الاصلية وذلك اليقين والثبات الذي يجعلني اقول بشجاعة هذه حدود امتي . . هذه ليست خريطة ما . . انها خريطة امتي . . هي في الظلمة منتهكة انتهكتها قبلات ومواثيق . . كم شهيد يا ترى من اجل فلسطين . كم شهيد سقط على كل الجوانب . . اجد الان ان صديقتي التي فشلت دائما في الحب وكرهت الارقام على حق: الارقام اكبر من ان يستوعبها قلبي . . قالت صديقتي انني احب الجغرافيا . . احب البحار والانهار والجبال . . وكنت انا احب الارقام في الماضي وسوف اكف عن ذلك . بعد ان وقعت في حب الخريطة التي اجيد رسمها في خيالي حتى اكاد ارى حدودها الدقيقة في الظلام . . حين اشتد البكاء والهياج وطال انتظارنا للقمر قلت لنفسي . . آه هذا هو السجن . . السجن عاريا . . سور وقضبان نعجز عن رؤيتها لكنها في لحظات الاسى تدخل في دمنا . . لواحظ الصغيرة المصدورة اشعلت فتيلا فبدت منهكة اكثر من اية ليلة اخرى منذ جئت . . تجمد يأس عميق في عينيها وكانما تلفظه شفتاها الحازمتان روحها مثقلة بكل شيء وروحي انا كذلك . . سوف يملأ القمر السماء بعد قليل . . قلت لها انني سوف اراه على وجهها، ساعتها ردت سوف نراه جميعا على وجه ابنتي «سماح» ثم استسلمت عيناها لليأس وشفتاها للحزم . . بالامس كانت متوهجة كنيزك، حرة كجدول ماء صغير لا يعرفه احد غنت ورقصت وبكت وهتفت ثم بكت من جديد وسألتني هل سوف اخرج من هنا يوما حية . . لو خرجت سوف ابيع الترمس او اطبخ في الشارع للشغالين الفقراء الذين تحبينهم واغني . . هل انت لا تحبين الا الفقراء . . وهل تحبين كل الفقراء حتى السارقين . . وقعت في حيرة حقيقية كيف اشرح لها انني اؤمن بقدرات الناس . . . كل الناس واحبهم . . وهناك مستغلون ومستغلين . . يصعب جدا ان اشرح ذلك . . تذكرت ساعتها الصديق الذي لا يمل من تأكيد مقولته: لا يمكن ان يكون الانسان تقدميا حقيقيا دون ان يكون في داخله فنان حتى ولو لم يدرك هو ذلك. هذا هو ردي كيف اشرحه لها. هي الخبيرة بالحياة خبرة عميقة رغم اعوامها التي لا تكاد تبلغ العشرين . . هل اقول لها انني اؤمن بالانسان الذي يطمس الاستغلال روحه وان الاستغلال يطفىء ايضا روح الذين يمارسونه. انها لن تفهم ذلك . . كيف

يمكن ان يختفي لدى التجار شيء انساني لا يعرفونه هم . . أكف الان عن المحاولة واعترف بعجزي عن التواصل . . ليس الظلام هو وحده المسؤول . . اللغة مسؤولة . . يأس لواحظ مسؤول . ثيابي وزنزانتي ايضا . . ها قد اضاء النور من جديد . . وتبدأ مجاورة مباشرة واضحة للالم . . مجاورة الالم مثل مجاورة القمر في ليلة قارسة . . انها لاذعة ذات سخونة متخيلة . . المرأة تطرش دما احمر وحاراً . . رفيقتها تبكي بمرارة دموعا ساخنة وتدعو دعاء غامضا مرتلا من ديانتها . . ها قد تجاورتا وتعانق الالم والالم . . الدموع والدم . دموع ودم في سبيل لا شيء . . دون هدف واضح . . دون هدف على الاطلاق كان تشرشل يدعو الشعب الانجليزي الى تحمل المزيد من الدموع والدم لصد هتلر . كان لذلك معنى والان ما هو المعنى هل للعبث معنى في غير خيال الشعراء الفوضويين . . العبث يوحى بالعبث . . امسكت الفتاة بالشفرة التي خبأتها طويلا وجرحت ثديها بغزارة وابتلعت قطعة اخرى واخذت تئن . . اما رفيقتها التي ابتلعت بدورها مخدرا لا اعرف من اين اتت به ـ فشرعت تحكي كيف انها ذات يوم اشهرت اسلامها بالقول فقط ـ في وجه رجل لا تعرفه ـ وكانت سكرانة وحين افاقت في الصباح ذهبت الى الكنيسة التي لم تكن قد دخلتها ابدا ـ لعل القسيس يغفر لهانزواتها . تراكم السل والسعال والدموع . . وفي زنزانة اخرى مواجهة لاحتفال البكاء افترش القمر ارضا قذرة للغاية حيث كان الخراب المحلى في الكهرباء يكرس الظلام تصاعدت اصوات الطبول الوحشية . . ثمة احتفال يدار رغم كل شيء . احدى السجينات سوف تخرج في الصباح «يا عربجي هات عربية استنى الافراج» هانم السودانية الاصل التي قالت لي في الصباح انها ضاعت الى الابد . . سلمت نفسها في الليل لنداء القمر المنعكس على سطح المستنقع الصغير تحت شباكها . . من قبل كانت قد استسلمت للشذوذ كميتة وهـي تغني للنساء . وحين تصحو من اثر المخدر والقمر تلعن كل شيء وتبكي ايضا . . في صباح ما كانت قد القت خطابا الى الجهة الاخرى من السور موجها الى عسكري حراسة لم تر وجهه ابدا ولكنه عرفها من صوتها واحبها وعرفته من صوته واحبته . . حين القت الخطاب لسعتها عقربة وتقيأت من فوق السور وقامت صديقتها بفصد دمها . قررت يومها ان تتحجب تقربا الى الله وأخذ لونها يزول . . وهي منهمكة في العبادة والحجاب هجرها العسكري واخذ يتحدث الى صديقتها يبدو انه هو الاخر وحيد رغم الحرية . . وذات صباح آخر وقفت النساء على النوافذ يرقصن ويرمقن فضيحتها . . هجرها اذن ذلك الولد . . من قبل ان تاتي الى هنا وتعرف «حسن» من صوته وتبادله الرسائل المنمقة بالورد والقلوب المجروحة كان الولد الاخر الذي احبته منذ الطفولة والذي علم على روحها وجسدها علامات لا تحصى ولا تنسى ـ قد هجرها هو الآخر . وقادها اليأس الى شارع محمد علي والى السجن مرات ومرات . . وها هي سوف تخرج «لأعود من جديد»

ناهد صديقتها الاخرى عادت الى السجن هذا الصباح للمرة الثالثة . . كانت قد غادرته وانا فيه منذ عدة ايام . . ها هي تعود الى العري والوحشة الدائمة تمسح بلاط المستشفى عارية الصدر مشوشة الشعر زائفة العينين لا تجد من يعطيها سيجارة او خبزا تتعامل مع الاعقاب والحشائش . . . عادت هذه المرة وهي حامل . . اه كيف سوف يكون الطفل لم تفكر هي بالامر . . تركته- كعادتهن- لله . . في تلك الامسية انقطع التيار الكهربائي من جديد . . كان مشهد ناهد النهاري قد كمن في داخلي بتفصيلاته فاجهشت بالبكاء . . قبلها كنت افكر في ترتيب كتاب ما العمل؟ في اخر مرة قراته . . سألت المعلم العظيم بصوت عال . . وكنت وحيدة ايضا . . هل يجهش المناضلون احيانا بالبكاء . . امتدت يده تواسيني . . له ابتسامة حازمة وحانية . . امتدت يده تواسيني مرة اخرى وضعها على راسي وتذكرت مبخرة جدتي وكتبه التي الوذ بها حين تظلم الدينا . . كان جاسر بالامس قد صرخ في الحلم . . لم يكن حلما طويلا ولا ليليا . . كان في العصر تماما ساعة الاذان . . . . اداني ماما قمت فزعة وحين وضع معلمي الجليل يده على راسي هدات روحي وابتسم ابني الذي لـم استطع رؤيته بالامس في المحكمة ولا اليوم في الحلم ولا في الزيارة الاولى . . اكتفى بان يسمعني صوته . . ساعتها لاح كل شيء مستعصيا وبعيدا وكانت ناهد في داخلي . . كنت اقول على ان اخلق من الأحزان مباهج داخلية تخصني . . سوف اتحصن الان بالشعر القديم بصور البطولة، ببلاغة ابي القديمة بعد ان عجزت عن الاتيان ببلاغة جديدة في الظلمة فجأة اضيء النور وكان التيار قويا حتى ان مصباحي انفجر . . على ان اعتمد هذه الليلة على النيون المعلق فوق شباكي . . . بدا لي ضوؤه كانه القمر تكسر على العتبة والقطة الساكنة . . كدست القطة نفسها بجانب الحوض والحوض يتلقى بصمت نقط المياه التي تتدفق بانتظام والكواكب تنتظم في دورتها ولعل ورقة نبتت في شجرتي كأن شيئا لم يكن بينما اطل انا على العالم البهيج للمأساة . البهجة التي افجرها بوعي في كل شيء . . كنت اكتفي باطلالتي حين قرقع الصوت «بم» . وبدا اتيا من نفس البقعة التي لاح فيها النيون قمرا . . تكدست القطة ذات اللونين الابيض والاسود . . اختلطا . . كان يراود الملائكة ويشد الكواكب الى الارض ضوء اشد غرابة بدا الابيض والاسود وقد تبادلا موقعيهما وثبتا فيه معا . . اذا ماتت هذه القطة او ماتت ناهد وطفلها الذي لا نعرفه فلن يعلم احد الا إذا وجدوا الجثث ملقية في ركن او فاحت منها رائحة . . . ثمة شيء في الداعرات مكسور . . هذه السقطة . . «بم» . . ذكرتني بكل الداعرات في السجْن . . انها سقطتهن الجماعية النهائية التي لا رجعة فيها . . . جمعت هذه السقطة اشياء كثيرة تبدأ وتنتهي في نفس اللحظة . . ولكن رائحة العفونة لا تبدأ وتنتهي . انها تشيع من كل شيء في النور والعتمة . . في العالم الشاسع حين نغمض عيوننا والملعون حين نراه . . العفونة والمدى

نقيضان لا بد . . لكنهما في السجن . . في هذا السجن الملىء بالقذارة يلتقيان بحميمية نادرة . . المدى كله في هذه الليلة وفي الليالي الاخرى المضاءة بنيون ساطع وقمر ينطفىء تحملهما معا : المدى والعفن ثم تتلوهما في ظلمة الليل ضحكات الفواحش وما زال العفن مشبعا بالدموع دموع تشح في مقلتي انا بعد ان ابتسم لي معلمي لتفيض هناك . . كل ليلة لدى الام الصغيرة . . . الام التي لم تبلغ التاسعة عشرة جميلة وعفية كشجرتي . . مات طفلها وابوه مجند مفقود وقد فقدت هي كل علاقة بالعالم الخارجي ربما كانت الشمس هي صلتها الوحيدة، الشيء المشترك المضيىء الذي يخبرها كل يوم ان هناك أشياء وناس خارج الاسوار خاصة حين تغلق الزنزانة عليها . . هي منفردة لانها مصابة بالجرب . . تاتيها الاصوات . . زغاريد . صراخ . . طبول . . ثم اصوات الانهيار التي لا تكف عن النفاذ من حيطان الزنازين كل ليلة كأن آدميا سقط فجأة ميتا . . الموت . . . ما الذي ذكرني به . هناك في الدور العلوي من المستشفى قوادتان سمينتان جدا تصليان الفروض بانتظام مريضتان بالقلب تخشيان الموت . . ما معنى الدين لديهما . كونتا ثروة وهما صديقتان، حين تشرعان في صلاة الفجر تدعـوان بصوت حار وعال وبدا لي انهما تقيمان علاقة خاصة بالدين . . علاقة سرية، لا تفتأ احداها تقسم انها لم تأت المنكر . . جسدها هي طاهر . . . اما الفتيات اللاتي ارتبطن بها وجلبن الرجال اشكالا والوانا وجنسيات الى منزلها فهن وحدهن مسؤولات امام الله . . . كيف سكنت المرأة العجوز الى هذا التفسير لا ادري لكنه يقينها الكامل . . يتأكد لي ذلك كلما سمعتها تصلي وتدعو لاولادها حتى يبعد الله عنهم اولاد الحرام . . . وهي تدعو بحرارة ان تخرج من السجن قبل ان تموت ولا تنبس بكلمة واحدة عن التوبة . . حين سألتها قالت اتوب عن ماذا . . انا . . انا افتديت صاحبة البيت . . لها بيوت كثيرة تديرها وهي ثرية جدا تسافر كل عام هي واولادها الى اوربا ولها ابن يتعلم الطيران في امريكا . . حبست بدلا عنها مقابل مبلغ صغير. ليس نصيبي كبيرا في ارباحها الهائلة . . هذه ارباح تجنيها من اجساد الفتيات الفقيرات واعمارهن . . يا الهي كم سوف يكون علينا ان نكنس من اثام والام . . اخذت اتخيل هاته الفتيات في المستقبل . . سامية . . هانم . . ايمان . وغيرهن سبعمائة داعرة صغيرة مجهضة عشر مرات على الاقل تغلق عليهن ابواب السجن كل ليلة . . كيف سوف يستوعبهن المجتمع الاشتراكي، بات الباستيل مثلا قديما مكرورا . . الباستيل فتيات بائسات مهانات حتى اعمق اعماقهن خرجن لتحطيم الباستيل . . فتدن فجأة كل سمات وبصمات الخضوع والمذلة وشاركن في اهدار رمز المذلة لشعب بأكمله . . هاته الفتيات سوف يتعلمن البسالة سوف يغتسلن حتى اعمق اعماقهن من جديد ففي داخل كل منهن ومهما كانت بذاءتها ينكشف النقاب في الصمت والاسى عن ذلك النقيض الفاضل الذي لم يمس عن روح إنسانية تواقة الى النظافة والصدق . . في

مواجهة الزيف والقذارة. تواقة الى العمل والى صحبة حقيقية تحتوي عالمها. . الى معنى شريف لحياتها التي تغوص في القذارة. . في فيتنام، وبعدانتصار الثورة خططت الدولة الاشتراكية لاعادة تربية الفتيات. . الثورة تعني ايضا تحرير روح الناس. . الوصول الى اعمق المنابع الانسانية في كل الضائعين. مرة اخرى انتصارات التحرر الوطني هي ملاذي. . كنت قد استيقظت ذات صباح فوجدت روحي متعبة، شدني الاعياء العام الى سريري مع انني قبل النوم كنت اردد: وقد سقطت وردة مبتلة على شباكي وسطع القمر. . حسن ان القمر لنا. . لي ولحسين ورشا وجاسر لا بد اننا جميعا نراه وهذه الوردة المبتلة رسالة. . قلت ايضا حسن: ان السجن لم يدخل الينا ما دام في استطاعتنا ان نتبادل الرسائل. . يبدأ الشعور بالسجن حين تتعب روحنا حين تصبح القضبان المادية التي تنتصب فوق الابواب والشبابيك والمداخل والاشجار قضبانا معنوية تحجر على ارواحنا، تعوق توثبها وتشرخها، قلت للشجرة التي اطل عليها وتفصلنا عن المزرعة التي يعمل فيها المسجونون الرجال. . هذه شجرتي ولكن في الصباح وجدت انها ليست شجرتي. . كانت رائحة اكوام القمامة المتكاثرة امام شباكي قد تعفنت اكثر في العيد، وطوابير السجينات التي تتلاحق في كل الاتجاهات قد إمتلأت قذارة. . يا له من عيد. . ذلك مشهد كانما يلوح للمرة الاولى هذا الصباح. . انه مرسوم مسبقا في داخلي. . . وان الرائحة العفنة التي تجاهلتها طويلا تتجسد الان ويصبح لها ملمس. . افتش طويلا في الصباح ذي الرائحة. . على اي الحواديت نمت بالامس واي الطيور حلق وغنى. . هل كان السنونو الذي يحمل رسائلي الى الاحبة قد غاب ام ان الكروان قد التقط حبات لا اعرفها من شجرتي وغادرني. . كيف كان طعم الحبات هل هو مر. . لعله لم يكن كذلك. . تذكرت الان. . بالامس تحدثت لمدة ساعة الى زميلتي عن حركة التحرر الوطني. . احتميت بحركة التحرر الوطني وانتصاراتها وقواها الكامنة. . احتميت بها من حس الاغتراب العميق الذي لفني بعد توقيع المعاهدة. كنت اشعر بالعزلة. . الناس يؤيدون ما لا يفهمون. . يالله كم كنا بعيدين. كم اغتربنا. . تداركت نفسي بوعي برق في فراغ العفونة والأسى كم اقتربنا ايضا. . العودة قسرا الى التفاؤل. . حين لخصت في ذاكرتي من جديد كلمات الامس. . الملامح العامة لحركة التحرر الوطني. . عدت وقلت بل ان الاصل هو التفاؤل. . ليس التفاؤل واجبا وضرورة بل هو حقيقة. . لكن قبضة امريكا قاسية. . وهذا الحلف بينهما وبين اسرائيل وحكومتنا. . هذا الحلف الذي دفع بالمزيد من الداعرات اللاتي يتقاضين الدولارات الى السجن ويكون علينا حين ننتصر مهام اكثر. . مهام ربما اشد وطأة من تلك التي يقوم بها الفيتناميون.

هل يا ترى سوف تستطيع الإدارة الحاليةفي السجن أن تقوم بالمهمة حينئذ. تلك الادراة التي إن لم

تسهم في إستغلال الفتيات بالصمت او التواطوء فانها تعمق لديهن الشعور بالمهانة واللا جدوى. . . هناك امرأة مترهلة. . لماذا ترهلت وكيف. . لا ادري ربما حدث ذلك بالتدريج. . ربما هو اليأس. ان اللا جدوى تخصها هي ايضا. . ليست افضل حالا من السجينات رغم انها تسيطر عليهن بحكم وظيفتها. يتوهج العالم الخابي من جديد حين تطرح الاسئلة وهذه امرأة كفت منذ زمان بعيد منذ وئدت اول بنت- عن طرح الاسئلةاكتفت منذ ذلك الحين باستعمال كافة الغرائز والحواس والقوى الاخرى غير العقل. . خفت ان تكون كلماتي هذه انتقاما منها لانها ذات يوم رفضت ان تعطي مفتاحها لسجانتي حتى تفتح لي. . على ان اكون موضوعية لا بد ان ادرس الحالة كلها عن كثب. . ربما كانت البلادة ظاهرية ربما كان في اعماق هذه المرأة شيء حزين لا يبين تخفيه وراء قناع اللامبالاة والترهل. .وجدتها تمشي بازاء شباكي قلت من اي العناصر يتكون هذا العالم ايتها السيدة. .؟ هذه شجرة ايتها السيدة، وهذا ادمى يحبو ولد منذ عام وهذه امه حبلى وتلك مدرسة لا يتعلم فيها احد. . هل يتعلم فيها احد؟ سألتها مدعية السذاجة. . ما الذي يمكن في كل هذه الاسئلة ان ينعش رغبتها في التساؤل. . ربما لسعها شيء في كل هذا. . ربما. . لكن يبدو ان استنتاجي كان صحيحا. . انها مثلما ضاعت سامية منذ زمن بعيد وسلمت قيادها للفوضى. . سلمت هذه المرأة قيادها للبلادة. . تركزت كل الحواس في فمها. . تأكل دائما وكثيرا جدا تفوح لاكلها- الذي تطبخه السجينات رائحة قوية مفعمة بالثوم والبصل وعبق التوابل والمشهيات من كل صنف. . وبعد ان تأكل كثيرا تسترخي. لتدلك لها سجينتان قدميها وساقيها وربما أتوا لها بطشت يملؤه الماء الساخن مع قليل من الملح لتنظيفها من الاكل والرخاوة. . قلت ما هي الاسئلة التي تخطر لك احيانا أيتها المرأة. . وجدتها ساكنة تصورتني احدث نفسي ولعلها قالت في سرها- انه جنون الوحدة المطبقة. كانت تبدي استياءها الشديد حين تجدني منهمكة في القراءة وبينما تولت هي مهمة إعانة الفتيات على حفظ القرآن. . أخذت تتهكم كلما رأت الفتاة تسعى الى استكمال تعليمها. . وعلى أي حال فالفتاة التي تنهج على هذا النحو الصعب نادرا ما تنجح. . وفي نفس الوقت فان السيدة وكل من شابهنها يشعرن بالاجلال وحتى المذلة امام الثراء الفاحش لاحدى تاجرات المخدرات التي تتمتع بحريات واسعة، لا تستطيع هذه المرأة السمينة البليدة ان تدفع التاجرة الى الزنزانة ولا ان تطلب إليها حمل الماء لغسل قدميها ولا ان تعطيها ملابس اولادها لغسلها. . ولا الخضروات لتنظيفها. . ولا تستطيع ابدا ان تقول لها كلمة نابية او تنظر لها بغيظ. . قلت لنفسي الحمد لله. . اننا نحن السياسيات نوضع في الصف الطبقي الاعلى. . بالاضافة الى الخوف منا. فان التهم الموجهه الينا تضعنا دائما كانداد للحاكمين. . نحن دائما مرشحات في نظر السجينات الفقيرات للسلطة. .ما دامت الحكومة تقول اننا كنا ندبر لقلب

نظام الحكم. فلا بد ان تنجح مهمتنا يوما وهن يدركن بصورة غامضة تحتاج الى توضيح اننا على حق.. واننا ندافع عن الفقراء.... كثيرا ما قلت لنفسي ان السجن هو السجن.. السجن ليس شيئا بهيجا بحال.. وثمة شيء في تربيتنا وفي الاتفاق الاخلاقي العام يقول ان السجن عار.. ورغم ان سجن السياسيين يختلف.. وانهم يقولون في الاحياء الشعبية ان السجن «للجدعان» لكنني اعترف انني لم اتحرر كلية من ذلك الاحساس الداخلي بان السجن عار على اي حال، داهمني ذلك الاحساس- الموغل في الوحشة حين فتشتني سجانة مفرطة البدانة تفتيشا ذاتيا قاسيا، كانت تفوح منها رائحة كحول رخيص ومخدر لا اعرف اسمه.. تقززت من ملامسة اصابعها لجسدي.. كنت اسعى عقليا للاحتكام للمنطق... ذلك طبيعي انني قادمة من المحكمة.. كانت جلسة صاخبة... دافع فيها المحامون لا عنا وانما عن تاريخ الشعب المصري ونضاله.. وافرج عنا القضاة.. افرجوا عنا جميعا.. وتلقت اجهزة الامن صفعة مدوية، ربما تلقت السجانة السمينة توصية ما لا يذائي... ولكن العقل لا يوقف الغثيان.. عن اي شيء تبحث هذه المراة التي تكاد ان تفتشني تحت الجلد وتثقل قلبي وروحي بوجودها الضخم البليد ملأتني الرعدة.. قلت اه.. هذا ايضا هو السجن.. ودموعي هذه المرة مشبعة بالاحساس العميق بالمهانة.. بعد قليل تقيأت قرفي كله واجهاد النهار. ثم جاءت المرأة تدق بابي لتقول لي ان المخبر المخصص لي في السجن كان يجلس في الغرفة المجاورة.. لولا هذا لما فعلت بي ما فعلته.. ثم طلبت مني بصفاقة واضحة ان اعطيها علبة دخان اجنبي وباكو من الشيكولاته ويومها أنطلقت زغاريد كثيرة في العنابر التي سمعت بخبر الافراج عني وزملائي، ومع هبوط الليل اقيمت احتفالات خاصة رددت فيها السجينات اغنياتنا.. كانت بصمات الزميلات اللاتي سبقنني الى المكان واضحة.. انطلق هتاف «عاش كفاح الشعب المصري»..... كنت اسمعه هنا للمرة الاولى اعاد اليَّ صورة المحكمة.. وجوه رفاقي.. مباهج انتصاراتنا الصغيرة.. حالتي النفسية تتبدل بعنف تغزوني صور زوجي واولادي مبتهجين كما لو اننا معا ولم يحدث شيء، واسمع من الزنزانة المواجهة غناء عذبا.. غناء يخرج عن الايقاع اليومي للأسى «مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر» ها هو السجن ينحسر.. اصابع المرأة تختفي عن جسدي.. تتساقط الحيطان والقضبان.. واخرج اولا اخرج من هنا لا يهم ولكنني في قلب الهدير العام.. قطرة في البحر العاتي.. منذا الذي يستطيع ان يحبس البحر!؟

جزيـرة صغيرة في العــدم

استطيع الان ان اتسلق اشعة القمر واخرج من هنا. . . كانت هذه الكلمات التي قيلت بهدوء. . . منغمة واضحة وعميقة هي كلمات الامسية الاولى في سجن القناطر اطلقتها احدى الفتيات المحكوم عليها في قضية دعارة. . . فتاة في التاسعة عشرة وتقضي مدة حكم قدرها سبع سنوات. . جميلة وذكية. . . وخلال ستة اشهر كانت قد ادمنت البرشام. . «وسبراكس» وفانتوم. . . . . (ملحوظة: لم استطع ان احفظ بقية الاسماء. . .) كانت الصورة الشعرية الجميلة هي التي استوقفتني. . لم استطع ان اميز شكل الفتاة في الامسية الاولى رغم القمر. . اذ انها كانت تتسلق شباكا بعيدا وكانت تبكي كثيرا وتغطي وجهها بشال اسود قالت ان امها قد أعطته لها قبل ان تموت ونصحتها ان لا تضعف في السجن- الذي اعتادته امها- ولهذا كانت تغني أثر نوبات البكاء «واتحبسنا صغيرين سدينا». . أي استطعنا أن نصمد للسجن. . .

لم تكن هذه الصغيرة الجميلة نموذجا فريدا في السجن- ربما تفردت بخفة روحها وشجاعتها واحزانها العميقة التي تتدفق دموعا وكلمات شاعر، تدمن الغالبية العظمى من السجينات المخدرات باشكالها المختلفة كل حسب قدراتها المادية، وعند اغلاق الباب- الذي كثيرا ما يغلق قبل حلول المساء بوقت طويل. . . طبقا لمزاج السجانة- تبدأ الطقوس، تستدعي كل منهن مشادات النهار الصغيرة، وتشتعل النار لدى من يملك ان يطبخ لنفسه، وتنطلق الصرخات واصوات البكاء، ويحل الليل مؤلما وطويلاً، فتتعاطى المحظوظات سجائر الحشيش او اقراص البرشام الصغيرة التي ارتفعت اسعارها ارتفاعا باهظا يفوق بعشرات المرات معدل ارتفاع اسعار السلع الاستهلاكية سواء داخل السجن او في عالم الحرية «كما تسميه السجينات»، وبعد قليل يبدأ تسلق النوافذ وتتلاحق الصور المؤلمة كل يوم. . . كنت اتساءل لعلهن على حق اذن هؤلاء الفنانون والكتاب الذين عانوا كثيرا في حياتهم الاجتماعية لانهم ادمنوا نوعا من المخدرات كان يعزلهم في بعض الاحيان عن الحياة العادية ويسبب لهم المتاعب. . كان اول تعبير خطر على ذهني المرهق بملاحقة الكلمات والاغاني واصوات البكاء هو هذه الجزيرة الصغيرة وسط العدم. . وهي

بالفعل جزيرة وسط العدم . . تبدأ حكاية الفتاة بحلمها . . الخروج الى الحرية . . اجتياز كل هذه المتاريس من البؤس والحصار والجوع وسنوات الحكم الى الخارج . . النيل قريب للغاية . . ولا اعرف اذا ما كانت فكرة المراكب التي تتردد كثيرا في القصص المتناثرة للفتيات المخدرات ترتبط بهذا القرب الحميم . . يبدو ان الزمن على عكس تصور الكثيرين يزداد في حالة التخدير جمودا . . انه يتحول الى زمن اسن، زمن من التكرار . . تكرار الحلم . . تكرار الكلمات . . واستعذاب الدموع التي تتدفق بغزارة بسبب نفس الكلمات والاسماء المتكررة والاغنيات البذيئة التي تعقبها نفس الضحكات المليئة بخلاعة متعمدة . . خلاعة تحمل معنى تعذيب النفس واهانتها . . لا بأس ان تشتم الفتاة امها وابيها وقوادها وصديقها والزمن حتى تصل الى حالة من التفكك النفسي العام تفقد بعدها السيطرة على ذهنها وعلى يديها وعلى كل قواها ويبدأ العراك . . والعراك الليلي يختلف كلية عن عراك النهار . . في النهار تكون ساحته واسعة تظلها سماء بلا حدود في فناء السجن . . ولكن ساحة العراك ضيقة للغاية في الليل . . في عنبر يضم احيانا ما يزيد على مائة سجينة . . وهو الضيق المكاني الذي يفجر الاحساس الخانق بالحصار فيجسد السجن بكل ملامحه القاسية . . . الروحية والمادية . . وحين يشتد العراك تنهار معالم الجزيرة التي خلقت من العدم . . . ويبدأ البكاء الواعي والصراخ الواعي والاحزان المفتحة العينين فيتحاسبن ويفشين اسرارهن ويهدأن، واحيانا ما يبدأن احتفالاً اخر، احتفالا يعيدهن من جديد الى العالم الخارجي في شكل فرح او ماتم او مولد يمكن للسامع بانصات ان يميز فيها كل ما يحويه الغناء الشعبي من رقي وبذاءة في آن واحد، وكل ما في الايقاعات الشعبية من عويل وفرح وطقوس وملامح افريقية ويبدو ان هذه الايقاعات نفسها تلعب مع السجينات سيكولوجيا دور الزار . . فالضجيج المنظم والايقاع المتسق يستدرج الى حلبته حتى المتفرجين الصامتين ويستدرج الفتيات المخدرات من عالمهن الوهمي الخالص، ومن الزمن الخاص الذي خلقه . سرعان ما يتعالى الضجيج فتصبح النوافذ والابواب ودلاء البول والمياه وأدوات الطبخ الات هي دائما على اهبة الاستعداد للمشاركة في النداء الجماعي على السجانة لاسعاف مريضة او لجلب المياه وحمل الرسائل بين العنابر المختلفة . . . وقديبدأ البرشام من جديد حين يوغل الليل وتوغل الوحشة . . . ولكن برشام اخر الليل يختلف . . فاهلوسة العبثية التي تصحبه تتسم بالقنوط كلمات الندم واشتهاء الموت هي الانغام الرئيسية . . تلك الانغام الحزينة التي تسبق النوم- هذا اذا جاء- كما قالت فتاة في الصباح . . . «النوم هو اعظم نعم الله لنا . . احيانا اتعاطى عشرين حبة من الترانكلان اذا استطعت لانام . . . » يبدو ان ارهاق اول الليل وإستنفاذ مباهج الحبة الاولى يلقي على النفس غلاله من الاسى والانهاك الذي هو رفيق للصحو.

فاذا ما تساءلنا- على طريقة علماء الاجتماع من هو المسؤول الحقيقي عن هذه الاوجاع؟ كيف تدخل المخدرات الى السجون. . هل يواصل التجار المحبوسون تجارتهم في الداخل وكيف. . لوجدنا اجابات فاجعة ربما قلت دون مبالغة ان المخدرات تنتشر في السجن اكثر مما تنتشر في الخارج، وان اسعارها مضاعفة، وان شبكة من السجانات والحراس الرجال وكبار التجار في الخارج، وصغار التجار المحكومين ورجال الادارة تتكاتف في كل السجون- حيث تتشابه الصور- لخلق هذا السوق الداخلي الصغير وحمايته وجني ارباح طائلة من ورائه. قالت احدى التاجرات ان ارباحها الشهرية تتراوح ما بين ٤٠٠- ٥٠٠ جنيه ويمكن لمن يدقق في الامر ان يتعرف بصورة مادية مباشرة ويومية على بشاعة الاستغلال الذي يفرخ هذه الارباح كلها. تبيع الفتاة المسجونة مصاغا وملابس فاخرة، ويواليها القواد او الثرى العربي بالزيارة. . ومع مضي الوقت ينقطع كل هذا تبيع مصاغها، فملابسها. . فحذاءها فجهدها اليومي المضني حتى تحصل على البرشامة اليومية او سيجارة الحشيش. . . وعند التاجرات تتجمع هذه البضائع ليعاد اخراجها من السجن لتعود من جديد: سجائر وبرشام وحشيش ومأكولات. . . . وكثيرا أو غالبا ما تصل الفتاة الى حالة من الفقر النهائي المدقع. . . حين لا يبقى لها شيء غير جهدها تسقط حينئذ في حالة من البؤس والهزال والقذارة التي تعلق بكل شيء ثم. . . . . تأخذ في التسول. . تتسول حتى أعقاب السجائر التي ينشأ لها سوق، وتستسلم لحالة فقدان الاحساس بالكرامة او المهانة. . وتستوعب الامور كلها- ولعل الجسد الذي انتهك خارج السجن قد استعاض- اذا لم تسقط الفتاة في الشذوذ- عن مباهج الجنس المدفوع الثمن بهذا النوع من العذاب اليومي الذي يأتي اما على شكل رقصات وحشية مدمرة او ضرب وحشي من قبل السجانات او شجار لا يقل وحشية وبدون سبب أو المبادرة الى تعذيب النفس وهو الرد الجاهز عند أي عقوبة تلجأ اليها الادارة اذ تاخذ الفتاة في تقطيع جسدها بالموس، او ضرب نفسها في القضبان او التمرغ على الارض كحيوان أصيب بالصرع. . . وعندما تسيل الدماء يحل السلام. . . ان اشتهاء الموت ليس تعبيرا ادبيا من قبيل المبالغة. . انه حقيقة تجسدها. . . الفتيات التعيسات حقيقة تقول بها ملامحهن في مواجهة الدم والاسى العميق. . انه اشتهاء مشوب بالفرح. . . فقد انسدت كل السبل، وباتت الحياة أمرا مستعصيا وبهجة الأحلام أكثر إستعصاء، انها عاجزة كلية وبلا حيلة. . فقدت كل مقومات الصلابة في مواجهة المصير الذي يزحف اليها بهدوء. وذلك حين فقدت كل مقدرة على صنع جزيرتها الصغيرة في العدم الليلي. . . حين استحال عليها شراء البرشام والأحلام. قلت لنفسي لو انهن يتعلمن القراءة لو ان احدا اعتنى بتعليمهن. . . لوجدن في الصحف أوهاما بديلة.

الساعــة والكيروسيــن والذهـب

اليوم توقفت ساعتي . . . اذكر ان هكذا بدات رواية نجيب محفوظ «الكرنك» ولكن توقف ساعتي ادى الى موقف فكه للغاية ابعد ما يكون عن الرمزية الضحلة التي استهدف نجيب محفوظ الايحاء بها في بداية روايته . عند الظهيرة سألتني سلوى المتهمة او بالاحرى المحكوم عليها في قضية نشل لمدة سنتين- سألتني كم الساعة -وفوجئت ان ساعتي كانت قد توقفت وانها ايضا تعطلت . . قلت لها ذلك فانصرفت وعند اذان العصر بالتمام وجدت سلوى تدق شباكي خلسة وتتلفت حولها وتناديني ثم مدت يدها بساعة غاية في الفخامة لا اعرف ماركتها قائلة بحمية : خذي هذه لك . . . اندهشت ثم سالتها من اين اتيت بها؟ فقالت بلهجة منتصرة من عنبر المخدرات . . . . . كنت قد نسيت ان مهنتها الاصلية هي النشل وحين تذكرت ذلك انفجرت في الضحك فسألتني لماذا اضحك . . قلت لانني تصورت انك طيلة السنتين الماضيتين كنت تفكرين بالتوبة والرجوع عن النشل . . قالت «فشر» هل اتوب . . فهل تتوبين انت؟ انا اولا لا انشل الفقراء الذين تدافعين عنهم وثانيا انا جئتك بهذه الساعة من تجار المخدرات وكل فلوسهم حرام ثم القت علي محاضرة بليغة حول الفساد الاخلاقي والخراب الذي تتسبب فيه المخدرات . . الحشيش والافيون والبرشام . . . الناس يضيعون . . .

استوقفني التعبير التلقائي لسلوى الامية ، لما رفضت هديتها مازحة وقلت انني لن ادخل السجن بتهمة الشيوعية واخرج بتهمة النشل . . . قالت بنفس الحماسة انا التي قمت بالعمل وليس انت وهذه ساعتي انا على اي حال وكانت حزينة جدا حين عادت بها .

سلوى ذكية للغاية ، يلمع الذكاء في عينيها وكانما ركبتا بطريقة خاصة بحيث يخيل الى انها تستطيع ان تمد بصرها عبر كل الجهات ولها حاسة بصرية خاصة تكشف المخابىء . . . تتحرك في السجن كثيرا تخدم الناس بحمية ، تتعرف بدقة على العنابر والزنازين وتحصر كل ما تملكه السجينات ، لها قلب طيب . . واحساس خاص بما يليق وما لا يليق ، لا تشعر ابدا بأي خجل من

النشل الذي تعتبره مهنتها وطالما انها- على حد تعبيرها- لا تتسبب في اذى احد لحقه الاذى من قبل، فهي اولا تنشل القادرين وثانيا تشعر بالقرف من الفقراء ولا تنشلهم وهي لا تريد بالاضافة الى ذلك- ان تعمل عددا كبيرا من الساعات في اليوم. . . ولها عين بصيرة ويد مدربة تعرف الفقير من الغني «وتستلقط».

سلوى مقتنعة تماما ان هناك انواعا من الجرائم الشريفة مائة في المائة، وتقود المناقشة البسيطة مع نماذج من المتهمات او المحكومات في قضايا مختلفة الى اكتشاف سلم للقيم خاص جدا داخل السجن تحدده الفلوس قبل اي شيء اخر وبصورة واضحة ثم تاتي بعد ذلك طبيعة التهمة ونظرة المجتمع في الخارج اليها.

تمشي تاجرات المخدرات هنا مرفوعات الرأس واثقات محصنات بما يملكن سواء في خارج السجن او داخله تحتقرن كل الجرائم الاخرى باستثناء السياسية فالجميع يعتبرون تلك اشرف التهم على الاطلاق- ومن ناحية اخرى هن يشجعن اي عمل ضد الحكومة، فحين تضعف قبضة السلطة يسهل عملهن اخطأت ذات مرة وسألت فتاة جميلة اذا ما كانت تهمتها اداب؟ فردت بحدة: فشر مخدرات. . يكمن السر الحقيقي وراء سطوتهن الهائلة على السجن في الفلوس. وتجارة المخدرات رائجة جدا داخل السجن تجني منها المحكومات ارباحا طائلة وهنا سوق تتضاعف فيه الاسعار عدة مرات دون مبالغة. . الشاي يتضاعف ثلاث مرات وكذلك السكر والسجائر اما الجاز «الكيروسين» فيباع بمائة ضعف بالتمام والكمال أي ان ازمة الطاقة تشتد في السجن اكثر منها في اي مكان اخر من العالم كله، وتستغلها التاجرات استغلالا بشعا للحصول على اخر قرش من السجينات الفقيرات. . كانت إدارة سابقة للسجن قد سمحت للسجينات بالحصول على موقد كيروسين باستثناء السياسيات، ولا بد من وقود اذن. . . صرحت الادارة لعربة تحمل الكيروسين بالدخول كل اسبوع الى السجن لتبيع، الكمية ليست كافية. . . واصبح الكيروسين، مادة للتجارة البشعة في السوق السوداء. . كنت اضحك كثيرا حين استمع الى فقرات من مسلسل هزلي لشويكار وفؤاد المهندس يقول فيه «ان الحبسة غالية علي».

تبينت لي صحة هذا في السجن. ان السجن غال جدا وخاصة اذا كان المحبوس فقيرا فالفقر الشديد والجهل المطبق بالحقوق التي تنظمها اللوائح، وانعدام السيطرة الحقيقية واليقظة من قبل الادارة التي غالبا ما تتواطأ مع التاجرات يجعل المسجونات نهبا لعدد منهن لا يتجاوز اصابع اليدين من المحكومات بمدد طويلة، وهن في الغالب اما تاجرات مخدرات او قاتلات يسيطرن سيطرة فعلية على اقتصاديات السجن. تبدأ الخطوة الاولى مع دخول فتاة ذات مقدرة اي انها تتلقى

الزيارات المنتظمة من الاهل او الاصدقاء. في هذه الحالة تتلقفها واحدة من المؤبدات كما يطلق عليهن وتتبناها وتناديها الاخيرة بامي اما من يشابهنها في الوظيفة اي اللاتي تتلقين الحماية والوصاية مثلها فهن اخواتها وهو نظام يقدم في جانبه المعنوي تعويضا عن جو الاسرة والامومة والبنوة التي تركتها المسجونة وفي الخارج.

حين يستقر ذلك الامر اثر حفلة تعميد يقيمها العنبر مع حلول الليل لاستقبال الاخت الجديدة وتأمين مكان لمعيشتها، تقوم الام بعد ذلك بمصادرة كل ممتلكات الفتاة التي حملتها معها او التي تاتي في المستقبل وتتكفل بإعاشتها إعاشة كاملة. وسواء كانت مدمنة او حشاشة، فعلى الام ان توفر لها كل احتياجاتها، ولكن حجم الاحتياجات ليس مطلقا انه مرهون بمدى ثراء او فقر الوافدة الجديدة، اذا كانت ثرية نسبيا ومحكومة بمدة طويلة فانها تحاول في البدء ان تستقل بتجارتها وان تؤمن لنفسها ولاسرتها في الخارج ارباحا تطاول ارباح التجار الاصليين السابقين لكنها، وبعد فشل اثر اخر نتيجة اما ليقظة وتنمر التاجرات المقيمات او لان السوق مكتظ او لان المنافسة الجديدة عاجزة ماديا عن التمويل الأولي لعملها، ينتهي الامر بها بالقناعة بمشاركتهن وتصبح تاجرة «تابعة» على حد تعبير الاقتصاديين لانها عجزت عن الاستقلال انه اذن احتكار مصغر في سوق صغير زبائنه يقلون قليلا عن الالف سجينة.

اما اذا كانت الفتاة فقيرة جدا ولا تملك شيئا ولا يزورها احد- وتلك هي النسبة الغالبة- فانها تتعرض لنوع من القهر والاستغلال والاذلال الذي يفوق التصور.. تتحول الى «مرمطون»- خادمة في مستوى العبيد تخدم السجانة حتى لا تضربها، وتخدم الام التاجرة تغسل وتنظف العنبر وتطبخ وتهرب البضائع وتخفيها في حالة التفتيش، وتتجسس على التاجرات الاخريات وقد ينتهك جسدها بعد كل هذا.

من المفروض- نظريا- ان تقوم ادارة السجن بتشغيل الفتاة المحكوم عليها طبقا لمستوى مهارتها، ويتم ذلك بالفعل لكنه صورى في معظم الاحيان وفي حالة «التشغيل» فان الاشراف الحقيقي هو للتاجرات وليس للادارة تشتغل الفقيرة عشرة أضعاف لانها تتحول الى خادمة خصوصية... اما القادرة نسبيا فانها اما ان تتعلم بالفعل- التمريض او التفصيل- او العمل في المكاتب او انها لا تعمل على الاطلاق بينما هي «مصنعة» على الورق كما تسمى في السجن.

وتتعرض السجينة الفقيرة بالاضافة الى كل هذه المذلة للابتزاز من قبل السجانات اللاتي يفرضن اتاوات منتظمة على السجينات جميعا بلا استثناء- ما عدا السياسات- اما اذا فشلت السجانة في الحصول على شيء من السجينة الفقيرة فانها تستكتبها رسائل الى اسرتها في الخارج او الى من

يعولها لتبتز اموالها. ومعظم السجانات يقمن بجلب «الفلوس» من الخارج رغم ان تداول العملة ممنوع رسميا، وتحصل السجانة على ٣٠٪ فائدة وتصل احيانا الى ٥٠٪ من المبلغ المجلوب وتزيد عن ذلك اذا كانت السجينة في حالة ضيق شديد او احتياج عاجل للفلوس.. ولهذا نجد ان الغالبية العظمى من السجانات يتحلين بذهب كثير، واذا سألت واحدة منهن كيف تعيش وكم عدد ابنائها تكتشف ان معظمهن وخاصة اللاتي قضين وقتا طويلا في هذا العمل يملكن قطعا صغيرة من الارض في قراهن او يبنين بيوتا صغيرة في اطراف المدينة، وهن يعشن نسبيا حياة مرفهة مقارنة بمستوى دخلها الرسمي او دخل زوجها. وهن جميعا- وبلا استثناء تقريبا- مثلهن مثل التاجرات الكبيرات سمينات جدا لهن كروش ضخمة كثيرا ما يرتطم بها الذهب وعيون شرهة. وبالاضافة الى عمليات الابتزاز الخارجي فهن يأكلهن في جميع العنابر ولا اعرف حتى الان وانا اريد ان اتامل قليلا في هذه الوقائع- لماذا تدخل السجانة الى اي عنبر وفي اي وقت تشاء وتطلب الطعام والشاي على ارتفاع اسعاره وندرته وتنام احيانا اذ راق لها السرير او البرش. طبعا هناك اجابة اولية هي ان السجينة الفقيرة الجاهلة لا تعرف لنفسها حقوقا في السجن، بالاضافة الى ان السجانة تستطيع ان تمنع اي منهن من الخروج نهائيا من العنبر الى الحوش... الحوش امتداد للعالم الخارجي السماء والفضاء الشاسع وبضع شجرات خضراء متناثرة وقوة جاءت من خارج السجن عساكر ومسجونين من الرجال يقومون بالمهام التي لا تصلح لها النساء من اجل هذه الانفراجة المعنوية الضئيلة تدفع المسجونة كل شيء.. اكلها.. فلوسها.. كرامتها احيانا. اما ماذا تفعل السجانات بالسجائر والفواكه واللحوم التي تقوم بابتزازها اثناء الزيارة فهي تدخلها في دورة السوق وباسعار مضاعفة عدة مرات تشتريها السجينات بتلك الفلوس التي تجلبها السجانات من الخارج.. فمن يتحمل العبء كله.. انهن الداعرات وتاجرات الحشيش.. فالسجن يعيش على الدعارة.. هكذا قالت لي واحدة من المحكومات في قضية آداب لولا الدعارة ما اكل الناس هنا وشربوا وما بنت السجانات بيوتا وكدست ذهبا. واضيف انا انه الحشيش والافيون والبرشام ايضاً.

وبالطبع فإن التاجرات الكبيرات والداعرات الثريات والقوادات والقاتلات ينشئن ثروات كبيرة فيرسلن الى بيوتهن مئات الجنيهات كل شهر من التجارة داخل السجن.. اذن فالجريمة لا تتقلص بدخول المجرمين الى السجون انما تتوسع رقعتها وتشارك فيها اطراف كثيرة جديدة. فالبنت التي انحرفت لاسباب هي في معظم الاحيان خارجة عن ارادتها وناتجة عن الفقر المدقع الذي تعيش فيه اسرتها تخرج من السجن وقد امنت اشياء اخرى، الحشيش البرشام الشذوذ. وتتحول الى مجرمة اصيلة بالاضافة الى استنزاف كل ما كانت قد ادخرته من انتهاك جسدها خارج

السجن . . في السجن يتنازعها عاملان قاسيان : المذلة المرة وانتفاء اي عدل من ناحية ومن ناحية اخرى انعدام الفرصة للتأهيل الحقيقي للتوبة والرجوع الى المسار العادي للحياة . . فما من احد يؤمن حقا بأن الظروف الاجتماعية القاسية يمكن ان تقود الفتيات للانحراف وان تحسين الظروف يمكن بل لا بد له ان يؤهلهن لحياة انسانية حقيقية . فضلا عن ان المجتمع لم يعد يقدر الجهد الشريف والدخل البسيط والعرق . . إنما الفلوس- هي المقياس الوحيد لكل قيمة- لا يهم مصدرها . .

الساعة نسينا الساعة جاءتني سلوى في اليوم التالي وقالت لي إنها قد اعادت الساعة الى مكانها قبل ان يكتشف امر اختفائها احد . . فقد وجدتها لا تعمل . . ثم اضافت كنت انوي أن ابيعك اياها رخيصة جداً . . قلت لها مازحة تصورت انها كانت هدية . . .

مشروع الراقصة المجهض

استحوذت صورة تلك المرأة الشابة على مخيلتي هذه الليلة . . اخذت أتامل في حياتها واسعى الى فرز الصادق والزائف من حكاياها كما لو انني عرفتها منذ عشرين عاما، رغم ان معرفتي بها تبدأ منذ دخولي سجن القناطر . . امرأة لا تتجاوز العشرين . . مريضة بالسل والسكر والضغط . . ذات جمال ساحر- يخيفك من الموت، ذات صوت ساحر يحمل حس الفجيعة المجرد، وذات دفء انساني لا يوصف، لها نبل في الصفات شاذ في ظروفها، تعتز بكرامتها الى حد الجوع دونها . والحق انني الى ان عرفتها كنت اعتقد بمعرفتي الكثير عن مواهب الشعب، وان قراءاتي ومعرفتي بتاريخه وشخصياته الملهمة وشعرائه تعطيني حق الادعاء بمعرفته، فضلا عن انني احبه هكذا مجردا . . واحب كل الناس مجسدين في الشعب الكادح الفقير الموهوب . لكنني اكتشفت لدى معرفتي بصديقتي المرأة الصغيرة انني لم اكن اعرف الا اقل القليل عن هذه المواهب . . . فهي ليست مجرد صوت جميل ووجه حسن وصدق عفوي وذكاء لماح وانما فيها قدر من الشر والفهلوة والطيش يكفي ليجعل منها سارقة ومغنية في الاريزونا وعاشقة مدلهة لزوج لا يسأل عنها منذ عام . اننا نخطىء كثيرا اذا ما كتبنا تاريخا للانسان من زاوية فضائله وحدها . اذ ان الشرور التي ارغمت هذه المراة على التمرغ فيها لانها لم تجد من يفهم معنى قدراتها فهما حقيقيا- هي في النهاية تعبير عن ذكاء مهدور وطموح للمغامرة وللتعرف على العالم، انها تعبير عن نزعة خير اصيل وعقل حي أسيىء توجيهه . لا اريد ان اخلص الى نتيجة تبدو كما لو انها تمجيد لما ارتكبته من جرائم، وما زالت حتى الان ترتكبه في حق نفسها حين تتعاطى البرشام والحشيش وتدخن بشراهة وتأكل قطعا من الزجاج المكسور لايذاء نفسها اما رغبة في الموت او اثارة الاهتمام، ولكنني انظر الى الأمر من زاوية ان تلك هي فضائل الشعب ومثالية في قمة تجسدها وتوهجها . ان الفضائل المدفونة والمواهب المذلة التي تلمع من حين لاخر وبالصدفة تخلي مكانها للمثالب التي قادت هذه المرأة الى السجن، وسوف تقودها اليه من جديد اذا خرجت منه حية هذه المرأة تغني بحرارة آسرة تنفذ الى صميم القلب،

وعندما يحل المساء تجلس على شباكها لتغني «يا حبايبنا فين وحشتونا»ولا ابالغ اذا قلت ان اداءها اعمق تاثيرا وايحاء باللوعة الحقيقية من اداء الشيخ امام اذ تعد هذه واحدة من الاغنيات التي يبدع في ادائها ويتألق لماذا؟ لانها تضع في هذه الاغنية خلاصة حياتها القصيرة في الايام والطويلة في الخبرة والتجارب والألم، وحيث انتهت بها الحال الى وحدة خالصة كاملة، تخلى عنها مع الزمن كل الذين التفوا حولها في الماضي سواء احبوها او استنزفوا مالها وقواها. المرأة ترقص احيانا ولها جسد فذ كأنما خلقت راقصة، وحين ترقص تعبر بوجد حقيقي عن قدرات الجسد.. عن الفرح وعن الألم تعبر بوجد اقرب الى اندماج المتصوفين وتحكي برقصها حواديت تجسدها بحركات جسدها ويديها ورأسها فلا يشعر الانسان امامها الا بالجلال، رغم ما في رقص البطن هذا من ابتذال وسوقية عامة. تذكرني شخصيتها بزوربا اليوناني الرواية والفيلم سواء حوار«كازنتزاكس»او رقص «انتوني كوين» تذكرني بما فيه من مباذل وفضائل وقدرات، فهذا البطل اليوناني الاصيل الجامح، ظل يعيش الحياة بكل جوارحه وطاقاته الى ان مات، يكذب ولكن كذبه مليء بمباهج الخيال، يحب بكل كيانه حتى انه حين مثل دور العاشق الولهان لامرأة عجوز أفلت حياتها واخذت تعيش على ذكرى ماض وهمي مختلق وتتصور نفسها مغنية كبيرة، بينما كانت مجرد غانية قبيحة، كان وهو يمثل وله العاشقين صادقا بصورة فاتنة... هذه المرأة مثل زوربا تعيش على الوجدان والاحاسيس والرقص تعيش ايضا على اقل القليل لانها لا تملك شيئا... لكنها حين تملك شيئا ثمينا ذا قيمة... قد يكون في هذه الحالة علبة سجائر «سوبر» كليوباترا او مستوردة فانها تشارك فيها الاخريات بامتنان ومودة... ومثلها مثل زوربا اينما حلت تخلق البهجة، ترقص حكاياتها وكلماتها. حينما عجز زوربا وهو في زيارة لموسكو عن التفاهم مع رجل روسي سامره وشرب معه ليلة كاملة دون ان يعرف كلمة واحدة من الروسية. ماذا يفعل وهو يريد ان يقص لصديقه الحميم هذا حكاية يونانية «حكاية من المنجم»... اخذ يرقصها له، وفهم الاخر لغة الرقص التي تتسم بصدق بدائي غلاب، وتعمقت الصداقة بينهما... تماما كما ترقص المرأة الصغيرة في عنبرها المغلق كل مساء، وقد تناولت بين الحين والاخر ذلك المخدر «البرشام» الذي يزيدها توهجا للحظات. وحين اتامل ملامحها اقول لنفسي لا بد ان علم الفراسة الذي يقوم في جانب منه على قراءة الملامح المميزة لوجه الانسان وتكوينه ينطوي على شيء من الصدق. تلك ملامح كائن يحب، رغم ان المجون والجلال يتجاوران في سماتها، المجون مكتسب والجلال فطرى... او هكذا ارى على الاقل، فهي رافعة الراس ابدا ذات كبرياء، وتحضر حتى وهي تتسول اكلها وسجائرها، وهي رغم القذارة العامة المحيطة بها من كل جانب في عنبرها وفي السجن كله حريصة على نظافتها الشخصية تتزين من حين لاخر فتصبح غجرية نافرة كانما القيت في فناء

السجن بالصدفة، وهي تتزين على طريقة الغوازي فتكثر من الالوان على جفونها، ومع ذلك لا تفقد ملامحها هذا الجلال المأساوي المميز او تضيع في الابتذال. فقط يلوح المجون في عينيها وصوتها وتتغلب تلك القشرة الخارجية التي كبلت روحها وجلبتها هي من شوارع محمد علي والهرم قبل ان تنغمس في سرقة السيارات، وتغيير عشاقها بين الحين والآخر. ولكنها اخيراً وشمت على ذراعها الايمن اسم طليقها وعلى ذراعها الايسر اسم ابنتها. . . والوشم اخضر عميق يبرز اصفرار بشرتها المريضة داكناً، وقد ركزت كل طاقتها الروحية في حبها اليائس لابنتها وطليقها وهي لا تفتأ تكشف عن ذراعيها للعابرين حتى يقرأوا. . . وهي لا تعرف القراءة.

ذات مساء، وبعد ان ابتلعت برشامة لم اكن قد عرفت بعد كيف تحصل على فلوسها واتضح انهاتبيع اكلها في مقابل السجائر والبرشام- قالت وهي واقفة على سور شباكها: ان نصف القمر ونصف الشجرة كما يبدو ان لي من خلف حديد الزنزانة يشكلان رغيفا تقطعه حزمة فجل وعليها وجه إبنتي لو قلبت الصورة سوف اجد وجه زوجي السابق جميلا كقمر لم ينشق ثم اخذت تبكي. . حيرتني صورة القمر التي تنبثق في لا وعي الفتيات التعيسات حين يستسلمن لتأثير المخدر، وقلت لنفسي ربما لانه يطوف بصورة رومانسية على الاحبة قبل ان يجيء او يذهب او ربما يشكل لهن رابطة ما مع العالم الخارجي الذي حرمن منه. . كفت المرأة عن البكاء ومسحت دموعها ثم انطلقت تغني بصوت مفاجيء وشجي «انا رحت القلعة وشفت حسين. . حواليه العسكر والزنازين» وكانت بالطبع تعرف ان زوجي مسجون في القلعة ثم تبعتها بأغنية «صباح الخير على الورد اللي فتح في جناين مصر. . صباح العندليب يشدي بالحان السبوع يا مصر ». . كانت عزة بلبع التي غادرت السجن قبل بضعة شهور قد علمتها اللحن والكلمات واجرت هي التغيير الملائم لحالتي. . كانت تطلب رضائي ولم تطلب شيئا في المقابل لنفسها ابدا حتى وهي جائعة كنت ادرك من نظراتها انها جائعة، وفي يوم شديد البرودة فاجأنا جميعا في أكتوبر وكانت قد باعت اكل المصدورين المخصص لها من البيض والحليب واللحم لتشتري سجائر. . مادت بها الارض وسقطت وحين افاقت عرفنا انها لم تأكل شيئا طيلة اليوم. . لم تأكل شيئا على الاطلاق خلال اربع وعشرين ساعة. . هذه انسانة تسعى الى الموت بتعمد رغم كل ما فيها من مواهب وطموحات غامضة وامكانيات لا تعرفها ولن يقدر لها ان تعرفها ابدا. . وجدتني اتأمل مستقبل الناس حين تقوم الاشتراكية. . في الماضي كنت اسخر من كلمات صلاح جاهين التي يغنيها عبد الحليم حافظ «تماثيل رخام ع الترعة واوبرا» لم لا؟ سوف تنجب كل قرية فنانيها وتكشف عن خباياهم. . سوف تعود ثقافة الشعب اليه في صورة ارقى. . في صورة منقاة. . . لا بد لنا ان نطارد المثالب نكشفها ونكشف معانيها الاجتماعية ليصبح هذا الصعلوك في زوربا مغامرا وفنانا كبيرا لصالح

الانسان . . ولتنمو وتتألق مواهب المرأة الصغيرة التي اختبرت الحياة وشربت مرارتها على حد تعبيرها، ويتعرف عليها الناس في صورتها الفاضلة الطموحة . . ليست مواهب الشعب خيالا مختلقا كما يدعي البعض، وليس المثقف والفنان الكامن في كل انسان حلما يفتعله الاشتراكيون . . تذكرني الان صورة المرأة الموهوبة الداعرة السارقة وتعيد الى خيالي دون ان امسك بها صورة اخرى لفتاة في مثل عمرها تشابهها في الملامح ولكنني رأيتها رؤية عابرة . . فقط استمعت اليها وهي تتحدث بحرارة عن الرقص . . كنا في زيارة لمديرية التحرير اول محاولات ثورة يوليو لاقامة الزراعة الجماعية واقرار الملكية العامة واستصلاح الاراضي . . كان مسؤولا عنها مجدي حسنين وصحبناه بعد ان تكالبت الرجعية المصرية على التجربة التي وضع فيها حماسه وشبابه هو ومجموعة من الزراعيين من مهندسين واساتذة . . واجهضوها لدرجة انهم قاموا بتفكيك المصانع الصغيرة التي كانت معدة لتصنيع منتجات المديرية . . ولتصنيع الملابس الجاهزة . . ذهنا لزيارتها بعد عشرين عاما فكان اول من لقينا تلك الفتاة ذات العينين المتسائلتين الذكيتين . . لم يتذكرها مجدي حسنين ووجدتها تذكره بنفسها بجرأة: لقد علمتني الرقص يا مجدي بيه . . لقد ارسلتني الى موسكو وعدت راقصة في فرقة الفنون الشعبية . . في ذلك الوقت كانت المحافظات تتبارى في انشاء فرق الفنون الشعبية وتلتقط الفتيات ذوات الاستعداد والموهبة، واخذ المجتمع يتقبل هذه الظاهرة ويستمتع بها . . والان قد تراجعت فرق الرقص الشعبي، وانطفأت تلك الشمعة الصغيرة التي كانت قد بدأت تنير لنا الطريق الى مواهب الشعب . من المؤكد ان صديقتي الصغيرة الموهوبة سوف تموت في السجن دون ان يتاح لها ابدا ان ترقص وتتجلى امام جمهور ينظر الى موهبتها باحترام . . وفي عالم يرعاها .

ملحوظة: ماتت صابحة أحمد بعد خروجي بشهر.

الأمومـــة الآفلـــة

فتحت شباكي فجأة اذ كان الكروان يحط على حافته وطفل يبكي ويأكل. الطفل اجمل من ابني الذي اعده انا اجمل الاطفال جميعا. . تساءلت اذا ما كان الاطفال يحبسون ايضا؟ ردت امه التي جاءت حافية نعم ولدته هنا وها قد كبر. . تذكرت على التو الكلمات التي كتبتها لابني الصغير جاسر نحن نناضل يا حبيبي الجميل حتى ياتي الاطفال الى هذا العالم فيجدونه خيرا، حرا حقاً، خاليا من الظلم وجديرا ببرائتهم. وجدتني اتساءل عن اية براءة اتحدث. . عينا الولد الصغير تفتقدان شيئا طالما وجدته حتى في عيون الاطفال البؤساء الحفاة. هذا الطفل بدأ عامه الثاني وهو سجين. . هذا سجنه وهذه امه داعرة صغيرة امتلا جسدها باثار الضربات المريرة للقوادين فعن اي خير اتحدث انا اليك. . كم اخشى ان يكون الحلم الذي يخيل الينا اننا امسكنا باطرافه قد ابتعد. . بات يوتوبيا. . هذه أمومة سعاد الصغيرة تجرحني في الصميم، دونها اغلق بابي وشباكي على وجه طفلها وصوت الكروان معا. . واتساءل هل يمكننا ان نتحصن ضد العذاب امام كل صورة جديدة من صور الشقاء الانساني فينقلب العذاب الى صحبة عابرة. . الى امومة مضاعفة حارة وثرية. قلت لن اغلق شباكي ولن اغلق روحي دون هذا الولد احمد ودون رمضان الصغير في شارعنا الذي فقد امه وطرد من المدرسة ولم يربت على كتفيه احد او يضمه الى صدره. . هذه الامومة. . الامومة المفتقدة في فراغ العالم القاسي. .هل اقول انني لست نادمة لانني احب أطفالي ايضا، وان حبهما لن يجعلني اتخلى عن اختياري ،انه لن يعوقني. . ربما يؤلم في الظروف العاصفة لكنه لا يحبط. . كانت صديقتي الطيبة تقول لي باطمئنان انها عندما تستمع الى بكاء طفل تفزع الى شباكها فربما كان ابنها هو الذي يبكي وحين تكتشف ان البكاء لا يخصها تغلق شباكها وتنصرف الى الاشياء الاخرى تستعيد الهدوء والامان. فلم يحدث شيء حين فتحت شباكي واغلقته وجدت ان اشياء تحدث، دموع الباكين تلاحقني، قلت سوف اكتب رسالة لصديقتي الطيبة اقول لها لو ان كل الدموع تخص كل الناس لما سالت بهذه الكثرة. هذا الولد الجميل وامه ودموعها

يلاحقوني . .دموعها على الخصوص وعذابها يخصني . . . حين اقول ذلك لاطفالي هل أدفعهما عمدا الى الطريق الوعر . احببت دائما كلمات المسيح اجهدوا للدخول من الباب الضيق . . الى متى تظل الابواب بهذا الضيق . . . ابواب الزنازين وابواب البيوت المشبوهة التي تفتح ليلا وخلسة لتخرب اجساد وارواح فتيات مثل سعاد . . ها هي امومتي تقودني الى التأمل في خراب العالم . لا اريد لطفلي ان يكونا انانيين سوف اقول لهما دائما ان الحب حين يخرج من اطار عالمنا الجميل الصغير الذي يضمنا معا يصبح اخصب واجمل . . هذا لا يعني ان عذاب فرقتنا ليس شديدا . . هل هذه كلمات انشائية اتعزى بها عن غيابي عن اطفالي وغيابهم عني ، سألت نفسي ، وكانت الدموع تقدم اجابات وفي اشراقتها بانت وجوه الاطفال الاخرين فاطمأن قلبي . كانت فتاة ممن سبقنني الى هذه الزنزانة نفسها قد رسمت وجه طفلة ذات ضفيرتين طويلتين وعينين مندهشتين ابدا وابتسامة فاتنة وكتبت تحت الصورة من اجل ابتسامة مشابهة على وجوه كل الاطفال في بلادي انا هنا . . . كل هؤلاء الاطفال الذين لا اعرف لون عيونهم يحلمون بمباهج العالم ولا يجنون منه سوى البؤس والقهر المادي والمعنوي الدائم . . يولد الانسان عجينة محايدة تتشكل في الحياة وفي الظروف . . وحين يكبر احمد في كل هذا الالم كيف يمكن يا ترى ان تتشكل عجينته المحايدة في الاصل؟ وحين تقهر الامومة الفياضة في هذا الالم فكيف تراها تتشكل في الحرية المحدودة خارج اسوار السجن؟ كيف لا تتشكل بعد ذلك في الدعارة من جديد وفي المرارة من جديد . . هل تحلمين يا زينب بالاطفال . . ان يكون لك طفل سألت صديقة سعاد . . قالت انا اجهضت كثيرا . . لا اعرف اذا ما كنت سوف استطيع ان الد . . هذه الفتاة مشروع محطم مجهض ابدا لام تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، قضت طفولتها في السجن مع امها، وحين خرجت الى الحرية ورثت مهنتها . . الدعارة انها مهنة امي ماذا افعل؟ قالتها بلا مبالاة كانها الشيء المنطقي والبديهي الوحيد.

تضم هذه العنابر سبعمائة داعرة على الاقل فكم حلم مجهض تنغلق عليه الزنازين كل مساء يا ترى؟ كم مشروع ام طيبة تحطم الى الابد . . وكل هذا الحنان المسفوح زيف على ابواب الشقق السرية والفنادق الصغيرة والكبيرة . . قالت لي فتاة . . الفنادق الكبيرة . . لا ان داعرات الفنادق الكبيرة لا يحاكمن ولا يحبسن ابدا . . انهن حتى يلدن ويعطين لابنائهن اسماء الاباء الحقيقين او وهميين ولا يحاسبهن احد . . مرة اخرى الفلوس تحمي كل ما لا يبيحه القانون . . الفلوس تحمي الفلوس ايا كان مصدرها حتى ولو كان انتهاك روح وجسد آدمي الى الابد.

المفتـــاح

جاء ضابط السجون الشاب مهرولا من سجن الرجال المواجه لنا. . . وبدأ الاحتفال الذي شهدته من شباكي وقد ملأني الخوف. المرأة متسولة عجوز تقيم في عنبر الضعفاء الذي يضعون فيه المسجونات المسنات، ولها ابنة محبوسة في عنبر التسول. ولا اعرف كيف بدأت حكاية اتهامها بالتدبير لسرقة المفتاح. . في هذا اليوم ضاع مفتاح العنبر. . حين ازف موعد اغلاق الزنازين بحثت السجانة المدللة الجميلة عن المفتاح فلم تجده. . لكل سجانة عدد من السجينات الخادمات تدعى كل منهن «نباطشية» تختص احداهن بحمل المفتاح وهو ما يعد امتيازاً كبيراً لان حاملة المفتاح تستطيع ان تتحكم الى حد في حركة السجينات. في هذا المساء كان ضياع المفتاح شيئا بهيجا للغاية. . خرجت المتسولات الى فناء السجن وما من احد يقوى على السيطرة عليهن، لا بد من جهد مضاعف لجمعهن من الاطراف والاركان لا يدري احد من الذي باح بذلك السر غير المضمون: ان المفتاح مع ام احمد وانها هي التي خبأته وينبغي ان تعترف العجوز بمكانه نجح العسكر والسجانات والمشرفات في جمع الفتيات من الفناء حتى يشهدن حفل الاعتراف واخذ الضابط في ضرب المرأة العجوز، في البدء كان رقيقا جدا، وكان صياحها عالياً، اعلى ربما من صرخة الالم، كانت تمارس لعبة نفسية ضد الضابط الشاب الذي لا شك انه يشعر بالحرج، فالمرأة في عمر امه ان لم تكن في عمر جدته. . ولكنه معرض الان للعقاب. فقد ضاع المفتاح. . ويبدو ان المعادلة نضجت بسرعة في ذهنه وقلبه فأخذت الضربات تزداد قسوة وتتسارع، وصوت المرأة العجوز التي انهكت بسرعة يخفت وهي تكاد ان تدخل في حالة اغماء. . الجمع صامت وقد غابت الشمس تماما. . ولم تدل المرأة بأي اعتراف الغريب ان السجينات الصامتات طوال المشهد قد تنهدن بارتياح عميق لانها لم تقل شيئا. . ومرت سارقة صغيرة، قلت لها: حسن ضربت المرأة بقسوة ولكنها لم تعترف.

قالت: وهل هذا ضرب. . في أقسام البوليس يعلقوننا في الخطاطيف ويضربوننا حتى ننهار ولكننا

لا نعترف ابدا . . ان الاعتراف فضيحة . هم لا يقبضون علينا الا متلبسين . . الكارثة الحقيقية هي أن نفشل في اخفاء مسروقاتنا قبل ان يأتي البوليس . . في الصباح يجرين على البلاط حافيات قبل ان تأتي النيابة . وحتى لا يميز احد اثار الضربات . .

قلت لها: هل تعتقدين ان ام احمد هي التي سرقت المفتاح؟ ولماذا؟

لم تجبني الفتاة . . كنت افهم ذلك . . انا لم اتحدث اليها من قبل ولعلها لا تعتبرني مسجونة . . انا اقرب شكلا الى الكبار، لا البس ملابس السجن . . فما زلت تحت التحقيق، واتلقى ماكولات كثيرة واقرأ كتبا، من يدريها اذا باحت لي بسر ام احمد ان لا اكون واشية جرحني ذلك الاحساس، وملأني الكتمان بالغيظ اطلقت المرأة العجوز صرخة عالية جعلت الجمع كله يلتف حولها من جديد، ونقلوها الى المستشفى . . في الصباح جاء المأمور ومدير المنطقة ومدير مصلحة السجون وحشد كبير من المسؤولين يبحثون عن المفتاح . فتشوا الزنازين ودورات المياه . . والاشجار . ومن حسن حظي ان كوم القمامة العفن المواجه لزنزانتي منذ اسبوع قد ازيل بحرص بالغ . . استمرت حالة الطوارىء معلنة خمسة ايام كاملة دون ان يصل احد الى شيء . وفي الليلة السادسة وبعد ان هدأ البكاء والغناء وزالت اثار الحشيش والبرشام والمشادات، انطلقت صرخة جماعية مرعبة ومفاجئة من عنبر التسول . . انفتح باب العنبر . . وهربت فتاة هكذا قالت الصيحات، وجاءت الادارة لتجد باب العنبر مفتوحا بالفعل . . وليثبت الاحصاء الليلي ان سجينة قد ضاعت بالفعل . . وتبدأ حالة الطوارىء من جديد . . استمرت هذه المرة طيلة الليل . . ولخمسة ايام اخرى جرى فيها البحث لا عن المفتاح هذه المرة وانما عن «نادية» المتسولة ذات العشرين عاما ومن المثير للدهشة انه كان قد بقي لها ثلاثة أسابيع من مدة الحكم التي تقضيها لتخرج الى الحرية .

جرى تفتيش الحواجز، والبحث عن نقاط الضعف في السور الذي يفصلنا عن مزرعة القناطر . وفحص السلك المكهرب الذي يلتف حوله، والذي وضع بعد حادثة هرب مشابهة جرت منذ عدة اعوام «واكتشفت فيما بعد انه لم يكن مكهربا ولم تجر كهربته ابدا وانما قالت الادارة ذلك لتخيف السجينات . . » وزارنا مدير مصلحة السجون وحشد من رجال النيابة والمباحث . . وفي كل صباح يجرى عد السجينات تحت الشمس اللافحة (كنت محظوظة لان الادارة تخشى من اختلاطي بالسجينات العاديات فلم اوضع في طوابير العد اكتفوا بوضعي في الاحصاء الرقم واحد، كانوا يغلقون علي العنبر كله ثم يبدأ احتفال الاحصاء في الشمس) . تمت مراجعة البطاقات الصحية وبطاقات السجن، والزنازين والاسرة وفحصت المجاري والمداخل والمخارج دون جدوى . . كنت مشغولة اثناء ذلك بملاحظة علامات الفرح الخفي والشماتة التي تشعر بها السجينات تجاه الادارة والاعجاب الخفي بالفتاة رغم الدهشة لان هربها ظل بلا معنى . ومع ذلك

كانت الادارة في وقت الشدة تحظى بالعطف، وخاصة حين يأتي رجال المباحث والنيابة لاستجوابها. انعكست حالة الطوارىء على كل شيء.. كنت اشتري الجرائد اليومية الثلاثة. وفجأة وجدت الادارة تستدعيني.. عليك يا سيدتي ان تختاري جريدة واحدة.. لماذا؟ لان هذه هي لائحة السجون.. للسجينة تحت التحقيق ان تشتري جريدة واحدة.. لم تجد المناقشة.. لا بد من تطبيق اللوائح.. وجدتني اقول.. انها جميعا جرائد تصدر في مصر وليس في اسرائيل، وركبتني حالة استفزاز.. ربما لو كنت اشتريها من اسرائيل ما اعترض رؤساؤكم..

تواصلت حالة الاحصاء اليومي.. الشمس والاجهاد والتسلية.. ثمة شاغل خفيف الظل ينتزع الناس من رتابة الحياة في السجن ويشغلهم... لا بأس.

وفي اليوم الخامس.. من جديد استيقظت فزعة على صوت طبول عالية وغناء مختلط بالصياح والايقاع المنتظم.. حمد لله على السلامة يا نادية.. لقد عادت الفتاة اذن... كيف؟ عرفت ذلك في الصباح.. وجدها البوليس تتسول من جديد في نفس المكان الى جوار مسجد السيدة زينب... نفس المكان الذي اعتاد البوليس ان يقتادها منه هي وزوجها.. هل يا ترى تدرك نادية ما يقوله علماء النفس عن ذلك النزوع اللا واعي لدى المجرمين الذي يجعلهم يحومون حول مكان جريمتهم.. عادت الفتاة على اي حال مهلهلة منكوشة الشعر ومتسخة كما كانت... وكما كانت ايضا فان جمالها يلوح رغم كل شيء خلف القذارة.. حبسوها في زنزانة التأديب وكان عليها ان تقضي حكما اخر بسبب الهرب.. هل كانت الفتاة التي تعبر ملامحها عن نوع من البلاهة قد رتبت سرقة المفتاح بهذه البراعة.. واعدت الخطط والوسائل.. ان فيلما لحسن الامام كان لا بد ان يضع هذه الخاتمة.. وبالطبع لا بد ان يكون لها حبيب اعد حبلا خارج السور. ولسوء حظ عشاق السينما.. وربما من باب التجديد لم يسر الامر على هذا النحو.. فلم تستخدم نادية المفتاح في الهرب، وهي لم تتسلق سورا او حبلا او تأت بسكين له يد خشبية قوية لتقطع السور المكهرب فالخيال ينمو ايضا بقدر نمو التكنولوجيا.. وذلك يحدث في بلاد التكنولوجيا المتقدمة جدا.. خرجت نادية الى المحكمة في صحبة الحرس وكانت قد اعدت خطة اخرى.. لبست تحت لباس السجن الرسمي ملابس ملونة.. خبأتها طويلاً عن عيون السجانات وحملات تفتيش الزنازين فالملابس الملونة ممنوعة على المحكومات، والحق انها ممنوعة على المحكومات الفقيرات فقط.. المهم انها خبأتها ولبستها تحت ملابسها وراوغت حارسها وخرجت من باب المحكمة الى مقر عملها: متسولة ذات ملابس ملونة الى جوار مسجد السيدة زينب.. اخذت تمارس عملها خمسة ايام اثر الهرب.. وحين اتيح لي ان اسألها ما الذي حصلت عليه بالضبط من الهرب قالت: كنت اكل كثيرا وانام دون أن يغلق علي احد الباب.. منى للسماء مباشرة..

من يدري لعله كان الشوق للحرية الذي لا يقاوم. الشوق الذي لا يعرف الحساب العقلي.. او لعله اليأس العميق.. ان الفتاة تخرج لتعود وقد قررت في ذلك اليوم ان تخرج وان تنام تحت السماء مباشرة دون ان يغلق عليها احد الباب.. تنطوي بلاهتها على خيال وعقل.. من يدري لعلها عادت لتشعر بدفء اخر وتنام تحت سقف.. اما المفتاح فلم يعرف احد ابدا كيف ضاع.. لم تعرف المباحث كيف ضاع وان كانت الشكوك قد حامت حول سجانة ارادت ان تكيد لزميلة لها. وحين غادرت السجن بعد عودة الفتاة بما يزيد عن عشرة ايام، لم تكن لا الادارة ولا النيابة ولا المباحث قد توصلت بالضبط الى مخططي سرقة المفتاح.. والى التدابير التي اتخذتها نادية حتى يصيح العنبر كله في منتصف ليلة من ليالي اكتوبر: ان فتاة قد هربت بينما كانت الفتاة قد هربت في الظهيرة.

وحين وجدتني احدى الفتيات اسأل بقلق عن مصير ام احمد.. سألتني لماذا اشفق عليها الى هذا الحد انها تكاد تكون محظوظة.. ذات مرة ضربت السجانة فتاة حتى كسرت عمودها الفقري ورقدت في الحبس ثلاثة شهور كاملة وقد فاوضتها ادارة السجن لتقول ان ساقها انزلقت وسقطت على درجات السلم «.. اما انا وصديقتي سارقة العربات هل تعرفينها.. هذه الشجاعة التي تتصدى للسجانات فقد ضربنا مأمور منذ عامين ضربا مبرحا امام السجن كله: هل تعرفين لماذا؟ لاننا حكينا لصحفية كانت تزور السجن عن تداول البرشام والمخدرات واسعارها وعن تجارة الاكل وتداول العملة داخل السجن.. حكينا بصراحة.. وقد التقطت الصحفية لنا صورا وقالت انه الفساد يتفشى في السجن.. هذا هو الفساد الذي تتحدثين عنه..» كانت بذلك ترد على دعوتي لها ولزميلاتها حتى يتوجهن بشكوى جماعية للادارة ضد سوء المعاملة وان يتضامن.. قلت لنفسي فلأ نشغل انا بحالة ام احمد العجوز.. الفساد على اي حال شائع جدا خارج السجن.. ربما كانت المرأة هي التي خبأت المفتاح.. ربما ان لها ايضا عينان باسلتان وما زالت تئن وتغني.

حـول الخيـر الضيـــق الأفق

احتفظت من طفولتي الريفية- بالاضافة الى الاثار المادية للبلهارسيا، القدرة على معرفة انواع العصافير والفراشات واتساع السماء والحديث مع الشمس التي كنا نصحو لنكون اول من يتلقاها، والخيال الساذج وصور الرجال الطيبين الذين يتصدقون على الفقراء في الاعياد والمواسم ويتألمون جدا لآلامهم ويصلون بحرارة. وفي سجن القناطر ذكرتني صور بعض المسؤولين بطفولة الريف... فهم يتصدقون على الفتيات الفقيرات بنفس الحرارة وخاصة المصدورات اللاتي بلا موارد... وطالما انتابتني الحيرة: انهم يتصدقون في نفس الوقت الذي يعجزون فيه عن رؤية الفساد العميق الضارب الجذور في السجن... اندهشت كيف يمكن ان تتجزأ النزعة الانسانية الخيرة فترى بأقل من نصف عين ان البؤس قائم هنا فقط دون ان تلتفت الى عموميته... الخير في عالم هذه الشخصيات صدفة، وخلاص العالم يبدأ وينتهي عند كيلو السكر الذي يقدم لامرأة فقيرة تذوي بفعل السل والجوع. تبين لي بعد تأمل بسيط طبيعة المعادلة التي يستند اليها هولاء البشر في تعاملهم مع الخير...

ان طيبة قلوبهم تجعلهم يشعرون بمسؤولية غامضة تجاه الشقاء وبتأنيب خفي للضمير يدفعهم الى المقارنة بين الامتيازات الاجتماعية التي يعيشون هم واشباههم في ظلها وبين فقر الغالبية... فمهما قيل عن مسؤولية الانسان الفردية الخالصة عن شقائه سواء كان هذا الشقاء ناجما عن غبائه او استهتاره او كسله وهي الفكرة السائدة في البلدان الرأسمالية والتابعة تظل هناك حقائق موضوعية تضيئها الممارسة والتجربة اليومية للناس فيجدون أن الكثير من الاذكياء الجادين النشطين يحاصرهم الشقاء بنفس الدرجة وربما اكثر فتكذب التجربة الواقعية كل الافكار المسبقة والاوهام. ولكنهم يعجزون نتيجة لضيق الافق من ناحية والمصلحة الخاصة في بقاء المجتمع الطبقي من ناحية اخرى، عن فهم الاسس والاسباب الحقيقية للشقاء العام فيخلصون ضمائرهم بالعمل الخيري الشخصي ويغسلون عن ارواحهم ما يثقلها. فيختار الرجل منهم واحدا او واحدة

من التعساء ليخلص ضميره بالصدقات، ويحقق رضا خاصا عن نفسه عندما ينتشل مثلما يفعل المسؤول في السجن- هذا النموذج المحطم من البشر فيرى الشبع والامتنان وقد تجلى في ملامحه. . . . والامتنان ضروري ومفيد حتى تستكمل الحالة السيكولوجية التي يسعى اليها صاحب الصدقة وفاعل الخير. . . . وفاعل الخير هذا الذي طالما نشد خلاصا آنيا لروحه وعجز عن رؤية افاق الخلاص العام. . . . . يفاجأ دائما بأن صدقته تتبدد وان البؤس بقي كما هو ولكن مساهمته. . . تلك التي تخصه- تبقى حاملة لواء الامتنان لشخصه، وتجعل منه- كما في السجن- معبودا بين البائسات، ومثلا اعلى. . . ورغم انني لم اكن بخيلة في حدود امكانياتي- كانت المصدورة تاتي لتسالني لماذا لا اتصدق كثيرا حتى ينقذني الله مما انا فيه ووجدت نفسي على وشك ان ادخل في مناقشة صعبة. . . انا في الحقيقة ضد منطق الصدقة. . . كما انني لا اجد في العمل الخيري حلا لشيء ولكن كيف اشرح لها ذلك. . . سألتها الا يكون الخير اعم واشمل لو ان هولاء المسؤولين الذين يتصدقون من اموالهم الخاصة على بعض البائسات قد شرعوا بجدية في وضع نظام فعلي حتى لا يسرق الاكل في السجن وحتى تصل الوجبات المقررة من قبل مصلحة السجون الى اصحابها كاملة ونظيفة وجديرة بالآدميين. . . وحتى تكف السجانات عن فرض اتاوات على السجينات واقتسام ما يرسل اليهن من ذويهن وضربهن احيانا كما تعرفين ولعلك تجربين ذلك كل يوم. . . . . قالت هل تطلبين اليهم ان يحاربوا الغيلان؟ ذلك هو صلب الموضوع. . . ان محاربة الغيلان هي محاربة الاستغلال. . . حاولت ان اشرح لها معنى الاستغلال. . . كنت ابحث عن لغة. . . لغة بسيطة مباشرة واضحة وعملية. . . ان محاربة الاستغلال تعني من بين ما تعني محاربة الامتيازات غير المشروعة التي يحصل عليها بعض الناس على حساب الاخرين داخل السجن دون وجه حق غير انعدام الرقابة مع نفوذ وقوة عدد محدود من السجانات والسجينات وضعف وتشتت وجهل بقية السجينات، وجدتني اشرح باختصار حالة المجتمع الطبقي غير الديمقراطي في بلد متخلف. . . لماذا لن تحل الصدقة والزكاة شيئا. . . لماذا. . . لانها تزين للمظلومين احيانا وجه الظلم دون ان تقدم لهم كمجموع شيئا. . . . . بل ان الخير الذي يتم في شكل صدقة مثله مثل رشوة قطاع من الفقراء بهدف استيعابهم ضد الاخرين ان لها مضمونا سياسيا معاديا تماما مثلما تشتري الحكومات بعض القادة النقابين في الحركة العمالية وتضعهم في مواجهة زملائهم. . . . ان حصيلة العمل الخيري حتى ولو كان طيب الاهداف والمنبع لا ينطوي على الخبث مثلها مثل النماذج الطيبة من الناس، هولاء المواطنون الصالحون الذين تضرب بهم الامثلة في الصلاح بل يصبحون في بعض المواقع قدوة في السلوك. . . يبقى خيرها وصلاحها ايضا ضيق الافق. . . بل واقول أنانيا خالصا. . . فالقدوة تصبح جهدا في الفراغ

اذا لم تصب في عمل عام يجعل التمثل بها والاعجاب بقيمتها ذا مضمون انساني ايجابي وسياسي في النهاية. . . . وهكذا وجدت نفسي اخيرا افكر في الحزب، كانت هذه الملاحظة البسيطة عن الخير تقودني الى ترتيب افكاري عن جدوى التنظيم الحزبي. . .ولماذا يلقون القبض على الحزبيين على كل من يسعى الى تنظيم الناس. . . اي الى صقل وعيهم بمصالحهم وبالطريقة الرئيسية للدفاع عنها في اطار العمل العام المشترك وارقى شكل له هو العمل السياسي من اجل الاهداف القريبة والبعيدة على السواء وكيف ان الحزب بقدرته على تجميع الجهود وتنسيق حركة الناس. . . كيف تتجلى حيويته وقدراته فضلا عن ضرورته في لحظات اليأس العميق لحظات اليأس الفردي او الوطني والقومي، اعادت الى ذاكرتي هذه الافكار التي تفرعت وطالت الملامح الاساسية لتجربة عدد من الاصدقاء عملوا في محو الامية. . . . كانوا يتوجهون الى افقر الاحياء الشعبية ويبذلون جهودا مضنية خيرة وشريفة للغاية وينجحون فعلا في تعليم بعض الافراد وحتى مساعدتهم على الالتحاق بالمدارس واحيانا بالجامعات. . . ثم ماذا؟ يرتد معظم الاميين ويدخل المدرسون الطيبون المحبون للشعب في جهنمية الحلقة المفرغة لوضعية الأميين في البلاد. والمهم انهم وهم يبذلون هذا الجهد الرائع يرفضون كلية فكرة ارتباطه باي عمل سياسي، وعلى حد تعبير احد الكتاب العرب- لا اذكر اسمه الان- ان مجرد محو الامية دون وعي سياسي حقيقي مرتبط بتعليم القراءة والكتابة ارتباطا جذريا لا يؤدي الى اكثر من توسيع قاعدة قراء المجلات الجنسية الوضيعة. . . .

ان الأصدقاء الطيبين يصابون هم انفسهم باليأس اذ تفلت الجماهير التي احبوها بأميتها وتخلفها من ايديهم ويركنون الى القنوط مثلهم مثل هولاء النواب الشرفاء الذين نجحوا في دورات سابقة في انتخابات البرلمان وكانت لهم شعبية كاسحة في دوائرهم، وحين زورت الانتخابات البرلمانية الأخيرة! اعتزلوا العمل العام كلية فاخذت تتبدد بالتدريج تلك الشعبية وذلك الوجود السياسي الذي خلقوه لانفسهم ولافكارهم طوال سنوات العضوية في البرلمان. وذلك لانه استند لا على العمل الحزبي الطويل المدى وانما على وجود اشخاص طيبين لهم قدارات قيادية فعالة وقدموا خدمات حقيقية لدوائرهم من خلال البرلمان، ان هذا الرصيد سرعان ما يتبدد اكثره ويتبعثر في الهواء او تأتي جماعات منتظمة يمينا او يسارا لتستحوذ عليه فيصبح رصيدا لها. . . مرة اخرى لا استطيع ولا يستطيع احد ان ينكر شرف الجهود وعظمتها. . . . ولا ان يتطاول على القدوة او النزعات الخيرية الحقيقية ولا ان يذكر ايضا ان هناك من النواب او القادة النقابين من يشكلون بحكم تاريخهم الطويل وارتباطاتهم الحقيقية بالناس مؤسسات قائمة بذاتها. . . رغم انهم افراد. . . . . لكن ثمرة كل هذا تتضاعف عشرات المرات. . حين ترتبط بالعمل السياسي

المنظم. . . . . بالحزب. . . اي حين تصب في قنوات اتصال شعبية حقيقية تعطيها وتأخذ منها وترتقي بها.

كان الفنان المسرحي الفرنسي الطليعي «مارسيل مارشال» لا يفتأ يردد لاصدقائه وهو يتقدم في تجاربه من اجل مسرح يشارك فيه الجمهور مشاركة فعلية. . . . . أريد مسرحا يستلهم حرارة لشعب لانه حينئذ يمكن ان يلهمه.

ها قد اخذني كيلو السكر الخيري وبقايا لحوم خروف العيد التي يتصدق بها الاغنياء على الفقراء في قريتنا وقرى كثيرة الى التأمل في قضية طالما ارقتني: اهمية التوجه الصحيح الى الناس الفقراء لاستيعاب حركتهم وتنظيمهم. . . . . الحزب طبعا ليس بديلا عن الاكل فهو لن يطعم الناس ولكنه. . . في قضيتي الصغيرة هذه بديل عن المذلة التي تلبس ثوبا انسانيا طيبا. . . اننا لا نقدم للفقراء بانتشالهم من اليأس حين نقودهم الى الحزب حلا روحيا للبؤس المادي المباشر والقابض على حياتهم لكننا نضعهم على طريق الخلاص الشخصي والعام معا. . . . على طريق الجدوى الفعلية لنضال ملايين الناس. . . . . ويصبح الحل الروحي الحقيقي كامنا في الخروج من دائرة الحصار المادي للبؤس والتقدم الى الآفاق الإنسانية الرحبة. . الى عالم يسع الأحلام الخيرة لكل الناس.

اخذت اتساءل هل ياترى. . . . يدرك كل زملائي في حزب التجمع هذه الاشياء البديهية ويضعونها في الاعتبار اثناء حركتهم ام ان الاشياء البديهية البسيطة احيانا ما تغيب عنا ونكتشفها فجأة كما حدث لي امام فكرة الخير التي اخذت اتأملها. . . . لكن لا بد أن زملائي يدركون ذلك. . . فحزبنا يولد حيا في قلب العمل والعسف.

المحاكمـــــة

في الصباح دقت السجانة السمينة التي استقبلتنا لدى قدومنا.. الباب قالت: كلما قامت مظاهرات في البلاد سوف يأتون بكن هكذا كان الامر دائما منذ اشتغلت في هذا المكان.. نظرت بعطف الى الفتيات وهن يرتبن اشياءهن.. سوف نخرج معا، انا الى المحكمة وهما الى المباحث العامة تمهيدا للافراج... في الطريق من زنزانتنا الى السيارة هتفنا بصوت عالٍ جدا.. عاش كفاح الشعب المصري.. وغنينا.. مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر.. في احد مقاطع الاغنية التي تقول «مهما يزيد الفجر بالسجانه.. مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر..» سألتنا سجانة طيبة كانت منهمكه في تفتيش اشيائنا: هل تقصدوننا: ردت هدى: لا انما انت مقهورة مثلك مثل الشعب، والذي يحبسنا ويذلك انت هذا الظلم العام... احاطت بنا الفتيات كلهن يرغبن في توديعنا اضطرت المشرفة ان تطردهن قالت فريال: سوف اذهب الى الامتحان غدا وليس اليوم حتى يطمئن الضابط الذي كان قد صحبها بالامس وقالت له: انها سوف تقاضيه اذا ما فاتها الامتحان..

في الطريق من القناطر الى القاهرة.. في ذلك الصباح الخريفي شعرت لاول مرة ببوادر الوحشة لانني سوف ابقى وحدي بعد رحيل هدى وفريال... اخذنا نغني.. كان العساكر ينظرون الينا مبهورين ومتضامنين... اخبرنا المسجونون الذين اتوا بهم من سجن الرجال واستقلوا نفس السيارة ان المحكومين السياسيين في سجن القناطر للرجال مضربون عن الطعام وان مدير مصلحة السجون كان في زيارة للسجن هذا الصباح.

كان هؤلاء الشبان قد جاءوا قبل عام تقريبا بعد ان حكمت عليهم المحكمة العسكرية بمدد تتراوح بين عام وخمسة اعوام في قضية تدعى (اقتحام جامعة عين شمس) التي حكم على الشاعر احمد فؤاد نجم فيها بالحبس لمدة عام لانه القى قصيدة ضد رئيس الجمهورية وهرب منذ ذلك الحين.

كان البوليس السياسي يسعى الى تقليص ومحاصرة نفوذ الحركة الطلابية الماركسية والناصرية. وكانت المهرجانات التي يقيمها الطلاب التقدميون عامة في الجامعة ناجحة وشديدة الاثر. وكان الشيخ امام واحمد فؤاد نجم، وعزة بلبع وعدلي فخري والشعراء الثوريون الشبان، هم القاسم المشترك في معظم هذه المهرجانات التي خلقت في الجامعات رأيا عاما مواتيا ينصت لليسار ويتقبله.. ها هو المد ينحسر وتتوالى المحاكمات واحكام الحبس والطرد من الجامعة ومجالس التأديب للطلاب ومنع الصحفيين من الكتابة... سألت شابا كان صامتا ومقيدا الى حارسين- عرفت فيما بعد انه كان متهما بالسطو على بنك- هل حالتهم الصحية جيدة.. قال لا ان احدهم- لا اعرف اسمه- قد اصيب بحالة اغماء بالامس وقد اضطربت ادارة السجن واستدعت كل الاطباء.. قلت لنفسي لعل الاضراب لم يكن منظما بما يكفي... علينا ان نبلغ المحامين.. على امتداد الطريق اخذ كل حارس من حراسنا يشكو لنا حاله، كانما يتقدمون الينا نحن المسجونين السياسيين بالتماسات للنظر في امر تدهور حياتهم... ارتفاع الاسعار.. صعوبة المواصلات... استحالة الدراسة بالنسبة لاطفالهم دون مساعدة المدرسين الخصوصيين... فقدان الامل في ايجاد وظائف لهؤلاء الذين اتموا تعليمهم... الانخفاض المزري لرواتبهم. قلت لهم ان احد الاسباب التي فصل بسببها نائب كرموز ابو العز الحريري من مجلس الشعب كان تقدمه باسم حزبنا- حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي- بمشروع كادر رواتب جديد لعساكر وضباط الصف بالشرطة... وقد اتهمه وزير الداخلية حينئذ انه يريد ان يكسب شعبية لدى «البوليس».. بالطبع لم يكن أحدهم يعرف شيئا عن ذلك... كانت «الاهالي» قد صودرت ووسائل اتصالنا بالعالم شبه مقطوعة متخلفة.. محدودة الاثر، في عالم يتقدم جدا وتلعب وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري دورا خطيرا في صياغة العقل والوجدان وفي تضليل الفقراء الذين لا وسيلة لديهم لمعرفة ما يجري في العالم.. هل يا ترى سوف يأتي يوم يتقدم فيه هؤلاء العساكر الفقراء السيئي التغذية المهمومين حتى النخاع بكل تفصيلات الحياة الصعبة ليضربوا مظاهرات الشعب الذي يمثلون- هم بالذات- قمة معاناته...؟

وصلنا اخيرا الى محكمة استئناف القاهرة... كانت لحظة صعبة للغاية. عليّ ان اودع هدى وفريال ولا اعرف متى سوف اراهما مرة اخرى... كانتا تبكيان بصمت اما انا فتماسكت بصعوبة.. كانتا قد بكيتا كثيرا في الصباح قبل ان نترك زنزانتنا... نشجتا بصوت عالٍ حين قلت لهما فلتكونا دائما جديرتين بما وجه لكما من اتهام.. ان تكونا قدوة في الاستقامة والصلابة والفعالية... ها هما تتذكران الكلمات... الآن لا بد ان نفترق... غادرت السيارة دون ان استدير لهما، كنت منفعلة جدا.. افكر في لقائي مع حسين وأشعر بلهفة شديدة لرؤيته، واتخيل

القاضي الذي لا اعرف اسمه . . والمحامين . . لن يترافع نبيل الهلالي ولا زكي مراد، جاءوا الى هذه القاعة بالامس مقيدين بالسلاسل . . . كانت اجراءات الامن مشددة للغاية . . . حراس أشهروا بنادقهم وضباط مباحث ومخبرين لا حصر لهم . . . شعر حراس بالحرج . . . احاطوا بي . . كنت المرأة الوحيدة . . لم يخطر ببال احدهم قطعا ان افكر بالهرب لكن الحراسة المشددة على المحكمة اصابتهم بالهلع . . . حين اقتربت من باب القاعة وجدت عددا كبيرا من اصدقائي ومن اهالي المتهمين . . . احتضنتني رشا، اما صفاء زكي مراد ذات العينين اللامعتين الذكيتين فكانت تنتظر دورها . . كانت قد استقبلت أباها بالأمس، وها هي تنتظرني . . ها هم ابناؤ نا يتدربون . . وجدت أمينة وصلاح عيسى، فتحية العسال وجلال الغزالي حين دخلت القاعة اخبرني عبد الله الزغبي المحامي ان القاضي قد منع دخول الاهالي بسبب ما حدث بالامس . . بالامس كانت مظاهرات ضخمة من الاهل والاصدقاء في استقبال المسجونين . . . دخلت الى القفص فلم أميز سوى زوجي ملأني الفرح . . بعد قليل اخذت اتعرف الوجوه والاسماء . لفت حسين نظري الى احد ضباط الحراسة الذي حدق فينا دهشا حين وجدني احتضن زوجي واقبله بادر احد ضباط المباحث قائلاً : انها زوجته . ربما كان الرجل في ذلك الحين قد استعادكل ما في ذاكرته من الاقوال والصور المشوهة التي تروجها اجهزة الامن والدعايةالسياسيةالسوداء ضد الشيوعيين من أنهم بلا اخلاق ومنحلون . ابتسم لنا بعد ذلك . كانت محاولات اخوتي واصدقائي قد نجحت فدخلوا الى القاعة جاؤ ني بأكل وملبوسات كنت قد طلبتها وحقيبة كبيرة امتلأت بالحلوى والاوراق ظننت في البدء انها كتب . . . انخرطنا جميعا في الحديث، كان عبد الحميد الشيخ رئيس نقابة عمال مطابع الشعب قد شحب وهزل بصورة واضحة شعرت بالقلق عرفت فيما بعد انه كان مريضا جدا في الايام الاخيرة، الدكتور جميل حقي المناضل الصيدلي الذي جاؤا به من كفر الزيات بعد شهرين من دخوله انتخابات مجلس الشعب حيث يحظى في دائرته باحترام ومحبة وشعبية عارمة كان مثله مثل كل المرشحين التقدميين قد طرح برنامجا بديلا . . . برنامجا للانقاذ . . وتعرض مثله مثل كل مرشحي المعارضة للتدخل والتزوير الفاضح . . . عم صابر زايد المناضل القديم الذي هرب ذات مرة في الخمسينات بآلة الطباعة واخفاها في قريتنا «ميت سمنود» وواصل طبع المنشورات وتوزيعها ما يزيد على العام بعد ان القي القبض على كل رفاقه وتخفى وراء مهنته «جزمجي» وصحبته زوجته الطيبة القلب التي تنتمي الى الفقراء بفطرتها والتي تغذق الحنان والمودة على كل من تعرفه ومن لا تعرفه . . . «شيخ العرب» محمد علي عامر الذي تجاوز السبعين وهذه هي المرة الثالثة خلال عام واحد التي تلقي فيها المباحث القبض عليه . . . ماجد الصاوي المهندس الشاب الذي تخرج لتوه وكان ينوي الزواج مع بداية الشهر . . . تأجل الزواج رغم انفه . . . حكت لى أميرة

زوجته فيما بعد كيف انها ذهبت الى المباحث العامة بناء على نصيحة احد المحامين لتترك لماجد أدويته وحقيبة ملابسه، هددها ضباط اربعة وقال لها احدهم هازئا سوف تتزوجينه في عام ١٩٩٠ وربما لن ترينه ابدا، ما الذي يربطك ايتها الحلوة بشيوعي؟ دخلت هيئة المحكمة نادتنا وبدأت الجلسة. . . الخ المحامون في طلب التأجيل وتأجلت الجلسة اسبوعا. . . انقضت الجلسة بسرعة بالغة لم نكد نتحدث وإذا بنا نرحل الى السجن من جديد. . . ودعت حسين اولا ثم رشا وأمينة وكانتا قد تعلقتا بالسلك الذي يغطي القفص ويرتفع عاليا جدا. . . أخبرتني امينة انها سوف تصحب الاطفال الى مصيف «رأس البر» لمدة اسبوع أخذت اوصيها بحرارة ان تهتم بهما وبنفسها تأملت كل الوجوه. . . كنت اتزود بالابتسامات والمودة والضجيج قبل ان امضي الى الوحدة. . حين خرجت من القاعة كانت الحراسة المشددة قد خفت لان معظم المسجونين الاخرين رحلوا الى طرة والقلعة. . .التقيت مرة اخرى بالكاتبين الصديقيين جلال الغزالي وفتحية العسال سألتهما عن اخبار لجنة الدفاع عن الثقافة القومية وهل تنتظم اجتماعاتها التي كانت قد توقفت بسبب الاجازات الصيفية. . . أوصيتهما مرة اخرى ان يهتما بأبنائي. . . وفي انتظار سيارة الترحيل سألني العسكري المرافق وهو عجوز اقترب من سن المعاش كم عدد ابنائك يا ابنتي. . . حين صعدت الى السيارة هتف بعض الاهالي والطلاب المتجمعون عاش كفاح الشعب المصري واخذت السيارة تشق الطريق في الزحام من جديد الى سجن القناطر للنساء.

اخذت اقلب في حقيبة ملابسي فوجدت ما يقرب من عشرة اعداد من نشرة «التقدم» التي يصدرها حزبنا، قرأتها وأعطيت نسخا لكل المرافقين وبقيت مجموعة اخرى. . . لدى تفتيش اشيائي سألتني السجانة وكان هناك مخبر يقف بجانبها. . ما هذا قلت لها اعطها للمأمور جاءت خطأ في اشيائي. . بدا المأمور عصبيا للغاية حين شاهد اعداد النشرة. . . شرحت له الامر. . الواقع انني حصلت وحدي على حصة كل السجون. . . هذه نشرة حزبنا ويحق لي ان احصل عليها الا تؤمن بسيادة القانون. . قال ان المصرح به فقط هو الجرائد القومية اما هذه فهو لا يعرفها. . .كنت قد قرأتها ولم أجادل كثيرا واحتفظ مأمور السجن بالنشرات ونسيت الامر تماما. . .

كانت زنزانتنا مشوشة، ها انا ما زلت أتحدث باسم المجموعة بعد ان رحلت الفتاتان، جاءت السيارة مبكرة اكثر مما ينبغي فلم نستطيع ترتيبها. . على ان اقوم بالمهمة وحدي. . . كانت فريال قد اعتادت ان تفعل ذلك بينما تعد هدى الشاي. ها هي آثارهما. . بعض كتب فريال التي انهت الامتحان فيها ونسيتها، كتاب اخر كانت احدى السجانات قد تطوعت بالاتيان به في ايام العيد حتى تستطيع فريال ان تعد نفسها للامتحان الى ان تأتى الكتب. . . هذه السجانة تربي اشقاءها

التسعة وجميعهم يصغرونها سنا . . . قالت اعرف انكم هنا من اجلنا نحن الفقراء . وبذلت مساع كثيرة جدا لكي تحل لنا المشكلات الصغيرة والمستعصية خاصة في ايام الاعياد . . .

انقضى الاسبوع بسرعة . . . كنت استيقظ في الصباح وقبل لحظة الصحو النهائي اتصوران «فريال» و«هدى» نائمتين الى أن جاءت سجانة لم ارها من قبل وحملت وسائد السريرين فبقيا عاريين قبيحين . . . أخذت أقرا بنهم واستمع الى الاذاعات واكتب قليلا . . . لم انه ابدا في اي يوم ذلك البرنامج الذي كنت اعده في الصباح . اجدني في المساء مضطرة لتأجيل عدد من الصفحات في «بخلاء» الجاحظ حتى الصباح التالي، او فصلا في احدى روايات «ولترسكوت» . لم تمض ليلة دون ان احلم بزوجي واولادي . كنت قد علمت بعد يومين من جلسة المحكمة الاولى ان النيابة قد افرجت عن حسين طرت فرحا، وانتهى السجن بالنسبة لي . . واخذت اعد نفسي للجلسة القادمة وفي صباح الاحد ١٦ سبتمبر جاءت سيارة الشرطة لتنقلني الى المحكمة وفي الطريق تلقى حارس وهو ضابط شاب مهذب اكثر من رسالة باللاسلكي حول مهمته وهل تجري خطواتها بالدقة المطلوبة . . . ابتسمت فسألني لماذا؟ قلت لانني اتذكر الافلام البوليسية والمطاردات الخيالية التي تجري فيها وان مراسلاته المتصلة هذه تعيد الى خيالي انبهار الصبية بالمطاردة . . والعطف الحار الذي يحيط به المتفرجون البطل المعتدى عليه . . . كانت حراستي هذه المرة مكونة من ضابط حديث التخرج وامين شرطة وعسكري . . . يتفاوت سخطهم بين عجز العسكري ذي الثمانية اطفال عن اطعامهم وعجز الضابط عن الزواج لأنه لا يجد سكناً ولا يستطيع أن يدفع الاموال المطلوبة واحتجاج امين الشرطة لانهم الفئة الوحيدة التي لا تستطيع ان تتوصل الى عقود خارج مصر لتحل ازماتها المالية المتفاقمة . . . ويتفق الجميع على انه ما من مخرج واضح المعالم امامهم . . . ثمة درجة عالية من السخط ولكن ما من قوة قادرة على تنظيم هذا الوعي وتوجيه هذا السخط في قنوات صحيحة تفضي الى التغيير . . يتذكرون جميعا جريدة «الاهالي» كحدث عابر ويعرفون عن حزبنا اسم خالد محي الدين لا اكثر من ذلك . . . ولكني لا اشعر بالعزلة بينهم رغم كل شيء ثمة ادراك خفي باننا على حق لا يعبرون هم عنه ولا استطيع انا ان احدد معالمه . . تدرك الحكومة ذلك جيدا فتحاصرنا وتشوهنا وتسارع الى ضربنا كلما اشتد عودنا واتصلت القنوات . . . هذا بديهي . . . ويضاف الى قوتها الان سند اسرائيلي مدرب تشرب حتى النخاع خبرة الامبريالية في قمع الشعوب . . من «سايجون» الى «جوهانسبرج» وهو بصدد نقلها الى اجهزة القمع في بلادنا واستخدامها ضد الحركة الوطنية المتنامية . . نظرت الى الوجوه الثلاثة المحيطة بي . . قلت لنفسي بصعب جدا بل انه يكاد يكون مستحيلا الحاق هؤلاء الناس بالالة الجديدة لدولة تنسق خطاها مع

اعداء الامة العربية . . بل انهم يتحدثون عن اسرائيل كانها لن توجد ابدا بينهم . . . لعلهم يعزلونها بالتجاهل .

وصلنا الى مبنى محكمة الاستئناف . . لم تكن هناك حراسة ما . . اذن فقدت اجهزة الامن اهتمامها بنا حسن جدا لو ان الامر ينتهي بالنسبة لها بمجرد الحبس . . لم يكن هذا هو الحال في المرة السابقة . . . صحبني الضابط الى مقر الحرس بعد ان صرف السيارة والسائق . كنت قد اكدت له في الطريق اننا نحاكم دائما في هذه المحكمة ، اما هو فقال انها دار القضاء العالي ، وتبين لنا فيما بعد ان الجلسة سوف تجرى في دار القضاء العالي ، عليه اذن ان يستدعي السيارة والسائق من جديد . . استغرق الامر وقتا طويلا نسبيا بحيث بدا عليه القلق ، في غرفة الحرس طلبت جريدة ، ناولني احد الضباط جريدة الاهرام . . وسألني اذا كنت اريد شايا ام قهوة ثم اضاف اليوم ينظرون قضية الشيوعية الجديدة . . قلت نعم وانا متهمة فيها ، قال اعرف يا سيدتي ، ثم اضاف هامساذلك هزل كله . . . كانت الغرفة خالية ابتسمت . . . عرف هو أنني سمعته فابتسم . . كان التواطؤ مفرحا . . . تأكدت مقولتي من جديد لسنا معزولين اذن . . . يا الهي ، يا لدفء الانتماء مهما تكن الجروح والاثار . .

عادت السيارة بعد ما يقرب من ساعة كنت قد قرأت أخبار الجلسة التي انعقدت في هذه المحكمة بالامس . . . كانت أخبار مقتضبة للغاية لكني عرفت منها ان المتهمين في قضية الشيوعية الكبرى ـ احداث يناير ٧٧ ـ قد تمسكوا بمحاميهم نبيل الهلالي واصروا على ان يدافع هو ولا أحد غيره عنهم فأمر القاضي باحضاره من السجن في جلسة أخرى لكي يترافع عن موكليه . . امتلأت عيناي بالدموع . . . قال الضابط لقد حضرت الجلسة بالامس كانت مشحونة بالعواطف والتضامن معكم مما اضطر القاضي الى اصدار قراره بضرورة احضار الاستاذ نبيل الهلالي قلت سوف يترافع اذن وهو في قفص الاتهام قال لا ادري . . . لكن هذا هو قرار القاضي . . .

صافحني بمودة وحرارة حين تأهبت للرحيل . . اعتذرت للحارس لانني ضللته دون قصد . . . قال أمين الشرطة الذي تولى قيادة السيارة كنت أريد أن أقضي بعض الاشياء وها قد عطلتني ، ولكن لو أفضى الامر الى الافراج عنك ومن أجل أطفالك فقط أنا على استعداد لاي شيء . . . شكرته . . . كان الطريق مكتظا بالناس . . وجوههم لا تعبر عن شيء . الوجوم . . الاسى اللامبالاة . أنا مخطئة لان هؤلاء الذين تحدثت معهم واليهم خلال الساعات الثلاثة هم أيضا ناس ينتمون الى هذا الشعب الواجم الذي توقظه احيانا او تشحذه احيانا أسئلتي .

كان أول وجه التقيته على باب دار القضاء العالي هو «وسيم صلاح حسين» ابن الشهيد صلاح

حسين الذي أطلق عليه الاقطاعيون الرصاص حين احتدم الصراع الذي قاده باسم الفلاحين ومعهم في كمشيش. وتولت«شاهندة مقلد» قيادة القرية بعد مقتل زوجها... ها هي امرأة قائدة في موقع شديد الصعوبة للعمل السياسي.. الريف. وسيم يحمل اسم المناضل وسيم خالد استقبلني بابتسامة واسعة خجلة... كنت دائما الومه لانه يبادر الى القيام بمهام لم يكلفه بها احد وها هو ينتظرني.. قبل أن أبدأ بتوبيخه ابتسمت صممت أن أقبله وأدركت أنه يخجل جدا فلم أفعل... قال ان «عمو حسين ورشا وجاسر في انتظاري بالداخل»... كانت الحراسة على المداخل مشددة للغاية ،عساكر شاهري السلاح يصطفون على المداخل والمخارج حين اقتربت من الباب الذي يفضي الى احدى القاعات انطلقت زغرودة.. عرفت فيما بعد انها لصديقتي الكاتبة الدرامية فتحية العسال.. خلف طوابير الحرس احتشد الاهل والاصدقاء في انتظارنا. على البعد عرفت حسين كان جالساً شعرت بالقلق الشديد انه لا يجلس أبداً حتى حين لا يقتضي الأمر الوقوف. وجهه شاحب وقد شاخ قليلاً.. هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها بعد أن أفرجت عنه النيابة لم أر الأطفال شعرت بالقلق مرة أخرى... حين احتضنته وقبلته سألته عن نفسه... كان الحارس الذي استقبلني متجهم قاس الملامح لم يتركنا نتحدث وصحبني الى القاعة، كانت مكتظة بالعساكر شاهري السلاح.. هذه هي القاعة التي حوكم فيها المتهمون في قضية الفنية العسكرية من حزب التحرير الاسلامي وكان احد الطلاب قد استولى على سلاح الحراس.... انهم يشددون الحراسة اذن بمجرد التداعي المشهد القديم لم يتلاش اذن، وجدت زملائي مقيدين بالسلاسل وقد وقف عدد من ضباط المباحث بملابسهم المدنية، واندس المخبرون بينهم... أما الحرس من الشرطة العادية فقد اتخذ لنفسه مكاناً قصياً في القاعة.. ها هو عم صابر زايد.. الدكتور جميل حقي.. ماجد الصاوي وعبدالحميد الشيخ وهو أكثر شحوباً... كنت الوحيدة بلا قيود.. صافحتهم وجلست بينهم بعد قليل دخل ابني جاسر.. له ابتسامة آسرة انتفض قلبي أين رشا قال انها في القاعة الاخرى وقد دخلت بصعوبة ولا تستطيع ان تخرج اذ ينظر القاضي في امر الزملاء الباقين وهو لا يستطيع أن يضمنا جميعاً لأن القفص لا يسعنا.. فلننتظر اذن سألته الا يستطيع بابا أن يأتي.. رد ضابط متجهم الوجه.. ممنوع.. قلت أن وضع السلاسل في قاعة المحكمة غير قانوني... لم يرد وبقيت السلاسل في أيدي زملائي. كنت أعرف أنهم سوف يفكونها حين يمثلون أمام القاضي... ولكن لو أراد احدهم الآن لفعل لكننا لن نطلب من أحد خدمات... لمحت احد الضباط حين وقعت عيني عليه ادار وجهه... اخذت اتذكر اين رأيت هذا الوجه من قبل... لم يكن من بين الوجوه المألوفة التي تأتي للقبض علينا او لمراقبة حزب التجمع او اقتحامه... تذكرت فيما بعد. قبل القاء القبض علينا بما يقرب من شهرين دق بابنا

شابان في العاشرة صباحاً كان الضابط احدهما قالا انهما مندوبي وزارة الاسكان وانهما مكلفين باحصاء الشقق المفروشة أدركت للوهلة الأولى انهما ضباط مباحث دعوتهما للدخول . . قلت كما تريان أننا نسكن في بيتنا . . . أجالا بصرهما في البيت بطريقة متلصصة لعلهما يبحثان عن احد الاشخاص الهاربين، فمن المستبعد ان يكون هدفهما التعرف على مداخل ومخارج بيتنا، لأن بيتنا مألوف جداً لهم منذ عام ١٩٧٢ . . . لا أكاد احصي عدد المرات التي دخلوها . . . قلت لهم هذه أساليب المباحث العامة . . . قديمة على أي حال ماذا تريدون أن تعرفوا بالضبط . . . دافعا عن نفسيهما بحرارة وقال احدهم هل تريدين أن تري بطاقتنا. قلت لا . . بالطبع هم يعدون لهم بطاقات خاصة . . . قال أحدهم لكي يرضيني . . . انك صحفية مشهورة جداً . . قلت أنني لا أكتب بسبب الديمقراطية . . . ها هو ضابط الاسكان يخجل أن تسقط عليه نظرتي . . .

أخذ جاسر يصافح الزملاء المقيدين واحدا واحدا ويستثنى العساكر والمخبرين . . . خرج مسرعا مضطربا . . طال انتظارنا تكلمنا طويلا وغنينا . . حكى لي عم صابر عن مرض حسين المفاجيء حين قلت له أنني وجدته شاحبا ومتعبا للغاية . . . قال انه عاد من جلسة ٩ سبتمبر التي التقينا فيها في المحكمة وهاجمته حالة اغماء وقيىء شديد وعولج في السجن . . . فسر الدكتور جميل حقي الحالة بانها اضطراب عاطفي . . وعرفت بعد ذلك ان ضغطه ارتفع ارتفاعا كبيرا وان حالة صداع شديد داهمته ولم تفلح معها كل الادوية المتعارف عليها . . من حظنا اذن ان النيابة افرجت عنه . . . ولكن لا يبدو ان حسين يعالج نفسه . . . هذا داء سيء فينا . . نحن لا نلجأ الى الاطباء الا اذا عجزنا عن مواصلة الحياة . . أحيانا ما نشعر بأن الصحة الوافرة الكاملة هي رفاهية في وسط شعب يعاني كل هذا العناء . . . دخل عبد الله الزغبي المحامي سألته عن حسين قال ان المباحث ترفض تماما أن تسمح لاهالينا وأطفالنا بالدخول . . . انقضى الوقت . . . نام بعض الزملاء بقيودهم . . . وكانوا يذهبون الى دورات المياه بالقيود كل اثنين معا . . . لا بأس لن نطلب فك القيود . . . تعاطف رجال الشرطة يحيط بنا . . . بعيدا عن عيون ضباط المباحث السياسية . . . يسرون لنا ان الامر ليس بايديهم . . . بودهم لو أتوا لنا بأهلنا وأطفالنا وقال أحدهم هامسا لو كان الامر بيدي لفتحت لكم الابواب جميعا . . .

بعد قليل سمعنا زغاريد عالية وتصفيقا حارا . . . كان الجزء الاول من الجلسة قد انتهى وها هم زملاؤنا يخرجون من القاعة ويستقبلهم الناس . . . في الطريق الى المحكمة كانوا قد هتفوا «ارفع ارفع في الاسعار واملا سجونك بالثوار» . . وردد الناس الهتاف . وعلى باب المحكمة احتشد عشرات المواطنين ورددوا خلفهم الهتاف . . لهذا حذر رئيس الحرس الاهل والاصدقاء من الهتاف داخل المحكمة فأخذوا يزغردون . . هذه حالة مزاجية جديدة . . .

خرجنا لكي نذهب الى القاعة الاخرى. . . كان جاسر واقفا خلف سور العسكر جرى الى حين شاهدني فأفسح له العسكري الطريق حين لم يجد أحدا من ضباط المباحث. . . دخلنا الى القفص وسط احتفاء هائل من قبل الجالسين في القاعة من المحامين والاصدقاء. . ميزت شاهنده مقلد كانت كعادتها تبكي. . اذا فرحت تبكي، اذا حزنت تبكي دموعها مخزونة عبر تاريخ طويل من النضال والتضحيات والاحزان. زوجها راح ضحية الاقطاع وشقيقها «أشرف الطيار» استشهد في حرب الاستنزاف وشقيق زوجها استشهد في حرب اليمن، وابنها ناجي ما زال في السجن منذ زيارةبيجين الى القاهرة. . هذه اسرة تعطي كل شيء للوطن. . . وتدفع كل ما هو مطلوب دون أن تسأل أو تحسب. . عظيمة الحسيني سكرتيرة المكتب النسائي في حزب التجمع الوطني. . . صديقتي منذ عشرين عاما على الاقل. . . عرفت كل سجون مصر طولا وعرضا من الواحات والفيوم جنوبا الى الحضرة شمالا قطعت وأمها رحلات شاقة طويلة ومحزنة لتعرف أين اعتقل أو سجن شقيقاها مصطفى الحسيني ومهدي الحسيني. . . وفي السبعينات بدأ الشقيق الصغير هاني الحسيني يصبح ضيفا على السجون، وها هما تواصلان العمل دون كلل أو شكوى. . عظيمة صديقتي وجارتي عندما ماتت أمي أخذت تراعيني على البعدبحنان عظيم نفس الحنان والتدفق. . انها ليست بائسة ولا تشعر ان جهد عمرها كله قد ضاع سدى. . بل انه بالقطع يثمر. ان الامها والام مئات الاسر المشابهة على امتداد الوطن قد أعطت للنضال التقدمي زادا وعدة. . . هي بالمنطق التقليدي السائد وبما هو متعارف عليه ليست امرأة ناجحة لانها لم تنشىء اسرة ولم تنجباولادا،ويا له من منطق أناني ضيق الافق كصانعيه وحفظته. . ان عظيمة بكل مقاييس العطاء والفعالية في الحياة أعطت كثيرا، وأحبت بسخاء ورعت أطفالا وأطفالا. . . ورعت فتيات كبرن وتزوجن ومنحت جهدها وروحها لقضية التقدم. . . ذات مرة وجدتها تقدم لي امرأة شابة في الحزب تتعامل معها كابنة حميمة مقربة. . قالت الا تذكرينها انها زميلتك في الكلية وجارتنا القديمة. . . تزوجت ومات زوجها وعظيمة لم تتوقف مودتها لها مع الايام. . . تذكرني عظيمة باحدى الشخصيات الرائعة في رواية «القدم الحديدية» لجاك لندن فتاة شابة أحبت وحرمت نفسها من الامومة لتهب حياتها للعمل الثوري حتى النهاية. . . سألت عظيمة التي قبلتني بحنان اذا ما كان المكتب النسائي ينوي اعداد معسكر للطلائع. . . كانت قد لعبت هي دورا رائدا في اعداد المعسكر السابق والاشراف عليه. . . قالت ان العام الدراسي اقترب ولكنها ترعى جاسر ابني بصورة خاصة. . . تذكرت ملامح أمها الباسلة، انها بالضبط صلابة أمي قوتها الروحية الفياضة التي كانت تغمرنا وتضعنا ـ نحن الابناء الضعاف التائهين في الفقر وفي المدينة الصعبة ـ تضعنا على الخط الصحيح. نلوذ بها دائما رغم انها أمية ومريضة ومنذ جاءت الى القاهرة لم

تغادر البيت الا الى المستشفى . جاءنا نادر عبد الوهاب . . . المهندس الشاب عضو حزب التجمع وطبقا لتحريات المباحث عضو في كل المنظمات السرية التي تعمل في مصر . . . خلال عام واحد القي القبض عليه ثلاث مرات على ذمة تنظيمات مختلفة فضلا عن اتهامه في قضية انتفاضة يناير ٠٧٧ نادر يستطيع ان يخرج من مصر كما خرج الكثيرون ولن يلومه أحدا، ومع ذلك يبقى ويناضل في اطار حزب التجمع ويتلقى الضربات متفائلا . . .اكتظت القائمة عن اخرها وامتلأت بالواقفين، يبدو أن هيئة المحكمة قد سمحت للاهالي بالدخول . . هذه بادرة خير، استطاع حسين أن يدبر لنفسه مكانا ملاصقا للقفص، أخذت أرجوه أن يهتم بنفسه كان التعب قد نال منه بصورة واضحة للغاية . . . وهو الذي لا يكف عن الابتسام بات متجهما، اجتاحني قلق غامر تذكرت مناقشتنا مع الاولاد: علينا أن نعد أنفسنا لتحمل كل الصعاب بشرط ألا نتحطم ،سوف نعيش حياة بسيطة لا لنكون قريبين من الشعب فحسب ولكن لكي لا تستعبدنا المطالب والاحتياجات التي يمكن الاستغناء عنها، نحن لسنا من أنصار الزهد أو الترفع عن الحياة الناعمة الجميلة، ولن نلعب يوجا روحية نقاوم بها احتياجات اساسية :كبحها . . . لا بل نعيش بصورة طيبة معقولة ولكن أن تهاجمنا الامراض العصرية . . . الضغط وزيادة الكلوسترول في الدم . . الخ ذلك لم أحسب حسابه . . . كنت أقول دائما سوف نتجنب كل هذا لاننا نحيا للمستقبل وفيه . . . ها هو الواقع يأتي عكس حسابات الافكار . . حسين قلق جدا من أجلي ارتفع ضغطه كثيرا . . . انني لا الوم نفسي . ليست قضية مساءلة الان . . الم نتفق على مقاومة التحطم مهما تكن العقبات . . رجوته ان يذهب الى الطبيب رجوته بحرارة ان يهتم بنفسه . . عرفت فيما بعد ان صداعا قاتلا كان قد الم به منذ الصباح . . . بدا جاسر شاحبا هو الاخر مضطرب القسمات يبتسم كثيرا بعصبية . . على أي حال ماذا كنت أنتظر ان فرقتنا ليست شيئا بسيطا ولا سهلا . . هل كنت أنتظر أن أرى زوجي وأطفالي سعداء . .

في مواجهة القفص جلس الصحفيون . . زملائي من كل الجرائد اليومية والى جوارهم ضباط المباحث بادروا الى تحيتي خلسة . . خرج الحاجب معلنا بدء الجلسة . . وقفنا جميعا واطفئت السجائر . . تأملت في وجه القاضي كان سمحا محايدا، امتلأ رأسه بالشعرات البيضاء . . فشلت في أن أكون انطباعا ما عن عضوي اليمين واليسار . . . كان اسمى يحتل رقم واحد في قائمة مرافعة النيابة . . . عرفت لماذا قسمت الجلسات على هذا النحو . . . ان القضية متهافته جدا ويحتاج البوليس السياسي ونيابة أمن الدولة الى مادة للتشهير وهي لن تجد هذه المادة بسهولة بالنسبة للزملاء العمال او الفلاحين والمهندسين والصيادلة . . أسهل اذن أن تتحدث عن علاقات صحفية بالصحف والمجلات الخارجية ويمكن أن تضيف لها الدول كذلك دون جهد كبير، وفعلاً

كان هذا هو ما حدث بالضبط، قالت النيابة انني من العناصر المعادية للنظام التي تعتنق افكارا هدامة والتي دأبت على تشويه صورة الحكم والحض على الازدراء به، وانني كتبت مقالات في مصر والخارج تروج لهذه الافكار وانني عضو قيادي في الحزب الشيوعي المصري بلجنته المركزية ومكتبه السياسي. كان واضحاً جداً لكل من يتأمل بهدوء في مرافعة النيابة ان جانباً من أهداف هذه الحملة كلها هو تصفية حسابات الحكومة مع مرشحي المعارضة في الانتخابات التي اجريت قبل شهرين من القبض علينا، وخاصة هؤلاء المرشحين الذين نددواباتفاقيات «كامب دافيد» حيث كان قد أجرى استفتاء يقضي بحل البرلمان والموافقة على كامب ديفيد مع النص على اعتبار انتقادها عملاً من اعمال العداء للنظم الاساسية للدولة، كان الدكتور جميل حقي قد رشح نفسه في كفر الزيات حيث يحظى بشعبية هائلة وكان ترشيحه ومعركته الانتخابية هي لب موضوع الاتهام، كذلك كان ترشيح عريان نصيف وابو العز الحريري.

كان الدفاع دفاعا عن الحريات وعن الديمقراطية، وانتقادا مرا لانقياد النيابة لاجهزة البوليس، واعتمادها الكلي على ما تقوله المباحث من ان التحريات قد أثبتت كذا وكيت، وقبولها لفكرة اعتبار الكتب والمجلات مضبوطات، وتوجيه الاتهامات للناس بناء عليها، كانت النيابة تتبنى بالفعل المقولات «البوليسية» فتقول ان «الفحص الفني المبدئي قد أثبت كذا وكذا..»

بعد ما يقرب من ساعتين رفع القاضي الجلسة وأمر باستدعاء بقية المتهمين ليكون الجميع في القاعة انتظارا للقرار، اذن فالمحكمة لن تؤجل وعلينا أن ننتظر.. جاء الزملاء الذين تقدموا للمحكمة في الصباح. .كانت الحراسة مشددة جدا.. أخذ ضباط المباحث يخلون المقاعد بخشونة كما لو أنهم ينتقمون من القضاة الذين سمحوا للاهالي بالدخول... كان عليّ ان اقف فوق مقعدي لاحيي نبيل الهلالي وزكي مراد وابو العز الحريري وحسين عبد ربه ومحمد الجندي وعبده جبير والآخرين... أبلغني حسين انهم جميعاً كانوا قلقين جداً بسبب حبستنا كلينا وترك الاطفال بمفردهم.

خرجت هيئة المحكمة وتوقفت الانفاس انتظاراً لسماع القرار.. تحول البحر الهائج الحي الى صورة صامتة فجأة، وتعلقت الانظار بالملامح السمحة للمستشار: أخذ يقرأ بهدوء قرار المحكمة: «الافراج عن جميع المحبوسين بضمان محال اقامتهم»... تحركت الصورة من جديد، دبت فيها حياة أشد عنفا تصفيق.. صراخ... هتاف استغرق أقل من دقيقة الى أن انتظم من جديد في نشيد هادر واحد «بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي» وبعد ذلك، عاش القضاء الوطني... عاش القضاء المصري... ثم «نحييكم نحييكم نشد على أياديكم».. كان ضباط

المباحث قد بادروا الى الانسحاب وقد تغيرت سحناتهم وكأنما تلقوا ضربة قاضية بينما أخذ رجال الشرطة والعساكر يصفقون ويشاركون المحبوسين وأسرهم والمحامين والاصدقاء فرحتهم. . . ولكن المباحث بالقطع سمعت الهتاف جيدا. .

قبلت زوجي وأولادي وأصدقائي قبل الرحيل. . على باب المحكمة صافحني حراسي بحرارة أدهشتني، وكأنما هناك هم انزاح من على قلوبهم طلب مني العسكري علبة سجائر أجنبية ثم أضاف ولكنني سعيد حتى لو لم تعطها لي. . في الطريق الى سجن القناطر من جديد استأنفنا المناقشة حول الاسعار وكنت ممتنة. . استغرقت عملية تفتيش اشيائي وقتا طويلا جدا. . كانت هدى قد جاءت الى المحكمة في الصباح وتركت لي كمية هائلة من المأكولات الطازجة، وكان رفعت السعيد قد ترك لي كتابه الجديد عن «محمد فريد» فصادره ضابط استدعي خصيصا من سجن الرجال لكي يفتح سجن النساء لان وصولي تأخر كثيراً عن الموعد الرسمي لاغلاق السجن. . فشلت كل المساعي للحصول على الكتاب. . . كانت السجانة التي فتشتني شديدة البدانة بذيئة السلوك ساعدها مخبر مخصص لي. . استأذنوني في مصادرة بعض الحلوى والصابون والمأكولات وقبل أن أوافق كانوا قد أخذوها. . لا بأس وصلت الى العنبر، ترافقني سجانة اخرى، أعلنت بصوت عال حتى يسمعني الجميع: قررت المحكمة الافراج عنا جميعا. انطلقت الزغاريد والطبول وانطلق هتاف عاش كفاح الشعب المصري. . . وصلت مرهقة للغاية الى زنزانتي غيرت ملابسي وأخذت أوزع الحلوى والصابون والمأكولات على صديقاتي المصدورات. . كانت لوزة التي ماتت بعد خروجي بأقل من شهر قد أوصتني أن اتي لها بحلوى ملفوفة في أوراق حمراء. . . ابتهاجهن حقيقي صادق وفطري. . . استمعت الى الاخبار حتى غلبني النوم.

في الصباح وجدت ان الصحف نشرت باقتضاب خبر الافراج عنا. . . توجهت الى مكتب المأمور أطلب الكتاب المصادر. . . قال لي عرضا: الم انصحك من قبل الا تحملي معك مطبوعات انهم يطلبون الى ان اقدم فيك بلاغا بسبب التقدم. . . لم انتبه لمغزى هذه الجملة الا بعد اسبوع. . قلت له وهل تكتب في بلاغا حقا؟ قال باقتضاب نعم طلبت ورقا وقلما لاكتب برقية لهيئة المحكمة. . كان نصها على ما أذكر موجها لرئيس المحكمة:

«انني اذ أحييك وزملائك لاشعر بالامتنان والفخر لانتمائي الى وطن عظيم انتم من بين خيرة أبنائه الذين يرفعون لواء الحق والحرية ويدافعون عن التراث الديمقراطي والحريات العامة».

أخذ المأمور اللواء «ابراهيم صبري» صيغة البرقية وقال اكتبي لنا ورقة لخصم تكلفتها من أمانتك وتمتم منشرحا «هذا جميل» بعد ان قرأها ولكنه استدرك قائلا: ولو انه لا يجوز لي السؤال

الا ترين في ارسال هذه البرقية خطرا يهدد بالاعتراض على أمر الافراج عنك. . . قلت له نحن نعبر عن آرائنا ونسلك السلوك الصحيح بصرف النظر عن النتائج. .

بعد اسبوع جاءت سيارة الترحيلات وكان علي أن أتوجه الى نيابة امن الدولة لاواجه التحقيق في البلاغ المقدم من مأمور السجن حول ادخالي نشرة «التقدم» كان قد مضى على الحادث ثلاثة اسابيع كاملة، ليس هناك معنى للتحقيق فيها الان سوى محاولة المباحث العامة لتأجيل خروجنا بأى ثمن. . . في مقر النيابة وجدت كل من نبيل الهلالي وجميل حقي وعريان نصيف. . . يجري التحقيق معهم في قضية هتاف؟!. . . هذه بدعة جديدة. . . لكنه الغيظ والاكتشاف المتكرر لاجهزة الامن ان شعار سيادة القانون، بالرغم من عشرات القيود التي تكبله، أخذ يهدد نفوذها المطلق تهديدا حقيقيا. ها هي المحاكم تصدر قرارات بالافراج عن المعتقلين وتجري محاكمة ١٧٦ متهما في احداث انتفاضة يناير ٧٧ وقد أفرجت عنهم جميعا المحاكم الاستثنائية التي مثلوا امامها

انتهى التحقيق بسرعة في قضية «التقدم» ولم يصدر امر بحبسي على ذمتها على العكس من الزملاء صدر أمر بحبسهم على ذمة قضايا الهتاف بحيث يبدأ الحبس الجديد بعد انتهاء مدة الحبس المقررة أصلا الى أن يأتي اعتراض رئيس الجمهورية على الافراج عنا حيث يعطيه قانون الحريات هذا الحق.

عدت الى السجن بعد ما يقرب من ثلاث ساعات كان حارسي هذه المرة معاديا جدا لنا، هو ضابط حديث التخرج من كلية الشرطة له قناعات دينية عميقة يفترض بصورة مسبقة أننا معادين للدين. . . حين قلت ان الشعب الفقير عاجز عن الحياة رد بسرعة «الا يطفحون» وبادر الى اتهام الناس بانهم ينجبون اطفالا كثيرين ثم ان الاسعار ترتفع في كل انحاء العالم والقرآن على أي حال نص على ان الرزق من عند الله ثم أخذ يستجوب السائق حول راتبه وطريقة حياته بصيغة بوليسية حقيقية. . . قلت لنفسي هذا ضابط يعد نفسه للعمل في البوليس السياسي وسوف يصل بسرعة كان يلتقط كل كلمة أقولها بانتباه شديد. . . وكنت أحمل حقيبة حمراء قال: هل أعددت هذه لحمل المنشورات. . . ثم صمت قليلا وأضاف وهي حمراء أيضا. . . أخذ يسالني حول انتماءاتي السياسية القديمة فقلت: انني كنت عضوا بالاتحاد الاشتراكي العربي وأنني كنت ناصرية وناقدة لها في آن واحد، وأنني الان ضد الانفتاح وضد كامب ديفيد وأرى ان السياسية التي تنتهجها حكومتنا سوف تؤدي الى الخراب. . فسأل الا تخافين على أطفالك؟ قلت هل تعتقد أن هناك ام في هذا العالم لا تخاف على أطفالها. . فقال انا لم أتزوج ولم أجرب بعد. . . أجبته انا. . . نعم أخاف على أطفالي. . . أخاف عليهم جدا، وامنحهم حياتي ولكن اقول لك ايضا ان عملي السياسي هو

من أجلهم . . . أخذ يسأل أسئلة عن السجن . . . وعن نبيل الهلالي وزوجته فاطمة زكي التي رآها في النيابة وإذا ما كنت اعرفها منذ بعيد . . ان هذا الضابط اما أنه سياسي هاو او بصدد الاعداد ليعمل في البوليس السياسي .

حين وصلت الى السجن قابلني المأمور . . . شعرت بمدى حرج موقفه . . . بالقطع لم تأت المبادرة من جانبه فلو كان الامر كذلك لحققوا معي منذ زمن طويل . . . تجاهلت الموضوع كلية وفي الطريق الى زنزانتي قابلتني السجانة التي استقبلتنا في اليوم الاول كانت شاحبة للغاية وبائسة المظهر قالت هل أستطيع ان استشيرك في أمر؟ قلت بكل تأكيد، ولكن انتظري حتى تستريح اعصابي قليلا . . . تعالي قبل التمام . . في الثالثة وجدتها تدق بابي . . . الشحوب واليأس والشرود . . . ضاعت معالم القسوة والتنمر والفتونة . . سألتني هل يمكن أن أعتبرها أختي . . صمت قليلا . . . ذلك صعب في الحقيقة ولكنني قلت بالقطع نعم . . . قالت أنا باختصار أعاني منذ خمس سنوات عناء مرا . . . . أنا شقية جدا واخذت تبكي بصمت . . . زوجها عامل بناء . . سقط ذات يوم منذ خمس سنوات فانكسر عموده الفقري ظل يعالج سنتين متصلتين . . تعلمت خلالها كل أشكال التحايل على الحياة وأنفقت كل شيء . . . شفي الرجل بعد أن كانت هي قد استنزفت السجينات الداعرات بوجه خاص . . ورغم ان الرجل وجد عملا . . . في مخبز هذه المرة- الا انه يعاني من العجز الجنسي الكامل ويرفض كلية أن يعرض نفسه على طبيب حتى ذلك الذي عالجه طيلة السنوات السابقة . . . . قالت انها استخدمت كل الحيل وصل بها الامر الى ان هددته بترك البيت دون رجعه . . . ولكن لمن تترك أولادها الاربعة ولمن تتركه هو الذي تزوجته وهي في الرابعة عشرة من عمرها . . . ان اشجانها تتجدد بحرقة في الشهور الاخيرة . . بعد أن سكن الى جوارهم طالب شاب جاء من الريف للدراسة وتشعر نحوه بانجذاب عنيف «أصبحنا في الايام الاخيرة نتبادل النظرات كالافلام تماما وللمرة الأولى شعرت أن تعلقي بزوجي قد خف جدا وانني يمكن ان أنقاد لهذا الفتى ولو ادى ذلك الى موتي» . . كان هذا تعبيرها بالنص . . . . شعرت تجاهها بشفقة حقيقية ها انذا امام مشكلة فعلية من مشاكل النساء وعلى ان انصح واقدم حلا . . . تذكرت : «س» قاتلة زوجها التي حكم عليها بالسجن المؤبد . . . كانت مشكلتها مشابهة لهذه تماما . . . وكان اعتزاز الزوج بنفسه وبما يتصور انه مقياس رجولته يمنعه من الذهاب الى الطبيب وكان ان وقعت «س» في هوى جارها الاعزب وقدمته لزوجها على انه خالها وعاشا معا سبع سنوات متصلة وحين اكتشف الزوج الامر دبرت هي و «خالها» عملية قتله وحوكما وسجنا كليهما . . . قلت للسجانة عليك باستخدام كافة الضغوط لعلاج زوجك . . حاولي من جديد الجئي مثلا الى احد كبار الاسرة او القرية ليتقدم له بالنصيحة . . . قالت انه ايضا بات قذرا لا يبالي بشيء وشعرت انها لم تحك

لتسمع نصيحتي وانما لمجرد ان تحكي . . . وكنت على يقين بعد ان غادرتني أنها خلال ايام قليلة سوف تذهب الى غرفة جارها في اليوم التالى كانت عطلتها . . . فلم أرها . . . وبعد ايام وكنت قد نسيت حكايتها طرقت بابي . . . كانت متوهجة تزينت ولبست فستانا قصيراملونا ومضحكا . . . قالت سوف اذهب لجاري هذه الليلة وليحدث ما يحدث . . . هذه امرأة تتعامل مع الحياة بصورة حسية مباشرة وبسيطة للغاية . . . قلت احاول ان اثنيها وانا اعرف انها لن تنثني . . . حاولي من جديد سوف تقعين فريسة للندم وتعرضين اولادك لمشكلات قالت بل سوف اطلب الطلاق واتزوج من احب واغلقت الباب ولم ارها بعد ذلك الا قبل الافراج عني بيومين وكانت تواجه مشكلة مع ادارة السجن استغرقتها تماما .

زارني الزميلين . سامي منصور مقرر لجنة الحريات بنقابة الصحفيين ونجاح عمر عضو اللجنة . . . كان موعد الاعتراض او الافراج قد اقترب ولكنني كنت على يقين ان اسمى سوف يكون من بين المعترض عليهم ، ومع ذلك قمت في ذلك الصباح وملأت الحائط الملاصق لسريري كتابة بارزة الحروف واضحة للغاية . . . . كنت اعرف ان هذه الزنزانة التي استقبلت عشرات الفتيات من قبل سوف تستقبل العشرات في المستقبل كتبت : «ان الثورة الاشتراكية آتية لا ريب فيها ، وأشعر بالفخر لانني أسير معكن على درب النضال سعيا اليها» ووقعت . . .وأخذت اقيس المسافات وارى الوضوح والابهام في كلماتي واحسنها . . . . كان الوقت يمضي ببطء الى ان جاء سامي ونجاح وبلغاني بامر الاعتراض على اربعة عشر زميلا ، والافراج عن الباقين ، واحتجاز ستة بتهمة الهتاف ، كان سامي عائدا منذ اقل من اسبوع من هافانا حيث حضر مؤتمر عدم الانحياز . . . وكنت بالامس قد حلمت بصديقتي نجاح تبتسم لي وتشجعني وتحتضن رشا وتمسك بباقة من الورود الحمراء عرفت الكثير من التفصيلات عن مؤتمر هافانا وكيف أن اتفاقيات كامب ديفيد قد ادينت ادانة شاملة . . اوصيتها كعادتي بالاهتمام بالاولاد . . وقلت لنفسي ربما يفسد اولادي من كثرة الاهتمام علي ان انتظر اسبوعين اخرين حتى امثل امام محكمة جديدة وضعت خطة للقراءة والكتابة لم استطع الالتزام بها . . . فضلت او بالاحرى استسهلت الحديث مع السجينات والسجانات والاستماع الى الاذاعات . . . كان موعد افتتاح الدراسة قد اقترب . . شعرت بحزن غامر لان اولادي سوف يذهبون ربما للمرة الاولى في حياتهم بدوني . . لا باس . . لا ينبغي ان أغرق في الاحزان الرومانسية علي بالعكس ان اعد نفسي لحبس طويل . . . ربما قبل القاضي اعتراض رئاسة الجمهورية وحينئذ تبدأ دورة جديدة من الجلسات وهو أمر وارد جدا . . رتبت في ذهني قائمة من الكتب كنت انوي طلبها . .

في الصباح قالوا لنا استعدوا . . ففي المساء سوف يقدمون لكم عرضا مسرحيا «للموعظة» عند

الظهيرة جاءتني فتاة شلت ذراعيها بسبب الاهمال . . قالت بفزع وحش . . رضوان زوجي يعزف مع الفريق . . تزوجني شفقة وقال ان صوتي جميل . . هو طيب ماتت امه ومات ابوه وهو يعزف في الفرق الجوالة . . . ولكنني هجرته لاكسب اكثر ها هو، انه يتجاهل ندائي . . الله ينتقم مني ورضوان يتجاهل ندائي واخذت تبكي بحرقة . . . في حوالي السابعة بدأ العرض المسرحي اصطفت البنات على الارض اما التاجرات والقاتلات الكبيرات والمشرفات وانا فقد جاؤا لنا بالكراسي . . المسرحية هي «شفيقة ومتولي» . فهمت الان لماذا قالوا للفتيات سوف تتعظن . . . كنت قد رايت هذا العرض لليلى ابو سيف في وكالة الغوري القديمة بالازهر . . . جاءت ليلى ابو سيف بصحبة العرض وجاء معها مدير السجون ومدير المنطقة . تعرفني واعرفها جيدا مرت امامي عدة مرات بصحبة المصور وتجاهلتني تجاهلا تاما كاننا لم نلتق ابداً . . . يحكي العرض الموال القديم عن شفيقة الفتاة الجميلة التي جاءت من اعماق الصعيد لتسقط وتتحول الى داعرة، ثم يبحث عنها شقيقها «متولي» حتى يقتلها ثأراً لشرفه . . . في اللحظة التي تصور سقوط شفيقة تعالى بكاء الفتيات . . . الملفت للنظر ان ليلى ابو سيف من باب التجديد افسحت مجالا للفتيات السجينات كي يؤدين رقصات في العرض فكن جميعا افضل كثيرا من الفرقة المحترفة التي اتت بها . . . بصفة عامة كان العرض ركيكا . . . يحمل طابع الموالد وفهما متعاليا للفولكلور ووظيفته وتفسيرا اخلاقيا سطحيا للحدوته . . . ها انا ابدو كما لو انني انتقم . . . عدنا الى الزنازين في حوالي التاسعة واكتشفت سرقات كثيرة . .

مضى الوقت ثقيلا . . . وتوقفت الزيارات . . . كان الاطفال يستعدون للدراسة كان شقيقي فكري قد وعدني في احدى زياراته لي انه يتعلم قيادة السيارة خصيصا لكي اطمئن على وصول الاولاد في مواعيدهم . . . وفي اخر زيارة لي كانوا قد وعدوني انهم سوف يشترون الملابس الجديدة للمدرسة . تخيلتهم بها . . وحين يذهبون في اليوم الاول وتسألهم المدرسات والتلاميذ عني . . .

استيقظت ذات صباح نشيطة جدا . . لم اتذكر الحلم لكنني كنت افيض حياة وحيوية كنت اختبر حدسي . قلت اليوم سوف تزورني امينة وحسين . . . كان موعد الجلسة الجديدة قد تحدد يوم السبت ١٣ اكتوبر واليوم الخميس وانا لم اتلق زيارة منذ مدة طويلة . . في الواحدة تقريبا طلبت في غرفة الزيارة كانت امينة وحسين . . . كنت قبل الذهاب اتنفس عميقا عدة مرات حتى لا يبدو علي الاضطراب حين القاهم . . . قلت للوزة لقد صح حدسي وعرفت الان لماذا استيقظت نشيطة . . . لم تفهم الفتاة شيئا . في الطريق بينما اقطع الخطى بسرعة الى غرفة الزيارة قال مدير المنطقة انه من انصار الاقتصاد الحر عاش آدم سميث . . قلت ضاحكة لقد مات كارل ماركس منذ زمن بعيد، ومع ذلك انا من انصار الاقتصاد المخطط المملوك كله للشعب . . . فاذن عاش

كارل ماركس . . لا تريدين ان تخرجي اذن . . جاء السبت السعيد مسرعا . . كنا قد اصطلحنا على تسميته «السبت الحزين» بعد ان قام السادات بزيارته لاسرائيل يوم السبت ١٩ نوفمبر . . ولكن هذا السبت يختلف . . . هو سعيد على اي حال مهما تكن النتيجة فسوف اطل على العالم المزدحم، واقطع الرحلة التي كادت ان تصبح مملة من والى المحكمة ومن والى النيابة . . . سوف ارى زملائي . . زوجي واصدقائي . . كنت قد اعددت نفسي في الصباح الباكر بينما تاخرت السيارة التي وقفت تنتظر السجناء الرجال الذاهبين الى المحكمة في مدينة نصر كانت السيارة حقيرة جداً . آه لو رآها جاسر سوف يكتشف على التو أن الحكومة قد فقدت الاهتمام بأمه تماما . . . تلكأت السيارة في الطريق . . إنفجر اطار ونزلنا في الشارع . . السجناء الرجال بالسلاسل وانا وحارسي . . . وصلت متأخرة جدا الى محكمة الاستئناف . . ركزت بصري يسارا على مدخل القاعة على أمل ان ارى حسين . . . ولكنه كان واقفا بصحبة رفعت السعيد بالقرب من باب الحرس الى اليمين ابتهجت . . قلت له لا تحزن اذا لم اخرج هذه المرة . . رد أحد ضباط المباحث . . . لم لا تخرجين . . كان مجاملا جدا، لقد انتهت القضية الان بالنسبة لهم على ما يبدو . . جلست بصحبة حسين في غرفة الحرس وبعد قليل جاءت شقيقتي امينة . . . كانت جميلة تلبس ثوبا رقيقا طوبي اللون قررت ان استولي عليه حين اخرج ثم نسيت . . . بعد قليل قالوا تعالي لان الجلسة سوف تبدأ . . كان الحارس مضطربا حين شاهد هذا العدد الكبير من ضباط المباحث . . . قال سوف تدخلين في القاعة الرئيسية الى اليمين قلت له بصوت خفيض الا ترى معي انه سوف ياتي يوم قريب يحاكم فيه ناس اخرون في هذه القاعة . . . قال بحرارة يا رب . . فضحكت بصوت عال جدا لفت نظر الضباط والعساكرفخجلت . وصلت الى القفص كان مزدحما نسبيا . . زكي مراد . . . نبيل الهلالي . . يناقشان قضية قانونية، ماجد الصاوي . . واميرة يرتبان موعد زواجهما اذا ما رفض الاعتراض . عبد الحميد الشيخ يحمل طفلته منى . . . لا اعرف كيف دخلت الى القفص اعددت قائمة طويلة بالكتب التي اريدها واعطيتها لحسين في حالة اذا ما قبل الاعتراض . . بدا عليه الحزن . . وقال في هذه الحالة سوف تنتظرين ستين يوما على الاقل . . لكننا كنا نعول على نزاهة القضاة وعلى السخط المتناهي بينهم بسبب التدخلات السافرة من قبل السلطة التنفيذية في شؤونهم . . . كانت معركة استغلال القضاء والحفاظ عليه معركة طويلة خاضها السياسيون منهم وغير السياسيين . . . ولكن ما من شيء مؤكد بصفة كاملة . . طال انتظارنا لهيئة المحكمة . . عرفنا فيما بعد ان عضو اليمين لم يكن موجودا . . ربما تأجلت الجلسة شعرت بالاسى لحظات الانتظار الاخيرة صعبة ومملة فضلا عن امتلائها بالاحتمالات . . ولكنني كنت سعيدة لقربي الشديد من حسين . . . كانت علامات الصحة قد حلت محل الارهاق الشديد . . . عاودته

ابتسامته وقدرته على اشاعة الفرح من حوله . . . هو عدو بالفطرة للتجهم والاسى كان العالم الصغير المغلق المحاط بالمعسكر حميما واليفا ما دمنا معا . . تواجد المحامون الدكتور عصمت سيف الدولة الذي كان استاذا بكل معنى الكلمة في السياسة وفي القانون وفارس الساحة دون منازع . . الدكتور يحيى الجمل كان قلقا من اجل حزب التجمع . . نقيب المحامين احمد الخواجة . . عبد الله الزغبي واحد من المحامين الدؤوبين الذي لا يمضي اسبوع الا ويسافر في طول البلاد وعرضها مدافعا عن اعضاء التجمع من اسوان الى الاسكندرية وقد حمل اعباء لجنة الدفاع عن الحريات بالحزب . .

اخيرا وجدوا عضو اليمين وبدأت الجلسة . . . استغرقت المرافعات ساعتين كانت كسابقاتها دفاعا عن الديمقراطية وحرية الاعتقاد والضمير وهجوما عاصفا على اجهزة الامن والنيابة . . وحين رفعت الجلسة انتظارا لقرار المحكمة نشبت مشادة صغيرة بين كاتب الجلسة وزكي مراد اعتذر الكاتب على اثرها بشدة تذكرت «حبسة» ٧٧ حين حكى لي حسين مبالغا كيف ان زكي مراد كان وكانه يدير سجن «ابي زعبل» في غياب المدير . . .

خرجت هيئة المحكمة لتعلن قراراها برفض اعتراض رئيس الجمهورية . دوت القاعة بالتصفيق وهتفنا من جديد «عاش القضاء الوطني . . . عاش القضاء المصري . . جبهة عريضة لكل الشعب» . . . كنا نعرف ان بقية الزملاء لن يخرجوا خاصة زكي مراد ونبيل الهلالي وعريان نصيف ومحمد علي عامر لانهم محبوسون منذ هذه اللحظة على ذمة قضية جديدة . قضية الهتاف . . . ؟!!

حصلنا بجهد كبير على صورة من قرار الافراج على امل ان استطيع الخروج من السجن في المساء . حمل ضابط الحراسة صورة القرار وفي الطريق الى سجن القناطر من جديد احتفى بي العساكر والمسجونون من سجن الرجال الذين انتظروا خمس ساعات في السيارة حتى تنتهي جلستي في السجن كانت ماري المشرفة هي المسؤولة هذا المساء . . لاتعرف شيئا عن اللوائح او القوانين وحتى لو عرفت لن تسمح لي بالخروج . . سلكت معها كل الوسائل الى حد التهديد . . . ولكن الاحساس البيروقراطي والفزع لكوني متهمة سياسية جعلها تتشبث بموقفها لدرجة اضحكتني . . . امسكت بمقبض باب السجن الكبير واحتمت به وقالت : لا . . لن تخرجي الليلة فانت سياسية . . . كان الضابط الذي صحبني يراقب الموقف صامتا . . . وكان ينتظر كما وعد حسين «لن اغادر السجن بدونها» . في النهاية شكرته قائلة هناك اناس يفزعهم تحمل المسؤولية . . . احاطت بي السجانات لم اكن اطيق ولوج العنبر او الزنزانة هذا المساء . . . دخلت لاعد اشيائي ولابلغ كل العنابر والزنازين المجاورة انني سوف اخرج في الصباح انقضت الساعات الاولى من الليل بطيئة ولكنني نمت . . .

في الصباح الباكر وفور فتح الباب الخارجي تجولت في الزنازين المجاورة. . . عنبر المصدورين عنبر الولادة. . عنبر الجرب. . كانت القذارة واثار النوم عالقة بكل شيء الناس والارض ودورات المياه والشبابيك. . . كان عليّ ان اوزع اشيائي بالعدل على الاكثر فقرا فالفقراء. . . حزمت حقيبتي واخذت انتظر. . . جاءت الطبيبة قلت لها هل تعرفين رغم أن حبسي شيء عابر الا انني عرفت الكثير عن الالم وعن المهانة. . .هي امرأة مستقيمة تؤدي واجبها بامانة. . . مهذبة بسيطة السلوك ورقيقة كنسمة. . ودعتها بحرارة وجلست انتظر. . كنت اتساءل هل يا ترى تعرف هذه الطبيبة ان المخدرات تخبأ في غرفتها وان حقن المستشفى هي نفسها تستخدم لحقن المخدر مقابل مبالغ طائلة. . انها بالقطع لا تعرف شيئا او انها لا تستطيع ان تمسك بشيء. . . كانت تبدي دهشتها. . .من اين تأتي المصدورات بالمخدر. . الحشيش والبرشام والحقن. . . لو انها عرفت جيداً كل شيء فهل تستطيع ان تصارع الغيلان. . . يا لسذاجتي هل يمكن ان تستقيم الامور في السجن. . ذلك السجن الذي يقع في قلب عالم معوج كله. . في الواحدة جاء من يستدعيني الى مكتب المأمور. . كان علي ان استعيد فلوسي واملأ خانات واوقع اوراقا انتهى كل ذلك دون ان تاتي سيارة الترحيلة. . . اخذت أفقد اعصابي بالتدريج. . قال المأمور: «ارجو الا نراك هنا مرة اخرى». . قلت طالما بقيت ازمة الديمقراطية سوف تراني كثيرا. . . قال لا تقولي ذلك. . نحن في بلد ديمقراطي فلم ارد. . كانت «ماري» مشرفة الامس التي صرفت السيارة دون ان تسمح لي بالرحيل واقفة تشهد المحاورة بتربص. .

عدت انتظر وكنت جائعة بعد ان وزعت كل ما يؤكل وكنت قلقة لا استطيع ان اقرأ أو استمع الى الراديو. . . في الثالثة جاء حسين برفقة شرطيين ودعت الناس من جديد. . وخرجت كان عم عبد الموجود شرطي البوابة واقفا. . كان ينتظر العقاب بسبب فتاة هربت ولم يرها. . . وكان المأمور الذي يواجه متاعب جمة بسبب نفس الموضوع يحاول ان يتجنب اية مشكلات جديدة. . اعطى امرا بتفتيشي. . جرى تفتيشي بدقة بالغة وبدا عليّ الضجر. . . في الشارع لم اجد سيارة الشرطة مشينا قليلا فوجدت سيارتنا. . قال حسين لقد قبل الشرطيين الحضور على مسؤوليتهما بدون سيارة لو لم يفعلا لكان عليك ان تنامي في السجن هذه الليلة ايضا. . قلت كنت انفجر. . . عدنا بسيارتنا الى مقر المباحث العامة بوزارة الداخلية تذكرت ان هذه السيارة نفسها كانت قد استخدمت من قبل في مهمة مشابهة في بداية العام حين القي القبض على حسين في ٢١ يناير بعد اقتحام مقر حزب التجمع على اثر اصدار بيان يندد بزيارة الشاه المخلوع لبلادنا. . . كان التحقيق معه قد انتهى في مقر النيابة ولم يجد حارسه سيارة تعود به الى السجن. . عرضت عليه أن اوصلهم بسيارتي. . . كان محرجا ولكنه قال لا بأس. حين وصلنا سجن طرة كان علي ان «اسلم» حسين

لسجانيه . . . هكذا بدا الامر . . الظريف ان الضابط سألني اذا ما كان باستطاعتي انتظاره حتى ينتهي من اجراءات تسليم زوجي لاعود به الى المدينة . . انتظرته بالطبع . . وكان مثل معظم ضباط الشرطة الذين تعاملت معهم حتى ذلك الحين ساخطا . .

حين خرجت من مبنى المباحث في الطريق الى المنزل بصحبة حسين حيث كان الاطفال في انتظارنا . . استدرت خلفي لارى اذا كان هناك من يتبعنا .

فهرست

تقديـم ٩

التجـارب الأولى : ١٥

- على أبواب الأستئناف ١٧
- العاصفة . . يناير ١٩٧٧ ..... ٢٣
- ٨ تحقيق حول الغناء ٣١
- ليلتان في مبنى المباحث ٣٥
- العداء للديمقراطية . . . واسرائيل ٤٦

التحقيـق ٥١

رسائل من السجن ٦٥

صور من السجن : ٩٣

- النساء والشطرنج ٩٧
- السجـن ١٠٠
- جزيرة صغيرة في العدم ١٠٨
- الساعة والكيروسين والذهب ١١١
- مشروع الراقصة المجهض ١١٦
- الأمومة الآفلة ١٢٠
- المفتـاح ١٢٢
- حول الخير الضيق الأفق ١٢٦

المحاكمة ١٣١

السجن.. الوطن

إن الوحدة والانفراد بالنفس وتأمل العالم بهدوء مكاسب لا يحصل عليها المرء في عصرنا بسهولة . وفي السجن هناك دائماً متسع من الوقت لتأمل الأشياء والعالم بهدوء وسلام . أقول انه حتى في الظروف المعيشية الصعبة يمكن للمرء أن يتجاوز الحدود الصغيرة لزنزانته وللقسوة الواقعة عليه شخصياً حين يرى أن ذلك هو نصيبه من كفاح شعب عظيم . . . كفاح استمر أكثر من مائة عام من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدالة الحقيقية . . . هناك يرى المرء قضيته بوضوح أكبر بعيداً عن زحمة الحياة اليومية . وكم انصهر مناضلون شرفاء وعظماء في أفران السجون القاسية ، وخرجوا الى الحياة أشد قوة بل وأقول أكثر نضجاً . ورغم أنني لا أملك اجابة شخصية على سؤال التعذيب . . . ماذا لو تعرضنا للتعذيب ؟ ماذا لو لم يحتمل أحدنا . . . ماذا لو طال الاضراب عن الطعام حتى هددنا بالانهيار الصحي الكامل دون أن تتحقق مطالبنا . . . عن كل هذه الأسئلة أجاب مناضلون وكتاب وضعوا سيرتهم الذاتية وخبرتهم في كتب ذات قيمة كبيرة للحاضر وللتاريخ . . . تظل خبرتها الأساسية جميعاً ، رغم عمق الأحزان والجروح ورغم الأمراض التي لا تعالج ، تلك الخبرة الأساسية هي ـ ويا لمجد الناس المناضلين ـ ان الارهاب يزيد الناس صلابة .

فريدة . .

الثمن ١٥ ل.ل أو ما يعادلها

دار الكلمة للنشر تليفون ٨٠٣٧٤٠ ـ ص.ب ٥٢٨٨ / ١٣ ـ بيروت ـ لبنان